دُعاءٌ مثقوبٌ بالذَنْب

الكتاب: دُعاءٌ مثقوبٌ بالذَنْب

المؤلف: عماد الرجبان

عدد الصفحات: 256

الطبعة: الأولى 2019

الناشر: دار النخبة 6 شارع رجاء عبدالرسول، المتفرع من شارع وادى النيل

أمام سور نادى الزمالك – 01288688875

E-mail: alnokhoba@gmail.com

دُعاءٌ مثقوبٌ بالذَّنْب

رواية

عماد الرجبان

النخبة
للطباعة والنشر والتوزيع
2019

القرية

باغتتني عاصفة ترابية عندما وقفت أمام الناس ونظرت لنفسي في عيونهم.

سحبتني من عالمي ودارت بي كما يدور المفتاح، رفعتني عن الأرض كالثوبِ عن الوحل، حملتني من ثيابي، اصطدمت بي نظرات احتقار ولفحات حقدٍ أشعلت ثيابي. صفعتني آراء على شكل أحجار، نفوس رمتني بغيظها، وأخرى تربي لي قبرًا في سندان، ملأت فمي كلماتٌ على شكل تراب، ارتفع القمعُ بي، طعنتني أمنياتٌ في ظهري، جلدتني سياط العبودية، قلوبٌ سكبت أسيد حقدها على وجهي، ربطت أهواء يديَّ بالأفاعي، وأنيابٌ نفثت الألسن في شراييني.

حملت الصحراءُ أفكاري وأشعلت بها موقدها، ضربتني أوتادُ الخيامِ، طفت الرمالُ على صدري وغشى عيوني الصفرة، دارت بي في الحقولِ، هجم الجرادُ على ذاكرتي أكل تاريخي، نخرت الأرضةُ عظامي، غُمّدت الأشواك في مسامات جلدي، لفت المياه حولي قبضت على أنفاسي.

دعكت طينتي الأمواج ملأ الزبدُ أوردتي، دقت قشرتي حجارة الأودية شهقت بي كادت تفرُ روحي من جسدي أفلتتني ووقعت على قمة جبلٍ، يتغطى بدثارٍ أبيض.

كان جسدي قد أصبح ليناً لكني لا أعرف كيف أشكّله بأفضل مما هو عليه.

كان الجبلُ معوجًا بأحد جانبيه كديانة ضالة وتحته وادٍ سحيق لو ألقيتُ به صوتك لمَا عاد حيًا. وبه فوهة كبيرة سوداء كفوهة الشتائم، وسفحه الآخر يهبط بأناةٍ كإعياء الجفونِ. نظرتُ تحت السفحِ كانت هناك قرية قريبة يبدو شكلها كجنينٍ في بطن أمه يمتدُ منها نهرٌ صغير كالحبلِ السُري. سرتُ تاركًا جسدي للجاذبية وأنا أفكر أهذا رأي الناس إذن؟ أهذه نظرتهم؟. كل هذا بنظرةٍ من زاويتهم، ما أبشع أن ترى نفسك بعينِ الآخرين ولكن في كل الأحوال نحن نرى أنفسنا بعينٍ ويراها الآخرون بعينٍ أخرى. وحقيقتنا في هاتين العينين..

ماذا لو اعتدنا رؤية أنفسنا على حقيقتها، ألم يكن هذا الغرور قد خجلَ من نفسه حتى أسودَ وجهه ألم يكن هذا الكِبرُ قد سقطَ عن أنفسنا وأعادها نقية كما خُلقت، ألم يكن هذا الاعتزاز قد بُهت كباطلٍ يُدمغ بالحق، ولكن من يستطيع تجرّع رؤية نفسه كما هي.. نحن لا نرى داخلنا لأننا أطفأنا ضمائرنا.

صبغَ العشبُ المنسدلُ أقدامي بالخضرة وهو يعطي للنسماتِ شكلها بانحناءاتٍ مائجة تتخلله أزهارٌ برّية بيضاء وصفراء كأنجمٍ نسيها الليلُ لتُنبتَ بالنهارِ.

يطرأُ منها عطرٌ يتألفُ العابرين للقرية. اتضحت أمامي دروب بيضاء بين العشبِ كفرقِ الشعرِ على اتساع القدمين. رأيتُ على قمة الجبل خلفي سربًا من العقبان كشواهدِ مقبرةٍ طائرةٍ تستعد لدفنِ موتى تحتها في أحشاءها.

أخذني الانحدار ومررتُ عن بعدٍ بقطيعِ أغنامٍ يرعى السهل وراعٍ يتكأُ على عصاه يشرف عليها من السفحِ، وأرانب برية تجمع يديها كشعارٍ انتخابي وعيناها تترصد بقلقِ، فيما انتزع جلدُ الأرض الأخضرِ محراث يجره ثوران قويان يعقبهما فلاحٌ يدور بهما على مساحة الحقلِ، أشرفتُ على القرية تومضُ الفراشاتُ حولي بشتّى الألوان. استغربتُ لشكلِ البيوت فهي تتفقُ بكونها من. الحجارة وشكلها مظلمٌ حتى من الخارجِ. تبدو كمنحوتاتٍ أكثر منها كبيوتٍ.

تتفقُ في معانيها كلها على شكلِ أمنياتٍ مبتورة.

بعضُ البيوتِ ككفانٍ يدعوان.. وبعضها على شكلِ توسلِ وبعضها مُصممٌ كعينٍ تبكي، وبعضها تترجى وبعضها تركعُ بخضوعٍ، وبعضها ترتفعُ على شكل نجوى، وبعضها على هيئة يدٍ سائلة وبعضها على شكلِ أقفاصِ صدورٍ، وبعضها على شكلِ زهورٍ ذابلةٍ، وبعضها كفانوسٍ مُعلقٍ بيد قريةٍ مُعاقة غريبة الإيحاءِ، تعدو ظلال الغيوم على أرضها كهمومِ مساءٍ حزينٍ. ركض أطفالُ القريةِ نحوي وهم يصيحون..

غريب..غريب..أطفال بهيئاتٍ غريبة أجسامهم على شكلِ صمغ الأشجارِ أو دموعها منقوصون على هيئةِ محاولاتِ إنسانِ كمحاولاتِ خلقٍ فاشلة. تتوزعُ بعضُ أعضاءهم بشكلٍ عشوائي مشوهين كمبرراتِ الكذبِ، يرتدون ثيابًا لا تشبه بعضها إلا بكونها بيضاء، ثيابهم تشبههم وكأنها خُلقت معهم أو ولدوا بها. تلعبُ مع الريحِ بمرحٍ يملأ الساحةَ بين الأشجارِ المتفرقةِ فيما يظهرُ أنه طرفُ الغابةِ، كانوا يدورون حولي

وينظرون إلي وكأني أمنيةٌ انتظروها طويلًا، ثم انحسروا عنّي راكضين نحو أحدَ البيوتِ يصيحون أيها الشيخ غريب ..غريب.. بعد قليلٍ أطلَ الشيخُ من البيتِ، أزاحَ جانبًا بابًا ثقيلًا كأبوابِ الكرامةِ لدينا، وخرج وبيده عصى خيزران نظر إلي فأحسستُ بدبيبٍ في جسدي وأن سربًا من النملِ يسيرُ مكان دمي، اتجه نحوي وهو يسيرُ كحلقاتِ السلاسلِ يسترجعُ بعضَ خطوته ليمشي للأمامِ، رأسه أشيبُ كالندمِ ووجهه يسقطُ في لحيته البيضاء كما يرسبُ اللبنُ بالماءِ، وحاجباه كأربطةِ الحذاءِ ورأسه يتموّج كسرابٍ خادع، له عينٌ واحدةٌ والأخرى مغلقةٌ كفقاعةِ الخبزِ، ترتجفُ ثيابه التي تشبه الخوف.. انفضوا صاح بالأولاد بصوتٍ يشبه نشرَ الأخشابِ ويتكلمُ من روحه بلا شفاه ولا حنجرة.. أنا الشيخُ كذبٌ قالَ وقطعَ أذنه وأعطاني إياها، نظرتُ إليه بتوجسٍ وقلتُ في نفسي لا جديد في الناسِ يدعو للتعارفِ، وما التعرّف بشخصٍ جديدٍ سوى تجديد عقد بالصدماتِ.

أصبح الناسُ لا يستحقون الفضول وإن بدا غلافُ أحدهم صالحًا للاقتناءِ فعمّا قريب ستكشفُ التجربةُ عن صفحةٍ جديدةٍ من الجهلِ والتلونِ والنفاقِ، أو العبودية بأقبحِ أشكالها، أصبحَ الحصولُ على إنسانٍ حرٍ أكثر صعوبةٍ من إيقاظِ أعمى من عماه، وهذا ما يجيب السؤال الذي يسكنني منذ الطفولة لماذا لا يحفلُ كبارُ السنِ بالعلاقاتِ ولا ببقاءِ علاقاتهم السابقة ولا يحتفون بجديدِ الوجوه؟.

وببساطة لأن الحياة والتجارب عرضت عليهم كل ما لديها في معرضها البائس من شتّى الأصنافِ، إذ كان الإهتمامُ بها خطوةً تعودُ بالندمِ

والنفرةِ والبحثِ عن قفلٍ كبيرٍ معمرٍ من أحدِ أبوابِ التاريخِ لتضعه على بوابةِ النفسِ، لتصاب بنفسك هو أهونُ من الإصابةِ بالناسِ، والمصيبةُ أنه شيخٌ في الكذبِ.

هذا في عالمكم أنتم قالَ الشيخُ: غريبٌ.. هل سمعَ حديثَ نفسي بأذنه التي أعطاها لي.. إذن هذا هو أسلوب التعارف لديكم تبادلُ الأعضاءِ.

نعم وأنا الشيخُ كذب.

وماذا يعني هذا قلتُ.. وأكملتُ بنفسي هل أوسعك تمجيدًا ولست إلا كذبًا أنا الشيخُ كذبُ الأكبرُ عمرًا بهذه القريةِ ولستَ بحاجةٍ لتمجيدك وسمعَ مرة أخرى حديثَ نفسي ماذا أعطيك وأعطيته ساعتي، نظر إليها باستغرابٍ، حسنًا أنت لا تعرفُ هذا فاضطررتُ إلى قص أظفري وأعطيته له.

إذن أنت كبيرُ هذه القريةِ ولماذا يسمونك الكذب؟ الكذبُ هنا ليس عيبًا وإنما خبرةٌ في الحياةِ.

وعدتُ بعقلي لعالمنا وقلتُ لنفسي ما أصدقُ هذا التعريفِ الصادرِ عن الكذبِ لكَم تُعطي الأضداد قيمًا لبعضها وإذا كان الكذبُ هو مطلع وواجهة هذه القريةِ فأيُ قبحٍ وراءه.

هذه القرية تسمى قريةُ الأمنياتِ وأنا لست أفضلُ مَن فيها ردّ الشيخُ: لماذا تقع بيوتكم على هذا الشكلِ ولماذا يبدو أطفالكم مشوهين هكذا؟ نحن قريةٌ تمثلُ أمنياتِ الإنسانِ، كما أنَّ العالمَ الذي أتيتَ منه يمثلُ تحقيقها وإنما تقعُ بيوتنا بهذه الهيئات لأننا نسكن أمنياتنا فتكونُ بيوتُنا على شاكلتِها

كلُ شيءٍ هنا كما ترى منقوصٌ ومشوّه لكننا على تمامِ السعي لتحقيقِ أمنياتنا والوصولِ إلى التكاملِ. كلُ شخصٍ هنا يبذلُ جهده ليُخرج جوهره إلى مظهره حتى يكونَ صلدًا كما أنت عليه ومن يسبق في هذا يقدم على غيره في القريةِ -هل أنتَ عبدٌ لدى نفسك؟ كلنا هنا عبيدُ أمنياتنا وأنا ورثتُ العبوديةَ عن أجدادي وكيف يعرفُ الناسُ هنا أنك تكذب؟ حسنًا سأكونُ صادقًا معكَ يروننني كاذبًا لأنهم يرونَ الكذبَ داخلي، نحنُ هنا نرى أنفسنا من الداخلِ ونتبادلُ الصفاتِ أحيانًا.

-هذا غريب لا بد أنكم في غايةِ النقاءِ.

نحن لا نحتاجُ إلا لتمامِ الأشكالِ لنصبحَ أناسًا مثلكَ نحنُ بدائيون بالمظهرِ لكننا متكاملي الجوهر.

- أعرفُ أن الإنسانَ يكذبُ خوفًا وطمعًا فمما تخافُ وتطمعُ أنتَ حتى تكذب؟ أخافُ من قبحِ المقصدِ وسوءِ النيةِ فأجمّلُها بالكذبِ، سوءُ النوايا والأخطاءِ والذنوبِ تجعلُ منك جبانًا ويأتي الطمعُ تبعًا لذلك، أن يكونَ الإنسانُ على تمامِ حقيقته فهذه المواجهة الأصعب في الحياةِ، ونحنُ هنا لا نشيخُ عن أعمارِنا وإنما عن الأخطاءِ والذنوبِ.

- ما بهم أهلُ القريةِ قد تجمعوا على أبوابِهم، إنهم يريدون التعرفَ عليكَ تعالَ معي لأُعرفُكَ عليهم ولا تنسى أن تُبادلهم التعارفَ، هذا منزلُ الراعي وهؤلاءِ بناته الثلاثة هذه الفتاة الكبرى غفلة، سماها أبوها بهذا لأنها ولدت في يومٍ غفلَ فيه عن القطيعِ فهاجمته الذئابُ، كان شكلُها بدائيًا حتى

أن معظم طينة جسدها لم تنبتْ أعضاءً وتمسك عصى بيدها، أعطتني شيئًا من الحسدِ وأعطيتها عصىً من أضلاعي، وهذه طِيبة، الابنة الوسطى كان فمها مقبوضًا للداخلِ وجديلتها أمام وجهها أعطتني نفحةَ طيبٍ وأعطيتها شيئًا من الحبِ. وهذه حكاية، ابتسمت لي وأعطتني بضعَ كلماتٍ وأجبتها بلمسةٍ حنون. أما والدهم فيرعى القطيعَ وهذا منزلُ السيد عبد وهو حاملُ لواء الولاءِ وأمانة العبودية..مرحبًا بك سيدي وانخفض متذللًا بصوت يشبه صفق أجنحة نفرة الطيور، كان جسدُه ضخمًا وكأنّه ولد من بطنِ اللّامبالاةِ، لونُ جلده ذليلٌ لا ينتمي للألوانِ، وكفُه كبيرةٌ بأصابعٍ كالأوتادِ، له جمجمةٌ ضخمةٌ وعينانِ غائرتانِ آتيتانِ من بعيد، أعطاني الخضوعَ وأعطيته شيئًا من العطفِ، وهذا منزلُ السيدةِ الكادحةِ الولودِ وهي تلدُ كلَ سنةٍ وتطمحُ أن تلدَ سيدًا للقريةِ يومًا ما، نظرتُ لوجهها الكادحِ كان وجهها لا يعكسُ الضوءَ وعلى جبينها ندبة حمراء كلحمٍ محتقنِ واحدى يديها أقصرُ من الأخرى لها شفةٌ مغلقةٌ كشمعٍ ذائبٍ واحدى عينيها معلقةٌ كقلادةِ.

لقد توقفت عن الإنجابِ قالت مصححةً قولَ الشيخِ كذِب، وبدا أن صوتَها لم يُخلق للسمعِ. وأردفت هذا ولدي الطفل صدق أصغر أطفال القرية سيكون سيد القرية حين يكبر أنه خالٍ من التشوه كما ترى واستغربت أن الطفل متكامل الشكلِ أشقر جميل له ابتسامة تموج براءة، مدّ لي يده مرحبًا وكان صوته كخرزِ المسبحة حملته بيدي وقبلته وأعطيته قطعة من ضميري وأعطاني قطعة من قلبه..مررنا بأبوابٍ مغلقة وأشارَ الشيخُ كذِب لأحد الأبوابِ قائلًا هذا منزلُ عجوز الصفحِ لا بد أنها ذهبت تجمعُ الأعشابَ.

ورأيتُ عند البابِ القادمِ شخصًا على شكلِ كرسي خشب، لا شك أنك مستغرب لشكله، هذا الشابُ الليّنُ الجسدِ وهو يأخذ شكلَ الأشياءِ التي يجلس عليها لأن جسده بلا عظام، نهضَ اللينُ من كرسيه وما زال الكرسي مطبوعًا بجسده حتى بدأ ينتفخُ تدريجيًا ويعودُ لشكلِه.

– غريبٌ أَن تؤيدَ برأيك، فهذا وارد، أما أنْ تؤيد بجسدِكَ فهذا منتهى اللّيونة.

إنه ليس إلا امتدادًا للأشياءِ. تُرى هل يشملُ هذا الليّن مواقفك أيضًا؟.. أجاب بصوتٍ كرشاشِ الماءِ.. يا سيدي أنا شخصٌ بدائي إذا سمحت لي لا أحملُ عظامًا بجسدي ولا أحملُ معارضةً في مواقفي، أحيانًا تكونُ أشكالُنا صانعةً لمواقفنا وأنا لا أملك إلا هذا الليّن، أكسب به الرضا ممن حولي.. أعطيته شيئًا من الصلابةِ وأعطاني رأيًا مؤيدًا واستبقنا شخصٌ يتكلمُ كإبرةِ الماكنة مرحبًا بك سيدي من دواعي سروري، وقاطعه الشيخُ كذِب: هذا دلو الكلام أو مرض الكلام، إنه مصابٌ بالكلام إذا توقّف عنه يتورم وجهه، كان جبينه منحرفًا إلى رأسه وليس لديه أذنان، جسدُه هزيلٌ كمواقفِ الجامعةِ العربيةِ.

– كيف نبتت لك شفاه دون الآخرين، سألته من رغبتي الشديدة بالكلامِ أنا أتكلمُ في كلِ شيءٍ حتى مع الأحجار والأشياء، قاطعته: ما دمتُ لا تملكُ أذنين فإنك لن تشعر بثقل اللّغو على الناس.

أشار لي الشيخُ كذِب أن نبتعد عنه فهو سيبتلعنا بكلامه..أستطيع أن أعلمك الكلام، صاح وراءنا، التفتُ إليه قائلًا: أفضلُ تعليمٍ ما تتلقاه من

نفسِك، فإلهامُ اللهِ خيرٌ من تعليم البشر. اقتربنا من منزلٍ لا يُشبه المنازلَ وليس على شكلِ أمنية، كان شكلُه متشظيًا كالنفورِ، وبابُه أسودٌ، يقفُ أمامه شابٌ قوي البنيةِ ينظرُ إلينا كمن أدرك ثأره بعينين تقدحان شرًا، هذا السخطُ المتطور أفضل شبان القريةِ وبدت تشوهاتُه أكثر من الآخرين، لكنها ليست ظاهرة، تملأ جسده ندب سوداء كبقعٍ محترقةٍ، له شعر كالشوكِ وشفة واحدة كموجةِ رملٍ، وأحد كتفيه أعلى من الآخر كعرجةِ الأقدامِ، وفي صدره خسفٌ كأن نفسه تقيمُ في حفرةٍ، وعروقُ رقبته نافرةٌ كعروقِ النخلِ.

منْ هذا أيها الكذِب سأل بصوت كطعنةِ السيفِ في الجسدِ؟ إنه غريب جاء قريتنا وجئت أعرّفه عليكم..لا حاجة لنا بالغرباءِ قال ولفحني بحقدٍ مجوسي. أراد الشيخُ كذِب تذكيره، السخط المتطورِ هو ابن جارية أخذته القريةُ كفديةِ عن قتلِ أحد أبناءها وهو صغير من القريةِ المجاورة، ورأيت وجهَه يغلي حقدًا على الشيخِ كذِب.

لماذا يسمونك السخط المتطور؟ سألته، لأني أمثلُ ثورةَ الجيلِ الجديدِ وسخطه على الموروثِ، نسعى لتحقيق هويتنا بطمرِ الثقافةِ السالفةِ، ونحنُ نُماشي عصرَنا ونطبعه بطابعنا ونتطبعُ بسماتِه، وهذا حقُ كل جيل أن يحققَ ذاتَه ولا يكونُ مجرد امتداد، نحنُ تيارُ الحداثةِ، وأعطاني من نبضاتِ قلبه وأعطيته احتقاري. والآن لنمضي قال الشيخُ كذِب: ستتعرف لاحقًا على بقية أهلِ القريةِ.. ترددَ في داخلي قولٌ..غريبٌ كيف يكونُ بهذا الحقد ويعطيني من نبض قلبه؟. وكيف لأُناسٍ يكونُ الصدقُ صغيرَهم والكذبُ كبيرَهم أنْ يصبحوا بشرًا أسوياء؟. والتفتَ إليَّ الشيخُ كذِب بنظرةِ امتعاضٍ، وكان أيضًا يحدّث نفسَه ويهمهم كمعدةٍ جائعةٍ.

وأتممتُ حديثي لقد اطلعتُ على مظهرهم لكن جوهرهم يحتاج لمعايشتهم، إن كان جوهرُهم ناصعًا وبريئًا وعيوبهم في مظهرهم وأشكالهم، فما أشبههم بعالمِنا.

هناك كل القبحِ مستورٌ عن الأعينِ، الشكلُ متكاملٌ، والجوهرُ مشوّهٌ ومُعاقٌ، لكن بطريقةٍ مقلوبة، لكنهم أفضل منّا حالًا، فهم يتضرعون للتكامل في الشكلِ بما يناسب جوهرهم، وليس مثلنا، فنحنُ لم نعُد نعنى بخرابِ جوهرنا وتشوهاته.

الآن أيها الغريب عليك أنْ تذهب للجبلِ لترى الحكيمَ صُدفة، وسيخبركَ بما عليك فعله.. لماذا عليّ أن اذهب للحكيمِ؟..إذا أردتُ البقاءَ بيننا فعليك أن تلتقيه، يقع كوخُه الوحيد عند الجبلِ..وأنتَ ألا ترافقني؟..لا هذه مهمتك وحدك لا يمكن مرافقتك في هذا الأمر.

اذهب الآن، وتركني الشيخُ كذِب ومضى لمنزله.

قصدت الجبلَ صعودًا ففاجأني غرابٌ فوق رأسي كان يتردد قُربَ رأسي ويرتفع، وكل مرةٍ يلقي بريشة ظل يحومُ فوقي، هل يريدُ هذا الغراب التعرّف عليّ أيضًا؟، ضربته بحجرٍ حتى ابتعد وحطَّ على صخرةٍ أعلى السفحِ وهو ينعقُ، واصلتُ مسيري حتى بلغتُ الجبلَ، كان كوخ الحكيمِ على يسارِ الجبلِ، توجهتُ إليه متسائلًا: لماذا يعتزل هذا الحكيمُ الناسَ ويبدو كوخه كمرصدٍ يتقدمُ القلاعَ القديمة؟. مصممٌ على شكل رجلٍ ساجدٍ تمرُ به الغيومُ، وكأنه ليس من أهلِ الأرضِ، يتطايرُ حوله الحمامُ،

دنوتُ منه فطارَ الحمامُ الذي يلقطُ الحبَ ودود الأرضِ بين الحشائشِ، طرقتُ البابَ الخشبي السميك، وسمعتُ وقعَ عصىً تقترب، فتحَ الباب وخرج رجلٌ وقورٌ على مشارفِ الشيخوخةِ يوقع شكله الارتياح في القلبِ، هادئ العينين حاني النظرة تفيضُ الألفةُ من محياه، له سيماءٌ ناطقةٌ توحي بالنّقاء، وعلى وجهه بقعٌ طفيفةٌ كبقعِ الجباه على سجادِ المساجدِ.. مرحبًا بك أيها الغريب قال بصوت حفيف الأشجارِ وابتسامة نقية كساعةِ السحر، والغريب أنه بلا تشوهات.

– أرسلني إليك الشيخُ كذِب قال عليك أن تلتقي الحكيم صُدْفة نعم تعال معي..وأخذني صامتًا إلى كهفٍ داخل الجبل، كان الكهفُ منخفضَ المدخلِ تدخله منحنيًا، ثم يرتفع سقفه وهو أشبه بمنزلٍ على جانبيه صخورٌ بيضاء وفي سقفه فطورٌ عميقةٌ، ومُعلّق وسطه فانوس تحتاجه لظلمةِ النهارِ داخله. أشعل الحكيمُ صدفةً فتيله فأضاء جوانبه، تشعرُ بلفحِ النسماتِ تدخله وهي تخفف برودته، ستبيتُ هذه الليلة هنا قال الحكيمُ.. ولماذا هنا؟ سألتُ ألا تريدُ الانتماء لهذه القرية؟ إذن عليك أن تفعل ما أطلبُ منكَ، واستغرقَ الحكيمُ في الكهفِ، فبدت ساقية ماء داخله يخرجُ ماؤها من عينٍ مرتفعةٍ في نهايةِ الكهفِ ويتجمعُ ماؤها كساقيةٍ ضحلةٍ، ثم تنتهي بشقٍ يأخذُ الماءَ إلى داخلِ الجبلِ. أزاحَ الحكيمُ صخرةٍ فيما يشبه الدكة وأخرج كتابًا.

اسمع أيها الغريب عليك أن تعيشَ طقوسَنا لتكونَ واحدًا منّا، وهذا الكتابُ هو منهاجُ أجدادنا وهو منهاجُ التكاملِ، يجب أن تبدأ من جديدٍ

وتغتسل من ماضيك وسالفِ حياتك وتنامُ بهذه الساقية حتى صباحَ الغدِ حتى تنسى عقلك وتعيشُ بقلبِك، وعليك أن تتعلمَ التفكير بقلبِك، فإن حدثتكَ عينُ الجبلِ فستملكُ السرَ، للوصولِ للإنسانِ يجب أن تكشفَ جوهرَك حتى تكافئنا، يجب أن يتخلل النورُ جسدَك الصلد.

-وماذا سيكونُ حين أفعل هذه الطقوس ؟ ستكونُ جوهرًا وترى بواطنَ الأشياءِ، وتبصرُ حقيقةَ الامورِ وسيبنى جسدُك مثلًا لجوهرك وتبرأُ من النفاقِ، وتكونُ صادقَ اللّبِ والشكلِ.

والآن اخلع ملابسك فأنت لن تحتاجَ إليها بعد الآن.

-لماذا لا أحتاج إليها؟ لأنك سترتدي صفاتك وستكون ملابسُك بقدرِ صفاتك.. تمدد في الساقية.

استجبتُ وتمددتُ في الساقية كان ماؤها دافئًا وشفيفًا كالضوءِ. غطسَ جسمي فيها إلا رأسي ألقيته على صخرةٍ كالوسادةِ عند نزولِ الماءِ للساقية وأخذ الحكيمُ يتلو من كتابه: أيها النور الأعلى وقبس الوجودِ دمتُ في عليائك، لك الملكُ أوله وآخره، طهّر هذه الروحُ من الدنسِ واكشف جوهرها المكنون، وأخرجها من ظلماتِ النفسِ إلى نورِ البصيرةِ، ونقّها إلى صورتها الأولى، حيثُ تمّ خلقك وبلغت رحمتك، وابسط عليها مِدادَ عدلك وتمّم عليها نعمة خلقك ونقاءَ فطرتك وأقمها على أمانتها.. وأطبقَ الحكيمُ كتابَه وأعاده إلى مكانه تناولَ عصاه وخرج.

في الصباح.. قالَ الحكيمُ صدفةً أنه جاءَ بعد منتصفِ الليلِ إلى الكهفِ ووجدني أتكلمُ خلالَ نومي، وأهذي بحياتي السالفة، وأبوحُ

بأسرارٍ قال أنه تأكّد أنني نائمٌ، وخرج حتى لا يسمعُ ما ألقيه من جوفي من أمورٍ تخصّني.

حين استيقظتُ شعرتُ أني ككتلةٍ من الفراغِ وأني فقدتُ الكثيرَ من الوزنِ، ليس من جسدي وإنما من نفسي، صرتُ خفيفًا كأن لم يعلق شيءٌ بنفسي طوال حياتي. أشعر بصحوةٍ تكادُ ترى باطنَ الحجرِ وكأن نوم الليلةِ الماضية مسحَ الآثار داخلي وأصبحت نفسي كأرضٍ لم تطأها قدمٌ من قبلِ. لكني تفقّدتُ أشياءًا لا أدري ما هي، شعرتُ أن تجاويفًا داخلي تمرُ منها الريحُ الباردة، كأني نسيتُ بعضَ أعضاءِ جسدي، في النومِ نسيتها خارج جسدي.

صرتُ أشعرُ بفراغها.. خذ هذا الوشاح تلحّف به حتى نعطيكَ ملابسًا تناسبك.. أطفأ الحكيمُ صدفةً فانوسَ الكهفِ، وهبطنا من الجبلِ إلى الجهة الآخرى من القريةِ حيثُ منزل الخياط، ليعد لي ثيابًا تناسبني.

سألني ونحن على الطريق هل تعرفتُ على أهلِ القرية؟. أجبته أنّ الشيخَ كذِب عرّفني على أهلِ القريةِ، ووصفتُ له اللقاء بشيءٍ من السرور.

لقد أوقعك في الفخِ.. قال الحكيم صدفةً: ماذا تعني؟.

أعني أن منْ تعرّفوا عليكَ وأعطوك جزءًا من أعضائهم، سيسمعون ويرون مشاعرك ويعرفوا عنكَ ما لا تسمح به، وكانوا يسمعون ويرون هذيانك داخلَ الكهفِ بحياتِك السالفة، كلُ ما قلتُه في غيبوبةِ النومِ، صاروا على علمٍ به.. ذلك الماكرُ الشيخُ كذِب، لقد أعطاني أذنه عندما تعرفت عليه، وصار يسمعُ

حديثَ نفسي، لهذا أعطاني السخط المتطور نبضاتِ قلبه ليصغي لمشاعري وأكون مكشوفًا أمامه.. كيف لم أنتبه لذلك. لكنك إنسانٌ نقي، فلو كانت ثمة تشوهات في نفسك لظهرت على جسدك.

والمؤكد أنك لن تكونَ إنسانًا صلدًا كما كنتَ عليه. الآن أنت حر الجوهر.

وصلنا لمنزل الخياط.. طرق الحكيمُ بعصاه البابَ..أيها الخياط.. مرحبًا بالحكيم.. قالها خلفَ البابِ، وقد عرف صوته، خرج بوجهٍ متهللٍ، رأيتُ الفرحَ داخله كنافورةٍ صغيرةٍ تهتفُ. كانت هذه المرة الأولى التي أرى فيها داخل إنسان كما أرى شكله، إذن كانت الطقوس لهذا حتى يكون الجوهرُ ناصعًا، تُرى هل كل أهل القريةِ واضحي الباطنِ هكذا؟ ، ما أجمل هذا، ما أجمل أن ترى النفوسُ بعضها بلا غشاوة.. يبدو أنه يحبُ الحكيم صدفة ويجلّه ليفرح به هذا الفرح، كان رجلًا طيب السيماءِ وجهه صافٍ من التشوهات، إلا أن رقبته كقصبةٍ وجلد يديه يابس وعيناه واسعتان، حتى تظنَ أنه يرى أكثر من الآخرين.. في وجهه ندبة سوداء كوشالةِ القهوةِ في الفنجان.. هذا الرجل الغريب دخل طقوسنا ويحتاجُ أن تفصلَ له ثيابَه قال الحكيم: نقل الخياطُ نظره إليّ واتسعت عيناه، يسرُّني هذا قال لي مبتشرًا تفضلا بالدخولِ، وأجلسنا على أوتادٍ لأشجارٍ معمرةٍ في الحوشِ المفتوحِ، وغاب داخلَ البيتِ.. هذا الخياط له القدرة على رؤية ما يغلب عليك من صفات، ويفصّل لك ثيابًا وفقها، وقد فصّل ثيابَ جميع أهلِ القريةِ بما يرضيهم.

عاد الخياطُ ومعه قماش أبيض، ومقص وإبر وبكرات خيوط، قال لي قف في الشمس واحسر وشاحك عن صدرك حتى أرى ما يناسبك، وظلّ ينظرُ إلي بشيءٍ من الاستغراب وأنا أتساءلُ تُرى ما يوحي به منظري؟.

أطرق قليلًا، وبدت عليه الحيرة وقال: ربما يكون....ونهض داخلًا البيتِ مرةً أخرى، وعاد بعد وقتٍ بقماشٍ موشّى بخيوطٍ ذهبيةٍ، كضوء الثقوبِ وشفاف كأرواحِ الملائكةِ، وليّن كأوراقِ الوردِ.. سأله الحكيم: أليس هذا القماش؟.. نعم، أجابه الخياط قبل إتمام جملته.. أتعني ربما يكون، قال الحكيمُ موحيًا للخياطِ، وأجابه نعم ربما.. ولم أفهم شيئًا مما تهامسا به جهرًا.

شرعَ الخياطُ بخياطة الثوب بسرعةٍ فائقةٍ، كنتُ أنظرُ لقماشِ الثوبِ وأقارنه بثيابِ الخياطِ نفسه وثيابِ الحكيمِ، لعل الخياط قد أخطأ في معرفة صفاتي فهذا القماش فاخر ونادر الشكل واللين.

اختر لك مكانًا تقيمُ فيه في القرية، واحذر أنْ تبتعد للغابة فتُصابُ بالوسواسِ.

- لكني سأختار شيئًا من العزلةِ أيها الحكيم على شاكلة منزلك فأنا أحب الفضاء الرحب الذي يحرر الصفاتِ.. كما تشاء ردَّ الحكيمُ.

أتمّ الخياطُ الثوبَ ونشره أمام ناظريه بكثيرٍ من الرضا، الآن يمكنك ارتداؤه.

استقر الثوبُ على جسدي كمَن يبحثُ عن ضالته، وتبادل الخياطُ والحكيمُ النظراتِ، شعرتُ أنّ أضواءَ ذلك النهارِ المترددة بين الغيومِ

تتهافتُ لرؤيةِ نفسها على الثوبِ.. اذهب إلى القريةِ الآن، قال الحكيم: خرجنا ونظراتُ الخياطُ تتبعني كما يتّبع الخيطُ إبرته. هبطتُ للقرية وارتقى الحكيمُ لمنزله الجبلي.

كانت الغيومُ المنخفضة كوفودٍ تهنئني باستعادة نفسي من كدرِ الماضي.

ألمس حريرها الفاتر، كمن يطمئن على كبريائه في نزاع، لعل غياب الغيومِ التي حجبت نفسي عن الرؤية، جاء بهذه الغيوم التي تشبه قطن الجرّاحِ تمرُ تحت يدي ساحبةً نقاءها بلمسةٍ تذكرك أنك جئت من السماءِ يومًا، وتبعتك ما دمتُ تحملُ طهرها. تُرى هل تقترب منّا السماءُ على قدرِ محبتنا لها؟ نحنُ حقائبُ هذه السماء المعبأة بسماتها ما دمنا في رحلةِ الجوهرِ.

رأيتُ أطفال القريةِ يحتفون بالغيومِ، ويلعبون معها، يركبوها كالبساطِ والريح لا تتعجلهم، يجرون خلفها ويرمون بأنفسِهم على ظهورِها، ويمسكون بثيابها أو يمسكوها بأيديهم، ويجرون بظلالِها أو يبسطون أيديهم لعناقِها، وهي تمرُ خلالهم مرور الأمومة الحانية، وهم ينشدون.. يومًا ما، يومًا ما، نصبح زهرًا يومًا ما، نصبح بدرًا يومًا ما، وستنبتُ أعضاءٌ أخرى، حتى نبلغَ ما نتمنى، وسيكبرُ في الليلِ هلال، حتى يصبحَ يومًا بدرًا، يومًا ما يومًا ما.. وهم يشكلون دائرة ويمسكون بأيدي بعضهم ويرفعونها وهم ينشدون، ثم يركضون ويحضنون الغيومَ، والعصافيرُ تشاركهم احتفاءهم وكأنهم يسمعون السياب ينشد لهم : عصافير أم صبية تمرحُ عليها سنىً من غدٍ يلمحُ وأقدامها العارية محارٌ يصلصل في ساقية

لأذيالهم رفة الشمألِ سرتُ عبَر حقلٍ من السنبلِ بقيتُ أراقبُ القريةَ حتى استقر رأيي على مكانٍ أقيمُ فيه يقابل القرية بآخر الغابةِ. قررتُ أن أسكن الطبيعة بتدخل بسيط.. نمت ليلتي الأولى بمسكني البدائي كجزء من الغابة كما تنام جرارُ الذهبِ المدفون لزمنٍ آخر. تومئ لي الأيام القادمة بلمعانٍ يخطفُ اهتمامي، كم هو جميلٌ أن تملكُ البداية معك لقد عُدت إلى براءتي بعد أرذلِ الأخطاءِ. هذه المرة لن أسمح لها أن تتلوث فتشيخ ويثقلني عمرُها ويرسب كدرها حتى يدفن مجراها. أشعر أني الآن أعرفُ الأشياءَ التي قضيت عمري وأنا أراها لأولِ مرةٍ. ما أجمل أن تتوبَ من قيادك وتتركه لعجائبِ فطرتِك. وما أعظمُ أن تكونَ حياتك بحثًا متقدمًا في الإنسانِ.. استيقظتُ على صوتِ امرأة تشكو..الأمر ليس بيدي إنه حلمٌ عابرٌ وقعت به أمنياتي.. لقد كان قصيرًا أنا أجتهد لأنبتَ نقصي ولا أتكل عليه.

إني أعلن براءتي من ذلك الحلمِ. وسأسعى أن يكون حلمي نهاريًا تحت ضوءِ الحقيقةِ وليس ليليًا خلف غشاوةِ الظلام.. ما الذي تقوله هذه المرأة ؟ ما كنت تقولين يا امرأة ولمن تتكلمين.. ألا تعلم أيها الغريب أننا نتخلصُ من أحلامنا بقصِها على شجرةِ اليأسِ .. أهذه تسمى شجرة اليأس لديكم؟. ولماذا تتخلصون من أحلامكم؟.. حتى لا نركنُ إليها ونتكلُ على الأحلامِ وتبردُ همتنا في السعي لبلوغِ المظهرِ.. تركتني بعد قولها ذاهلًا ومضت في سبيلها.

كنت قد بنيت كوخًا بسيطًا على هذه الشجرة ذي الساقِ الغليظةِ والفروع الثلاث على مقربةٍ من النهرِ، متطرفًا بيوت القريةِ وهي تنتشرُ أمامي كأن كوخي مقدمة لكتابِها.

إذن أنا أسكن شجرةَ اليأسِ، نزلتُ من الكوخ على الأرضِ المعشبةِ واستندتُ إلى شجرة اليأس كما يسميها أهل القرية. بعد قليل جاءني طفلٌ وقف أمامي ووضع وجهه بوجهي وقال: هل ترى لقد نبت السواد في عيني حين استفقت هذا الصباح هل تراه؟.. ونظرتُ في عينيه كان حدقه يزين بياض عينيه حقًا كما أخبرته أمه.. وكيف نبت السوادُ في عينيك.. ساعدتُ عجوزَ الصفحِ في جمعِ الأعشابِ، فنظرُها ضعيفٌ، وهي لا ترى لأبعدِ من رغبتها. ويرهقُ عينيها النظرُ إلى البعيد. سأقشر لها الثمار حتى تنبتَ باقي أصابعي. وانطلق يتقافز يضم يديه ويفردها كطيران الزرزور. يالجمالِ هذه القرية وغرابتها.

أثار اهتمامي طفلٌ آخر يقفُ على حافةِ النهرِ وينظر في الماءِ ويقترب من الحافة. التفت إليّ وعدا نحوي، أيها الغريب أردت أن أرى نفسي في مرآة الماء لكن أصدافَ الشمسِ لا تقبل رؤيتي، وأنا فقير لا أستطيع الذهاب إلى نفسي وليس لدي مشاعر كالآخرين، أريد أن أفعل الفرح، أنا بدائي أكثر من اللازم، يقولُ الأطفال الذين لديهم مشاعر أنّ الورودَ لها عطرٌ جميلٌ، وأنا أحبها ولا أشعر بهذا الجمال، أخذتُ مرةً مشاعرَ أخي وشممتُ بها عطرَ الوردِ كان جميلًا وأحببته كثيرًا، لكن أخي أخذ مشاعره ولم أعد أستطيع أن أشم عطرها، حتى حين قطعتُ الورودَ ووضعتها في جيوبي لا أشم عطرها. هل بإمكانك أن تراني كاملًا حتى يبقى العطر معي وينفذ في مشاعري.. من قال إنك بلا مشاعر، أمسكت يده وضغطت عليها بقوة هل تؤلمك؟.. نعم آلمتني. حسنًا.. اركض إلى تلكَ الشجرةِ بسرعة

وعُد إليّ وركض الطفلُ وعاد يلهث هل تشعر بالتعب؟.. إذن أنت لديك مشاعر تريد أن تشمَ عطرَ الورودِ.. نعم.. وأخرج من جيوبه أوراق الوردِ، إذن عليك أن تحبها أكثر وستسمح لك بشم عطرها. وأعطيته حاستي وشيئًا من مشاعري تعال معي، وسرنا قربَ الغابةِ حيثُ تنبت الورود الملونة، إن كنتَ تحب الورود فلا تقطفها، عليك أن تشمها فقط والآن اشتم هذه الورود، هل تشعر بها ؟ نعم إنه العطر الذي شممته بمشاعر أخي، إنه جميل .. حسنًا احتفظ بهذه الحاسة.

وأنا سأكتفي بتذكّر عطرها. وقطفت له وردة أخذ يشمها وكأنه بشهقة الولادة قبّلني ومضى ماشيًا ورأسه في الوردة.. لعل ما يصيب هؤلاء الأطفال من نقصٍ هو ما يرثوه من نفوسِ آبائهم. أحيانًا يكونُ الآباء خطرًا على أبنائهم وربما يعاقبُ الله الآباء بأن يخلق أبناءهم بحسب عوق نفوسهم، لكنهم لا يشعرون بالعقوبة لأنها تشبههم، لعل أحد الأبناء يأتي كذنبٍ حمله الآباء وتكراره بصورة جديدة هي العقوبة، فلا شيء أكثر تعذيبًا من أن يولد لك طفلٌ معاق، تبقى تتعذب في خلوة مشاعرك وإن ادعيت الرضا، فعندما لا تقول شيئًا فأنت تكذب، حتى الصمت يكذب أحيانًا.

ذهبت أبحث بين أهل القريةِ عن فانوس ينير ظلمة كوخي ورأيتُ عجوزًا خلف القرية تنحني بصعوبة تلقط شيئًا من الأرض بين مروجِ الأعشابِ.

توجّهتُ إليها مرحبًا.. أيها العجوز الطيبة.. مرحبًا بك يا بني، كان صوتها كأجنحةِ الحمامِ، ووجهها منيرٌ كالماسِ بدت التجاعيدُ عليه

كعيدانِ الثقاب ولها عينان هادئتان تكفيان بنظرة منها لإنامة طفل يبكي.، نحيلة الجسدِ كرقاقة الخبزِ، ويديها بيضاوان كقممِ الثلج.. أنت الغريبُ الذي جئت قريتنا؟ نعم أنا هو، وأنا عجوز الصفحِ، وأعطتني من سماحة قلبها وأعطيتها من برّ نفسي.. ماذا تفعلين بهذه الأعشاب.. أجمعها لمداواةِ أهل القرية، هذه العشبة تسمى طِيب النفس، أداوي بها ابنة الراعي المريضة.. إذن أنت طبيبة القرية.

أنا أداوي الناس بمواساتهم والاهتمام بهم، وأستخدم هذه الأعشاب لأقنعهم أنها من تفعل ذلك. إذن هذه الأعشاب بلا فائدة.. ليس تمامًا .. فقد ورثت هذا الطب عن أبي، وكان يداوي أهلَ القريةِ، لكنني أداوي بحسنِ النيةِ.

- لماذا يسمونك عجوزَ الصفحِ؟.

لأن ذاكرتي ليومٍ واحدٍ فحين يحلُ الظلامُ وأغفو، أنسى ما حدث بالأمسِ.

فأنا أعيشُ كل يومٍ كأولِ أيام حياتي، اليوم هو أفضلُ أيامي لا أحملُ شيئًا من الأمس ولا أعرف كيف يحملُ الناسُ الأحداثَ والضغائن كأولِ أعمالهم في اليومِ الجديدِ. أنا هكذا أولد كل يومٍ مع الصباح بذاتِ النفسِ وذاتِ النوايا.

ويمكن أن أطبب اليومَ من حاولَ قتلي بالأمسِ.. هل لديكِ أولاد؟.. كل أولاد القرية أولادي وأنا أحبهم كأمهاتهم، ولا ينبغي لي أن أنجب لأن

الأمهات يجمعن مودةَ الأيامِ لأبناءهم وتكبر معهم. أما أنا فأنسى ويأخذ سواد الليل أوجاعي ويغسلها الصباحُ، كنتُ على هذا حتى أصبحتُ عجوزًا، أنا أنجب الأمومة بلا مقابل والعناية والاهتمام بلا نسب.. هل أجدُ عندك فانوس يضيء كوخي.. أنا يا بني لا أحتاج فانوسًا، أنا أضيء الأشياء بيدي والضوء في جوانحي يزيل وحشة الليل، ولكن سل أهل القريةِ لعلك تجد عندهم ضوءًا.

قبلت يدها.. شكرًا أيها العجوز المباركة، وعدتُ للقرية متفكرًا بأمرها، كيف تجمعُ هذه القريةُ بين هذه العجوز وبين أشخاص كالسخطِ المتطورِ والشيخِ كذِب، وما أنْ ذكرته حتى رأيته أمامي.. مرحبًا أيها الغريب.. مرحبًا أيها الشيخ.

ورأيتُ الكذبَ في عينيه كالفأرِ، وفي نفسه كأنقباضِ الأفعى..أراكَ تكلم تلك العجوزَ الخرِفة.. نعم كنتُ أتعلمُ من خَرفها، لأنَّ الخَرف كما أعلمُ يأتي من كثرة تراكُم الأشياء الغير مُجدية، والتي تتصارع للبقاء حتى تقضي على صاحبها، وتنطلقُ على لسانٍ يقذفُ شررَها خبط عشواء بِلا منطِق، وما أجمله جمله أمن خرفٍ يطببُ كل يومٍ ولا تظلمُ عليه النفس .

إنها لا تفقه من أمسها شيئًا، قالَ الشيخُ كذِب.

ومَنْ قالَ أنّ الناسَ يفقهون من أمسهم شيئًا، لو فقهنا من الأيام عبرها لعُدنا للجنانِ من حيثُ أتينا، وتركنا الأرضَ للشياطينِ وأذيالهم، حيثُ يستحقون جحيمَ العيشِ. إنها لا تأخذُ من الأمسِ إلا صورته الجديدة، أمّا نحنُ فسفينةُ الماضي تزدادُ حملًا وغطسًا كلَ يومٍ، ليتنا نرمي بعتيقِ

الأنفسِ الأسنة والقلوبِ الملوثة، أو حتى الصفاتِ المهترئة، ولو وقفنا أمام الضوءِ لما خرجَ منّا إلّا السوادُ كليلِ الكوخِ الذي أسكنه.

هل تبحث عن ضوءٍ لكوخِك؟.. إن كان لديكَ فأسعفني به.. تفكرَ الشيخُ كذِب قليلًا ثم قال: لديّ ما هو أفضلُ من الفانوس.. وما هو الأفضل؟.. تعالَ معي سأرشدُكَ إليه، وهبطنا سفحَ القريةِ لوادٍ بعيدٍ، تجاوزنا حدودَها، كان الشيخُ كذِب يسترقُ النظرَ لثوبي، ويغمغمُ بنفسه.. كيف أعطاكَ هذا الخياطُ الأبله هذا الثوب؟.. أترى أني لا أستحقه؟..إنه ثوبٌ لا يليقُ بعامةِ الناسِ..وأمسكتني نوبة ألم من مرورِ الريحِ في تجويفِ الفقدانِ داخلي.. الفارقُ كبيرٌ بين أنْ يمنحكَ الثوبُ قدرًا، وبين أنْ تمنحه أيها الكذِب.. زوى عينيه ونزلنا منحدرَ الوادي، وادٍ طولي تملأه أشجارٌ غريبةُ الشكلِ، لم ارَ مثلها من قبلِ.. يحدّها جانبٌ صخري بصخورٍ ملونةٍ حادة.. غريبةٌ أشجارُ هذه الغابة قلتُ. .سيقانُها شديدة الالتواءِ وأغصانُها تلتفُ على بعضِها، وأوراقُها على شكلِ وجوهٍ آدمية بمختلفِ التعابير والمعاني، محفورٌ على سيقانِها عباراتٍ عميقةٍ.

في الواقع هذه ليست غابةٌ كما تظنُ، إنها مقبرةٌ يُؤتى بالأمواتِ ويُدفنون هنا.

هذا الوادي يُسمى وادي التجاربِ وكلُ أشجاره تختلفُ عن بعضِها، يُوارَى الناسُ هنا، فتنبتُ قبورُهم أشجارًا تلخصُ سيّر حياتهم، وتثمرُ عبرها كلَ ما فعله الناسُ بحياتِهم، تتمثله هذه الأشجارُ وثمارها هي العِبَر، لهذا لا تجدُ فيها تشابهًا، وترى فيها هذه الغرابة، نعم إنها غابةُ العِبَر.

انظر لهذه الشجرةِ المضيئة هي ما نقصده، هذه لشخصٍ كان يظلمُ الناسَ وكان كثيرَ الأخطاءِ والذنوبِ، فنبتت شجرةُ سعيه ثمارًا لينةً مضيئةً، ثم تتصلبُ لاحقًا وتصبحُ أحجارًا مضيئة، حتى تُرى خلالَ الليلِ وتُنبه الناسَ ليعتبروا بها، وقطعَ منها الشيخُ حجرًا على قدرِ إبهامِ اليدِ، هذا الحجرُ هو ما تحتاجه لإضاءةِ كوخك وهو يزدادُ إضاءة كلّما زادَ الظلامُ.. ولكن كيف لثمرةٍ ذنب أن تنيرَ وتضيء ظلمةَ كوخي..ألّا تُضيء العبرُ حياتنا لنرى أمامنا ولا نقعُ في الأخطاء؟ نعم هذا صحيح.. وأحيانًا تأتي العجوزُ الخرِفة لتأخذ بعضَ الثمار كأدويةٍ لعلاج أهل القرية. خذ هذه الأحجار وضعها في كوخِك وسترى.. نعم سترى ورمقني بنظرةٍ كانفجار فقاعة عينه الأخرى. وشعرتُ أنه يعدني بشيء لا أدري إنْ كان خيرًا أم شرًا، لكنه ساعدني على ايةِ حال، ويجب أن أكون ممتنًا له على صنيعه.

انظر أيها الغريب، أريدُ أن أحذرك أن الحكيمَ صدفة شخصٌ متكبّر يرانا رعاعًا ويأنف العيشَ بيننا، ويدّعي أن له يدًا علينا، إنه لا يترك فرصة إلا وحقّرنا وانتقص منّا، وكأنه وليُ أمرَ القريةِ، فإياكَ أنْ تصدق ما يقوله وإن بدا مثاليًا لديكَ، وما دمتُ قد صرتُ منّا فيجب أن يكونَ موقفك منه تبعًا لموقفنا منه، أهلُ هذه القريةِ رأيٌ واحدٌ وموقفٌ واحدٌ، ومَن يخرج عنه سننبذه كما نبذنا الحكيمَ صدفة.. دخلنا ساحة القرية، وصادفنا شابٌ يحمل على رأسه زنبيلًا، ويصيحُ: ثمار الغابة، به من التشوهاتِ كما لم أرَ بأحدٍ من القريةِ يبدو ندوب على منتصفِ جسده وكأنّه شُطر بسيفٍ ثم أُعيد لصقه، قامته قصيرة، ورأسه كلافتة القبرِ، ووجهه يتراوح بين اللّئمِ

والموادعة، يعلو حاجبه الآخر. نظرَ للشيخِ كذِب وغمزه وهو يتكلمُ بيده اليسرى، مَن هذا أيها الشيخ؟ ردَّ عليه الشيخُ بتثاقُلٍ: غريبٌ جاءَ القرية، ابتسم لي بنصفِ وجهه ألا تشتري الثّمار أيها الغريب؟ بهذا الخاتمِ الذي بيدك، وأنزل زنبيلَه .. ما بالُ هذه الثمارُ كلها مشوّهة سألته.. ألا ترى أن أشجارنا منقوصة وثمارُها مشوّهةٌ مثلنا.

ولكن هذا لا ينطبقُ عليكَ أنت، كيف سلمتَ من التشوّه والعيوبِ؟ يبدو أنك من يصنعُ عيوبَ الآخرين حتى تتجرد منها، لقد امتلأت القريةُ بالغرباءِ فكيف لا تزدادُ تشوّهًا!. أليس كذلك أيها...الكذِب ؟! وحملَ زنبيله مبتعدًا بضحكةِ المهرجِ.. من يكون هذا أيها الكذِب؟.. إنه المتقلّبُ لا تدري متى يكون معك حتى ينقلب ضدك!.. إن عربة سلوكه تُجر بحصانين، أسود وأبيض.

ما هذا الصُراخ؟!.. التفتَ الشيخُ كذِب، ورأينا العبدَ الأكبرَ يضربُ ابنَ الكادحة الأكبر، ويصيح: أنت السبب.. لقد تسببت بتشوهي وإنبات إصبعين زائدين في كفي، لقد كذبتَ بالأمسِ وتسببتَ بتشوهي.. أسرعنا نحوهما، ووقفتُ دونه لماذا تضربه.. دعني أشفي غليلي منه.. وما شأنه إن أصابك التشوّه .. ألا تعلم أيها الغريب.. تدخّل الشيخُ كذِب.. إن مَن يخطيء بهذه القرية يتسبب بتشوّه أهلها.

هكذا إذن.. وبماذا كذب؟.. لم أكذب أيها الغريب، رد ابنُ الكادحة، لقد جاء المتقلبُ بالأمسِ يبيعُ الثمار، وسألني أن أشتري منه، لكني لا أملكُ شيئًا أشتري به فتركني ومضى.. كذبت.. صاح العبدُ الأكبرُ.. لقد

رأيتُ الثمارَ وكانت قليلةَ التشوّه، وربما كان قد تسلقَ الأشجارَ وقطفها وأنت كنت معه وقد أخبرني أنك ذهبت معه لتشتريها منه.. ألا تدرك أنها أمانتي.. قال العبد كمن يندب حظه.. ومسؤوليتي.. لقد تعدّيت على واجباتي وجعلتني أبدو مقصرًا، وكذبتَ وتسببتَ في تشوهي، كيف سأخدمُ سيدي الأمير إن جاء وقد تشوّهت أصابعي.

حسنًا هذا يكفي، انصرف أنت يا ابنَ الكادحة وأنتَ أيّها العبد الأكبر.. كثيرًا ما يقع الطيبون في فخاخِ المدبرين. ألا تخشى إن كان بريئًا وصادقًا أن تخطيء في حقه، فتصيبُ أهلَ القريةِ بالتشوّه، أتُعالج الخطأَ بالخطأ، فأطرقَ العبدُ وردّ، ولكنه لن يجدَ من يحاسبه، وهو غير معرّض للعقوبةِ مثلي أنا مَن عليه أن يحافظ على أمانته، حسنًا أمضِ الآن لكن اعلم إن أُصبنا بالتشوّه فأنت المسؤول.. تركنا العبدُ ومضى وهو يحدّث نفسَه ويولول.. ألم أخبرك أن أهلَ القريةِ رأيٌ واحدٌ وموقفٌ واحدٌ، وقد رأيتَ بعينيك كيف تشوّه أحدهم بذنبِ الآخر، وربما يُصابُ آخرون غيره ولا يعلمون السبب .. أجل أيها الشيخ لا يعلمون السبب.. آه لو يعلمُ أهلُ القريةِ كم لكَ من نصيبٍ في هذه التشوّهات أيها الكذِب قلتُ في نفسي.. هذه المرة لم يسمعْ الشيخُ كذِب حديثَ نفسي، ولعله سمعَ وأخفى ردّةَ فعله.. فهو لا يريدُ أنْ يكشفَ لي عن سماعه حتى لا أُشغل بالنظرِ داخله ورؤية كذِبه..

قصدتُ كوخي وقد تملّكني شعورٌ بالخمولِ والتعبِ، أخرجتُ الأحجارَ المضيئة ووضعتُها في زوايا المكانِ، وما إن حلّ الليلُ إلّا وأضاءت كما لم أتوقع، تصاعدت الآمُ الفقدانِ داخلي تساءلتُ تُرى ما

الشيءُ الذي فقدته ليتركَ ألمًا لديّ؟!. أخذني خدرُ النومِ من الغثيانِ، وانتابني شعورٌ أن جسدي يريدُ أن يصرخّ ويتشوّه بلا حدودِ ولكنّ مشاعري لا تستجيبُ.

أيها الغريب.. أيها الغريب.. أفقتُ على مَن يجرُ ذراعي، فتحتُ عيني على الألم كمن يسقط وقاره بحوارٍ جاهلٍ.. ألم بطعمِ الإعياءِ، وجاءني ضجيجُ الأصوات من الخارجِ.. ماذا يا طفلَ الوردِ.. هيا انضم إلينا.. ما هذه الأصوات؟ إنهم أهلُ القريةِ يقيمون الطقوسَ، إنه يومُ التضرعِ. هيا انضم إلينا، حاولتُ النهوضَ لكنّ جسدي نسي قوته، استلقيتُ مرةً أخرى أنا مريضٌ، لا أستطيعُ الوقوفَ.. خرجَ طفلُ الوردِ مسرعًا وعاد ومعه العبدُ الأكبرُ، ما بك أيها الغريب؟!.. أحقًا أنتَ مريض، يا دلو الكلامِ.. أيها الدلو لنحمله لعجوزِ الصفحِ، أخذوني محمولًا إلى منزلِ العجوزِ وألقياني هناك وخرجا لطقوسهما.

ذهبتُ بالأمسِ مع الشيخِ كذِب إلى وادي التجاربِ، وعدتُ بجسدٍ خائرِ القوى، نظرتُ إلي العجوزِ وحدثت نفسها لقد أعمى اللهُ الناسَ بأمثالِهم لا عليكَ سأعطيك ما يخفف عنكَ، وأخذت تدقُ الأعشابَ وتخلطها وأعدت لي شرابًا، خذ هذا الدواء سيُعيد نشاطَك وجسدك إليك.. تناولتُ الدواءَ واسترحتُ لدقائق، فركتُ جبيني كمَن يمسح شاشةَ دماغه، فعادَ الوضوحُ لعينيّ تفاجأتُ بدخولِ السخطِ المتطور، كان مجرد شكله خصومةً لي، كما تتخاصمُ صفاتُ الآباءِ في الأبناءِ.. ما به الغريبُ أيها العجوز هل هو مريض؟.

-هل لديك دواء لنفرةِ القلوبِ أيها العجوز؟.

ليس هناك أيها الغريب ما يؤلّف القلوبَ حين يأخذُ كلُ إنسانٍ مكان إنسانٍ آخر، ويأخذُ ما لا يستحقه بغيرِ وجه حق، لقد أفسدَ الأدعياءُ هذا العالمَ وتسلّقوا رقبةَ المكانةِ، فأصبحت الجثثُ تحكمُ الأرواحَ.

-ألا يُفيدكَ دواءُ النفرةِ أيها السخط؟ يفيدني أن لا أرى وجهك، قال بحدة.. وأنتَ أيها العجوز يفيدني دواءُ الحمى أكثر من الوخزِ بالإبرِ.. سنرى أيّنا الدعيّ أيها الغريب.. ازدراني بنظرةٍ تكفي لتجفيفِ ثوبٍ مبللٍ، وشعرتُ أنه احتفظ بهذا الموقفَ في أرشيفِ الحقدِ.

لا بدَّ أنَّ شيئًا غريبًا دخل جسدك أيها السخط وأصابك بالحمى، قالت العجوزُ: ربما.. وأومأ نحوي برفعِ بوزه.. أخذ دواءَه وخرج.. هل ستذهبَ معهم للطقوسِ أم أنَّ ثوبَك سيغنيك عن هذا، غمزت العجوز.. سأذهبُ إلى كوخي، شكرًا لعجوزِ الصفحِ، عافاكَ اللهُ يا بني..

تمالكتُ جسدي وسرتُ مثقلًا حتى جلستُ عند الدرجةِ الأرضيةِ لسُلّم الكوخِ، أنظر لطقوسِ أهلِ القريةِ.

كانوا مجتمعين حول النهرِ الذي يأتي كساقيةٍ من طرفِ الشلالِ ويتسعُ على مقربةٍ من الكوخِ ثم يهبطُ كساقيةٍ إلى نهرِ الشلالِ المستغرقِ في الغابةِ.

كان الناسُ يجمعون الأوراقَ والأغصانَ ويكتبون على كلِ ورقةٍ أمنية، ويلقوها مع التيارِ البطيء، ويدعون اللهَ أن يكونوا متكاملين وأن يخرجَ جوهرُهم لمظهرِهم، وأن لا ينبتُ عضوٌ خارجهم بتشوّهِ عضوٍ داخلهم.

حتى آخر ورقةٍ من الأغصانِ، كان النهرُ قد امتلأ بالأوراقِ في مسيرةٍ تشبه سرب طيور مهاجر. تتداخلُ أصواتُ دعواتهم وتتزاحمُ في شغفٍ تظنُ أنه سيصلحُ عيوبَ كل من سبقهم من أهلِ الأرضِ، كلٌ يدعو لنفسه، تتدافعُ الأدعيةُ كما تتدافعُ أبنيةُ المدنِ. ثم ألقوا بالأغصانِ العاريةِ في النهرِ، كانت الساقيةُ المنحدرةُ تأخذ أمنياتهم إلى الغابةِ..مرةً أخرى جاءني طفلُ الوردِ وأخرج أوراقًا من جيوبه، اكتب لي أيها الغريب أمنياتي، تفوحُ منه رائحةُ العطرِ.. أرى أنك صرتُ تعبقُ برائحةِ الوردِ، نعم أنا أضعها تحت وسادتي وأحيانًا آكلُ بعضَها كي تتعطرَ مشاعري.. حسنًا يا زجاجةَ العطرِ الصغيرةِ ماذا تتمنى.. أعطاني وردةً بيضاءَ وعودًا مدببًا.. أتمنى.. أن تذهب تشوهاتُ أهل القريةِ خاصةً الأطفال، والورقة الأخرى، أتمنى أن يعودَ الحكيمُ صدفة ليعيش بيننا. والأخرى أتمنى أن تذبلَ ثمارُ الأشجارِ بسرعة، حتى تسقطَ بكثرة لتكفي أهل القرية.

وهذه الورقة أتمنى أن لا يدخل الغرباءُ لقريتنا.

– وهل أنا من هؤلاءِ.. لا أنت أتمنى أن تبقى بيننا.. لكن أنت لم تتمنَ شيئًا لنفسك، لن أتمنى أن تنبتَ لي الأعضاءُ، سأعملُ على إنباتها، وكيف ذلك؟ بعملِ الخيرِ.. وأنت أيها الغريب ألا تنضمُ إلينا وتتمنى، أم أنك تصنعُ التشوهات ولا تُصاب بها.. لا أدري يا طفلَ الوردِ، البارحةُ أحسستُ أنَّ جسدي يريدُ أنْ يتشوّه كالآخرين لكنه لم يفعل.. ربما لأن نقاءَ القلبِ يحولُ دون ذلك.

وربما كان ثوبُك يمنعُ ذلك.. حقًا.. لقد نبهتني لهذا.. أنت طفلٌ مميزٌ، خذ أمانيك.

أخذها وألقاها في النهرِ وهو يراقبها كقلوبٍ حرى تتبعُ جنازة.

خفَّ الضجيجُ مع إقبالِ الحكيمِ صدفة بعصاه، اجتمع له أهلُ القريةِ وجاءني طفلُ الوردِ، انضم إلينا أيها الغريب أرجوك، وجرّني من يدي ووقفت معهم فأقترب منّي الشيخُ كذِب ووقف بجانبي. يا أهلَ القريةِ تعلمون أن طقوسَكم وأمنياتكم لن تنفعَ ما لم يكن معها عملٌ صالحٌ. ما لم تكونوا متآخين يوجع أحدكم بوجعِ أخيه، ولعلكم تغفلون أن الله وضعَ عبرَكم أمام أعينكم فما أن يحدثَ داخلكم من خرابٍ إلا وظهرَ عليكم، ذلك أدعى أن تعتبروا وقد منَّ اللهُ عليكم بأنْ أراكم عُقبى ذنوبِكم كما لم يتأتِ لغيركم، فأنتم أولى أن تنشغلوا بإصلاحِ أنفسِكم أكثر مما تنشغلوا بإلقاءِ اللومِ على بعضِكم، فيما تسبب بتشوهكم تبعًا لسوءِ عملِكم.. وما زلتُ ناصحًا لكم، عارفًا بجريرةِ أعمالِكم، حريصًا على أن لا تكونوا نقمةً على بعضِكم وصارَ الكثيرُ منكم لا يتقبلُ قولي ولا نُصحي، ربما تحسبون أني ببعدِ السكنِ عنكم لا أطلعُ على ما يكونُ منكم، بل إني أرى كما لا ترون وأعرف سعيَكم للتكاملِ إن كان صالحًا أم غير ذلك.

إن بلوغَ هدفِكم في التكاملِ لا يبررُلكم أساليبَ معوجةً، ونوايا منحرفة، تزيدون بها من تشوّهكم وتهدرون جهدكم وتثلمون أيمانكم.. لن يكونَ لكم ما سألتم إلا أنْ تكونوا يدًا واحدةً ونيةً صادقةً وعملًا صالحًا، وإنما أضعُ أمامكم عبرَكم وأخطاءكم لتُصلحوا نواياكم ويستقيم سعيكم.

واعلموا أنكم إن تكاملتم وحسُنت خلقتكم، لن يكونَ هذا نهايةَ الجهدِ فالحفاظُ على التكاملِ أصعب من بلوغه، وإنّ أقسى ما يحدث لكم من

تشويه ما كان على أطفالِكم.. إنْ لم تصلحوا أنفسكم لن تصلحَ خلقة أطفالِكم، فارحموا أطفالكم برحمةِ أنفسكم.. أنت أيها الكذب، ما زلتُ تحقرُ قدرَ الآخرين إعلاءً لشأنك وتظن بك الرفعة والسمو عليهم.

ألم أقل لكَ أيها الغريب، ها قد شرع بأتهامنا وانتقاصنا وحط قدرنا، قال الكذبُ هامسًا.. ما زلتُ تتفقُ مع المتقلبِ على الامتياز بالثمارِ دونَ الآخرين وتزداد تشوهًا بغاياتك وأساليبك وسوء نواياك، وأنت أيها المتقلب، أقدرُ لك أنك لا تلتزم، وتخضع لأمرِ تخصيص الثمارِ للأميرِ، وتتحررُ من سطوةِ الادعاءاتِ الكاذبة، وتأخذُ حقكَ بيديكَ.. لكنك تستغلُ حاجةَ الناسِ وتتكسبُ مما هو حقٌ لهم، تبرعتَ بتحصيله لنفسِك.

وأنت أيها القاضي، يا مَن أُوكِلَ إليكَ أمرَ القريةِ والبتَ بشؤونِها ومعاقبة من يُسيء لها، ما زلتُ ضعيفًا هزيلَ الدورِ لا يُحسب لك حسابًا ولا يرتدع أحدٌ لأمرِك، ولا يُعتبر مسيء بقضائك ما دامَ بِلا نفاذٍ ولاسطوةٍ ولاحسابٍ.

أمّا ذلك المُنفلت السخط المتطور فإنه يمارسُ سطوته وقوته على الضعفاءِ، ويدّعي بما هو ليس أهلًا له. واعرف أنه لم يحضرلأنه يستهتر بكلِ القيم ولا يُلقي بالًا لناصحٍ أو محاسب، ويستغل نسيان عجوزَالصفحِ وتجاوزها لتنفيذ مآربه المريضة، ويتهددها لأنها ترى نواياه وسعيه المنحرف ويضمر لها الشر، كلما عرفت واطلعت على باطنه.

ولا يقدر لها دورها في علاجِ الآم أهلِ القريةِ والتخفيف عنهم وإستحصال حصته بالإكراه من ثمار المتقلب.

والانشغال بذاته وأنانيته عن مواجع أهلِ القريةِ.

والترفّع عن الدعاءِ لإصلاحِ ذاته. وأتباع أوهامه بالسيطرةِ على القرية وأهلها .

واستمالةُ العبدِ الأكبرِ حارس قصر الأمير لتبعيته، واستخدامه لممارسة تسلطه على الضعفاء.

أما أنت أيها العبدُ الاكبرُ فإنك تبالغ في عبوديتك للأمير، وتتخدها حجة لإيذاء الآخرين. أولى بك أن تكونَ حرًا، عوض أن تكونَ آلة يستخدمها من يدّعي الإمارة، وأولى بك أن تدافع عن الناسِ أكثر من الأميرِ، فهو ليس إلا واحدًا من الناسِ وإنما وُجد لخدمتكم وإقامة العدلِ لا إقامة الجهلِ والتبعيةِ العمياء. يا أهل القريةِ تضرّعوا بأعمالِكم لا بأقوالِكم فقط، وإياكم أن تبلغوا مظهركم بخرابِ جوهركم..وهمَّ الحكيمُ بالانصراف متجهًا نحوي كيف حالك أيها الغريب بلغني أنك مريض.. قد تحسنتُ أيها الحكيم بفضلِ دواءِ عجوزِ الصفحِ .. عليكَ أن تنتبه فقد يتشوّه طعمُ الثمارِ برفقةِ الحشائشِ.

ونظرَ بإهمالٍ للشيخِ كذِب.

انصرف الكبار وتبعَ الأطفالُ الحكيمَ صدفة، افترش بهم العُشب ليقصَ لهم الحكايا.. استندتُ لجذعِ الكوخِ ورأيتُ الطفلَ صدِق مقبلًا نحوي.. مرحبًا أيها الغريب.. مرحبًا أيها الصدق.. أرى أنك تزدادُ جمالًا.. نعم ربما بسبب مجيئك للقريةِ فأنا أصبح كذلكَ كلما زادَ أهلي.

خُذ هذا الفانوس أرسلته إليك جارتُنا المرأةُ العباءةُ.. ومَن هي المرأةُ العباءةُ؟ إنها مثلُ أمي.. تقولُ لك العباءةُ، استخدم هذا الفانوسَ لإضاءةِ كوخك، وابعد الأحجار المضيئة لأنها تُسببُ الخمولَ وتمتصُ طاقةَ الجسدِ وتُضعفُ الذاكرةَ حتى أنها تفقدُكَ المسؤولية.. هي قالت لكَ ذلك، وكيف عرفت هذا؟ المرأة العباءة عمياء الآن، كانت في السابقِ ترى كلَ ما يحدثُ في القريةِ لكنها أصيبت بالعمى، وصارت لا ترى إلا أشياءً نادرة، قالت أيضًا إنْ أردتُ الاستنارة فأستنر بثمارِ صنائعِ المعروفِ، واعتبر بها خيرٌ من ثمارٍ وعِبرِ الذنوبِ..إذن لقد خدعني الشيخُ كذِب مرةً أخرى، إن فخاخه مُتقنة لا تتركُ لك فرصةً للإفلاتِ.

غبتُ محدثاً نفسي..دخلتُ الكوخَ وجمعتُ الأحجارَ ورميتها من سفحِ الغابةِ. لطالما استغل الكذبُ حاجاتنا وادّعى حمايتنا وأفلت بنا من العقاب.

لكنه مُقايض كأبناءِ الشياطينِ لا يعطون شيئًا إلا بأخذِ ما هو أثمن منه.

هذه المرة استغل إقناعي بالعملِ الصالحِ والاعتبار.. في الليلةِ التي أنرتَ كوخي بالفانوسِ، نمتُ بسكينةٍ واستيقظتُ في غايةِ النشاطِ، غسلتُ وجهي بمياه النهرِ الصافيةِ، فجاءني الطفلُ صدِق.. ماذا هناك أيها الصدق؟ أخذني من يدي بعيدًا عن ملاعبِ الأطفالِ، أرسلتني إليكَ العباءةُ وتريدكَ أن ترافقني في مهمة.. وما هي؟.. تريدكَ أن تذهبَ معي إلى وسطِ الغابةِ التي دفنتُ فيها قلادتها حين أصيبت بالعمى.. ولماذا دفنتها وسط الغابة؟.. أ أوصتني أن أدفنها بعيدًا حين أصيبت بالعمى

وأخرجتها من بيتها لأنها لم تعد ترى من يدخل بيتَها، وخافت أنْ تسرق فهي ذكرى ورثتها عن والدتها..وهل تعرف أنت مكانها؟.. أجل أعرفه أنا من دفنتها هناك..يبدو أنك أكثرُ من طفل أيها الصدق.

أنا لست طفلاً.. فما تكون؟.. هل رأيت اللين الجسد؟.. نعم تعرّفتُ عليه.. ذلك الكرسي أو الشيء الذي يحتويه.. كم تحسب عمره؟.. إنه شاب يتجاوز العشرين بتقديري. أنا واللّين الجسد ولدنا بيومٍ واحدٍ.. أتعني أن عمرك الآن فوق العشرين.. نعم هو كذلك.. ولِمَ كَبُرَ اللين ولم تكبر أنت؟.. لا ينبغي لي أنْ أكبر حتى لا أفقدَ براءتي ..وما الذي أبقاكَ طفلًا هكذا؟.. لا أدري ربما لأني لم أجد رعايةً كافية.. حسنًا هل تعرف المكان تحديدًا؟.. نعم أعرفه، إذن.. ما الذي يفعله الشيخُ كذِب مع الأطفال اللاعبين؟.. لا عليك منه إنه يحتجُ بهم وقد أعتاد تمويه مقاصده وأفعاله.. يبدو أنك تعرفه جيدًا أيها الصدق.. أكثر من أي أحد في القرية.. لنذهب الآن نزلنا سفحَ القريةِ مع نزول النهر للمنحدر، وعبرنا التيار السريع على صخور ملساء زلقة وبدا لنا أثر ممشىً بين الأشجارِ الكثيفة.. لقد أوقعني الشيخ كذب لأكثر من مرة في فخاخه وأريد أن أعرف سيرته لأتّقي شره.. سأقصُ عليكَ خبره.. قبل سنواتٍ خلت وفي يومٍ عاصفٍ أضطرنا إلى لزوم منازلنا، كانت دواماتُ الريحِ تنفتل وتضربُ الأوراقَ وأزبالَ الأرضِ، جاءنا منها الكذِبُ وكان به بقية شبابٍ، وتصادفُ قدوم فرسان الملكِ من قريةِ التعدّي، توسطوا ساحةَ القريةِ وصاحوا بأهلها أن يخرجوا.

وخرجَ أهلُ القريةِ على صوتهم، أين هو الراعي؟ وأين هو أميركم؟ ليحضر حالًا. كانت قريةُ التعدي كثيرةَ العدد بعشرةِ أضعاف قريتنا ولديها فرسان أقوياء ولديها سلاح كثير، واعتادت التعدّي على جيرانها.

أنا كبيرُ القريةِ وأميرنا غائب منذ زمن، قال الشيخُ كذِب. استغرب أهلُ القريةِ من وقوفِ الكذبِ وحيدًا في وجههم في حين لم يكن أحد يجرؤ على ذلك.

وكان أهل القرية خائفون.. أين راعيكم، قال كبيرُ الفرسان.. أنا هو فماذا تريد؟ قد فُقد بالأمسِ تاج من ذهب مرصّع بالأحجارِ الكريمة في منطقة صيد الملك، حين كان يعلمُ الأمير الصغير صيدَ الغزلان مع فرسانه الأشدّاء، وكما تعلمون أن راعيكم يرعى قطيعه قُرب منطقة صيد الملك. ونحسبُ أنّ الراعي الذي كان الوحيد الموجود وعلى مقربة من المنطقة قد سرق التاج فإن لم تخرجوا التاجَ حتى حلولَ المغيبِ، فسيأتيكم جيشُ الملك ويأخذُ أهلُ القريةِ كسبايا وعبيد يعملون لخدمة الملك جزاءً على تطاولكم. وسنصادر أملاككم ونحرق القريةَ على رؤوسكم.. وحار أهلُ القريةِ في ردّ الكلام حين تقدم الشيخُ كذِب، أيها الفارس كما قلت لك أنا كبير هذه القرية، ولم نكن قد رأينا الكذب من قبل.

وقد كنتُ مع الراعي في رعيه ورأيتُ ملككم وفرسانه والأمير المتوج يصطادون هناك، ورأيتكم بعدها تبحثون وما إن رحلتم حتى جاء فرسان قرية التواضع يصطادون في منطقة الملك ويتعدون على أرضكم ورأيتَ أميرًا شابًا يلبس تاجًا ذهبيًا كالذي يلبسه الأمير الصغير. فأصطادوا ما

يحلو لهم وانصرفوا، والتاج يتلألأُ على هامة قائدهم. وتعلمون أنّ قرية التواضع ليس بها أمراء ولا تيجان.. إذن هم من سرقوا التاج الأميري قال قائد الفرسان.

أرى أنك صادق أيها الرجل. ولكن هذا لا يمنعكم من التهمة.. وذُهل أهلُ القريةِ لهذا الرجل الذي يدافع عنهم بلا سابق معرفة.. على راعيكم أن يبتعد بقطيعه عن منطقة الصيد ويذهب به إلى سفحِ الجبلِ، وسنأخذُ حاصل حقل أميركم لثلاثِ سنوات. ونسلبكم القطيعَ ونسوقه أمامنا هذا أفضل من أن نسوقكم عبيدًا.. اذهبوا مع الراعي وسوقوا القطيع اذهب معهم أيها الراعي وأعطهم ما يريدون إثباتًا لبراءتنا قال الكذب.. وتهدد قائد الفرسان أما أنتم يا قرية التواضع فسيكون لنا معكم شأن آخر وساقوا أسلابهم معهم ومضوا.

وما أن رحلوا حتى اجتمع أهل القرية حول الرجل الغريب يشكروه على إنقاذهم ويكبروا موقفه الشجاع. لقد أنقذتنا أيها الرجل منذ اليوم أنت منا وكبير هذه القرية.. في الحقيقة.. قال الكذبُ: أنا لم أفعل شيئًا كل ما فعلته أني اختلقت قصة فرسان قرية التواضع وتاجهم لأخرجكم من الورطة. لم أفعل شيئًا سوى الكذب.. فصار أهل القرية من يومها يسمونه الكذب.

وأسرع أهلُ القريةِ ببناء بيتٍ له وصاروا يخصّوه بأفضلِ الثمار ويرجعون إليه في أمورهم ويأخذون رأيه على محملِ التقديرِ، وهو ما يزال يتفضل عليهم بتذكيرهم أنه من انقذهم من السبي والعبودية وكأنهم صاروا بعض أملاكه الشخصية.

هناك من يتبعنا أيها الصدق.. لنستغل هذه الاستدارة ونختبئ بين الأشجار حتى نظلله.. أنه يتحرّى الأشخاص ليقنعهم بمكانته قال الصدقُ ..اختبأنا حتى رأيناه يتلصص ويسير بحذرٍ متبعًا آثار أقدامنا، وما إن مرّ حتى أشارَ الصدق من هنا سنسلك طريقا آخر، سنصل قريبًا أنت تحفظ الغابة جيدًا، أتدري أن النسيان نوعًا من الكذب.. حقا.. أنا لا أنسى خطواتي ولا الأشياء التي آراها..أرى أنك لا تعيش لنفسك أيها الصدق بل أعيش لها حين أعيش للآخرين.. أين دفنت القلادة بالتحديد في أصلِ شجرةٍ لها سمة مميزة أن لحائها يتفطر وينبت فيه الفطرُ الأبيضُ الداكن وهي مائلة باتجاه نجم القطب، هذا يعني أنك دخلت الغابة ليلًا.. نعم دفنتها خلال الليل.. كيف أمكنك الرؤية؟ لا أحد يرى لأبعد مما يرى الصدق.

إن مشكلة هذا العالم تكمن في بُعدِ النظر.

هذه هي.. انظر لهذا الفطر.. احذر فربما يكون سامًا.. بعض السموم بمثابة دواء حين يتعلق الأمر بتطبيبِ العلل المسالمة.. هنا تحت هذا العرق البارز.

لو أننا جلبنا مجرفةً معنا .. لا داعِ فالترابُ هشٌ وهي ليست عميقة.

واخذ الصدقُ يحفر..إنها غيرُ موجودة.. لقد وضعتها هنا ملفوفة بقماش.

سُرقت.. لكن كيف علموا بمكانِها، لا أدري، ما هو شكلها.. إنها قلادة مُرصعة بسبعةِ أنواعٍ من الأحجارِ الكريمة، وثمنها غالٍ جدًا.. لماذا

أرادت العباءةُ إخراجها الآن؟ تريد بيعها لإرسال ابنها المائعِ الجسدِ إلى أطباء الملك في القريةِ المجاورة.

وقد سمعتْ عن دواء يُسمى دواء المواقف، تريدُ له أن تنمو عظامه وتتصلب حتى يكونَ أهلًا للمواقف.. أليس لديها أولاد غير هذا الليّن؟.. ليس لديها أحد. لذا فهي تستعين بي لأساعدها في أمورها وأحيانًا ترفض أمي الكادحة أن أخدم العباءة في شيء. وتقول لي أنت من يجب أن يخدمه الناس لا أن تخدمهم، سوف تكون حين تكبر أميرَ القرية.. ألا ترى أنها مُحقّة؟ لا ليست كذلك وأنا لا يهمني أن أكون أميرًا وإنما أن أكون صالحًا وأنا أحب المرأة العباءة مثل أمي. ومنذ أن أُصيبت بالعمى وأنا أقف إلى جانبها وأساعدها في قضاءِ احتياجاتها..لديك برّ يفيض عن أمٍ واحدةٍ.. أتدري أيها الغريب أنا أشعرُ أني أعرفك من قبل..لا أدري أيها الصدق ربما أنا كذلك.

من سعى لسرقةِ القلادة..ألا ترى أنه تبعنا لأنه رآنا نتجه لقلب الغابة ربما يكونُ الكذبُ هو السارق. أنا أيضًا أرجح ذلك.. لم تقُل لي ما كان من أمر الكذب بعدها.. حين أصبح كبيرُ القريةِ بعد أيامٍ من ذلك جمع أهلُ القريةِ وقال: تعلمون يا أهل القريةِ رغم أني كنت صغيرًا، لكني أذكر جيدًا ما كان، أني أعرف ما أنتم عليه من الضعفِ والتمزّق والتمنّي بشفائكم من التشوّهات ورأيتم بأعينكم، كيف أني دافعتُ عنكم وأنقذتكم من التهلكة وذلك لا ينبغي لأي عابرٍ يعرّض حياته للخطرِ لأجل أهل قرية، إلّا إن كان من موقع مسؤولية الدفاع عنها وحمايتها والحرص على أهلها.

وأني ما وقفتُ هذا الموقف طمعًا في أن تقبلوني بينكم كأي غريب، ولكني أديتُ واجبي بحمايتكم بأعتباري أميركم. نعم يا أهل القريةِ، أنا أميركم الغائب وقد عدتُ إليكم .

أصيب أهلُ القريةِ بالصدمة وتفرقت مواقفهم بين مؤيدٍ ورافض.. هل يحاول هذا أن يأخذ ثمن موقفه في حمايتنا بإدّعاءِ الإمارة، قال بعضهم، وقال الآخر أنه جَسَدَ الإمارة وأحقيته لها بموقفه ولا أحد غيره يستحقها. كان ممن صدّقوا به العبدُ الأكبرُ والمتقلبُ ودلو الكلامِ والفلاحُ، ورفض ادعاءه القاضي والحكيمُ صدفة وعجوزُ الصفحِ والعباءة والراعي والخياط رأي.. قال له القاضي: نحن لن نبخس قدركَ أيها الكذب لكنك كذبت لحمايتنا كما تقول وربما يكونُ ادعاؤك كذبةً أخرى.. أعلم أن أميرنا لا يكذب قال الحكيم صدفة، وأن لدينا منهجًا ورثناه عن آبائنا نعرف به حقيقة الأمير من الدعيّ والكاذب، وهي صفات ثلاث إنْ توافرت فيك أقررنا لكَ بالإمارة وأطعناك ونصبناك أميرًا علينا.

وقال السخط المتطور أنت لست إلا غريبًا ولا ينبغي لغريبٍ أن يتأَمر علينا، وقال الخياط أنا منذ أن كانت القرية أرى صفات أهلها وأفصل لهم الثياب ولا أرى بكَ شيئًا من هذا، سنقبلك كواحدٍ منّا ولكن لن نعطيك الإمارة إلا أن رأينا صفتك في منهاجنا..حسن سترونَ ما أفعله بكلِ من يرفض إمارتي ولا يعرف أميره سأطرده من القرية.. لقد أمدّه وقوف البعض معه وتصديق ادعاءه وأخذوا يقدمون له فروض الطاعة والولاء ويخاطبوه بالأمير، خاصةً العبدُ الأكبرُ فذُله مُهيأ للبذل بين يدي من يدّعي الإمارة.

وأنت ما كان موقفك أيها الصدِق؟.. رغم أني كنت صغيرًا إلا أني لا أحب الكاذبين. وقد دخل هذا الرجل القرية كاذبًا واستغل ما يراه جميلًا أسداه لنا بأن يأخذ الإمارة ثمنًا له.

وعندما جاء فرسانُ الملك قال لهم أنّ أميرنا غائبٌ، فلو كان الأمير لَما قال هذا، ثم ارتأى كذبة الإدعاء بالإمارة.. خاصةً حين رفض الكذبُ الخضوع لإختبار الإمارة حسب المنهج وحاول أن يغلب بمن حصل على ولائهم من رفضوا ادعاءه. وما هو إلا طلوع الصبح حتى تبرأ أتباعه منه ذلك لأنهم أصيبوا بالتشوّه دون أهل القرية، فكان هذا دالّة لهم على أنه كاذب فسخطوا عليه وكرهوه بدل إتباعه. وقد جاء هذا الكذب مطروداً من قرية التواضع فكان أولُ ما فعله أنْ انتقم منهم بدفع قرية التعدّي وتحريضها عليهم.. يا له من دجّال يبدو أنه كفّ عن ادعاء الحماية وأخذ يكذب بادعاء المعروف..

صدقتَ أيها الغريب وأنّه لكذب خبيث مسموم، لا تقع على نيته حتى تكون ضحيته.. ما بك أيها الغريب إنه ألم يعتريني بين الحين والآخر، أشعر بفقدان شيئًا داخلي..ها قد وصلنا الكوخ ماذا ستقولُ للعباءة؟.. أقول لها ما كان.. ألست الوحيد الذي دفن القلادةَ ويعرفُ مكانها إلا تشكُ أنك منْ أخذها.. لا أنها تثق بي ثقتها بعماها. سآتي إليك في الغدِ لتذهب معي إلى المرآة.

وركض دون أن يسمح لي بسؤاله. خرج الشيخُ كذِب من طريقٍ آخر في الغابة بعد أن ظلّ غايته.. ماذا كنتما تفعلان داخل الغابة قال..

لا شأن لك بهذا أيها الكذب، وقد رأيناك تتبعنا وتتجسس علينا، اهتم بشؤونِك وإن لم يكن لكَ شأن.. كشفتُ أمرَك وأدركتُ فخاخك فلن يكون لك ثقة بعدها أيها المحتال، إنك أجبنُ من أن تواجه الناسَ بنواياك، فأنت أحقر من أن يكون لك شأن يذكر.. ستدفع ثمن تطاولك أيها الغريب، أعدُك بذلك.

وأغلظ نظرته إليّ وسحب ذيله مغادرًا..

في الصباح جاءني الصدقُ.. حضر الحكيمُ صدفة لأخذ أهل القريةِ للمرآة وماذا تعني هذه المرآة.. نحن نقفُ عند المرآة كل عام لنرى أنفسنا على حقيقتها وهي أحيانا لا تعنى بما نرى أنفسنا عليه.. ها إذن هي كجهاز السونار، لكنّه للنفس وليس للأعضاء، سار أهلُ القريةِ يتقدمهم الحكيمُ صدفة نحو منزله.. أهناك غائب بينكم؟.. فأجابه البعضُ أنّ السخط المتطور لم يحضر.

إنه لا يجرؤ على رؤية نفسه كما هي وإلا لفزع منها لإصلاحها كما إنه يضمرُ ما لا يودُ كشفه أمام الناسِ، ولو كانت النفوسُ في العلن لقلّ أكثرُ إجرام العالم.

أخذ أهلُ القريةِ يتحدثون كيف أنهم رأوا أنفسهم في العامِ الماضي، وكيف تخوَّف بعضهم من أنْ يكونَ سعيه قبيحًا وأنّ صورة هذا العام أكثر سوءًا من الماضي. والبعضُ الآخرُ يتخوفُ من أنه لم يحسّن صورته كما يتمنى، وآخرون يظنون أنّ المرآة ستريهم من أنفسهم ما لم يروا بها. ربما

تكون أسوأ نظرة هي نظرة الإنسان لنفسه إنها نظرة يعتريها الكِبر والانحياز خاصةً إن كانت من خلال الآخرين أو أمامهم..أرجو أن لا تنظر لنا المرآة نظرة التراب للمُتكبّر قال الصدقُ مُعقبًا..أجلسنا الحكيم صدفة على بساط العشب أمام منزله ودخله وأخرج مرآةً بيضاء من الصخرِ الصقيلِ كأنها لُجةٌ مضيئةٌ وعلّقها على جذعِ الشجرةِ أمام بابه. وقف بجانبها حسن من يريد أن يقف أمام نفسه.. تقدّم أيها الفلاح.. وقف الفلاحُ وتموّج الضوءُ في المرآة وبدت صورته شاحبة.. أيها الحكيم ألا يمكن أنْ نعرضَ أنفسنا على المرآة بمعزلٍ عن الآخرين، قال المتقلبُ.. نحن موقفٌ واحدٌ ورأيٌ واحدٌ ولا يخافُ من صورة المرآة إلا مُصّرٌ على الإساءةِ لنفسه ولا يخافُ العلن إلا مَن اعتاد الكذب على نفسه ومَن أظهر غير ما يُبطن..أنت أيها الفلاح أُتُمنت على حقلِ الأمير تزرع وتشقى والأمير غائب، تخشى أن تُطعم أهلَ القريةِ فيتمردُ أهلُها وينموا على غير إرادة الأمير، تتركُ الحقلَ يذبلُ كلَ موسمٍ بثماره، تزرعُ ولا تحصد كنت مقيدًا بملكِ الأمير ولم تكُن حرًا في نفسك، حرمتَ أسرتك ما هو حقٌ لها في الحقلِ كأجرٍ لعملك، استعبدك الولاءُ الأعمى للأمير. وهناك أمانة أكبر منه وهي أمانةُ القريةِ وأنت لم تكُن أمينا لأهلها.

إن الأرضَ لله، وخيرها لمن يفلحها، وأمرُ المعروفِ أفرض من أمرِ الأمير وقد اذهبَ اللهُ جهدك في سنوات ثلاث للملكِ الجائرِ جزاءً على احتكارك وجزاءً على احتكار نفسك لأميرك وحرمانها حقها. ثم أعقب الملكُ الجراد فقضى على المحصول ثم الحشرات التي أتلفت الثمار

وشوهتها تبعًا لنيتك، كل هذا لأنك لم تؤدِ حقَّ الناسِ فيه.. صدقتِ أيتها المرآة. والله هذا ما أحدّث نفسي به لكنّي لا أستطيع إلّا أن أنتظر أمرَ الأمير، فهو الوحيد الذي له الحق بالتصرفِ بأملاكه وإطعام من يشاء من رعيته.. مَن التالي.. تقدّم أيها القاضي.

أولى بمن كان مثلك أن يعرف نفسه خير من المرآة.

وقف القاضي وبدت صورته مشوّشة بعيدة. أيها القاضي كانت مسؤوليتك تعريفَ الناسِ بالحدود وأنت قصّرتَ عن لزوم حدودك، تعلمُ أنّ في كلِ إنسانٍ قاضٍ إلهي يأمرُ وينهى، من أدركه وراجعه وأقام مقامه كان أهلًا للعدلِ والصلاحِ وإحقاقِ الحقَ على نفسه، فإن أضعفه وأهمله وبخس قدره كان عليه أمرك أنت مذكّرًا وناهيًا ومُلزمًا الحدود، أنت أضعفتَ قاضيك فضعف أمرُ قضاءك ولو ألزمتَ نفسك بأمره لألزم الناسَ بأمرِ قضاءك. تعلم أنّ لا أمر بلا يد ولا قضاء بلا نفاذ ولا أمر بلا مأمور، وإنما عليك البيّنة والنُصح والتحذير وإيضاح العواقب فمن لم يحسن صحبتك والرجوع إليك فوباله على نفسه.

وقد خصّك اللهُ بعقوباتٍ دُنيا وهي التخويف والتذكير بالعواقبِ وحساب جنايةَ الجهلِ والإهمال والتنبيه وثني النفوس بالتبصّر عن لقاءِ التهلكة .

وعقوباتٍ عُليا هي اللّوم والتقريع والندم والشعور بألمِ الأخطاء وإقلاق السكينة واضطراب النفس وتشتت الأمر، وإن كانت مما لا تملك

فقد أخلصها الله لك. وقد ينازع رأيك وحكمك آراء وأحكام كما تتنازع الأسماء على القمة وتغلبُ عليك غلبةُ الوصيةِ على العصيان، فاعلم أنها لا تسير إلا بفكرتك ولا تخطو إلا بقدمك ولا تُنفذ إلا بشوكتك، فلا تبصّرها بأنفاق أرضك وتبسط مسالكها أمامها واستنر بالمشورة تبلغ مسارَك كما تعتدل المجاذيف ببعضها.

انسحبَ القاضي مطأطئًا رأسه، فكان الشعورُ بالتقصيرِ أولَ الأثرِ عليه.

وغادر الجمعُ كما غادر الفلاح.. اقترب يا دلو الكلام.. لا أظن أن المرآة ستنصفني فأنا لم أعتد الإصغاء لأحد، ليتها ترضى أن أناقش حديثها وأبطل رأيها.. كفاك هذرًا وقِف أمامها..أخشى أن تتسبب بإنبات أذنيين لي فاضطر لسماع الناس.. تأخّر ظهور صورته وظهرت مؤطرة بشعارِ الصيدليات، الأفعى التي تقيء في القدح.. قد أخطأ من سمّاك دلو الكلام، وإنّما الإدلاء للمقلِ وأنت تبذرُ في اللغوِ كمن ورثَ الحرامَ للبذخِ.. أنت منذ أنْ نطقت تستخدمُ ذاتَ الأفكارِ والمفرداتِ والجملِ وذاتَ الأسلوبِ بشكلٍ بدائيٍ، ولا تتكلمُ إلّا بما تسمعُ مِن الناسِ، ولم يأتِ كلامُك بجديدٍ قط، كلُ ما يهمك أنْ يغلب رأيك. أحيانًا يكونُ تحقيقُ الذاتِ بالتنازلِ وإثبات الرأي بالإخلاص للحقِ وليس بغلبة الحجج. فنارُ أبليس تلتهمُ طينةَ آدم لكنّه أفضلُ منها قيمةً ومصيرًا.

كما أنّ عصى الحقِ تلتهمُ أفاعي التحذلقِ. وأنّ الإيجاز من حُسن العقل ودقة التعبير وليتك عرفت أكثرَ مما تكلمت، والكلامُ المكررُ بِلا

وقع كمسقطِ الرأس، ومَن شُغل بلسانه عن أذنه فقد غرّه ضآلة ملكه عن عظمةِ مُلك الآخرين.

ولا يحسب سخاء اللسان ببخلِ السمعِ وأبعد الناس عن الأعتبار من شغل بنفسه واكتفى بها. وقد جعلَ اللهُ للناسِ نصيبًا في سمعك، كما جعلَ لهم نصيبًا من لسانك وأن من القولِ ما تردده الجبال ومنه ما تأكله الأرضة، وقد صرفت بلغوك نعمة إصغاء الناس لك، فأضعت نعمة لسانك. إن الكلام ابتكار فمَن حمل مسؤولية ابتكاره، أخرجه من الاعتياد إلى الدهشة، فاجعل لك نصيبًا من التعبير وصُن ما آتاك اللهُ بحمله على الابتكار. ولا تجعل لسانك كمنزلٍ مهجورٍ يردد صدى الألسن. وقد أكبرنا لك حديثك مع الأشياء فهذا يُنسب للحكمة ونفاذ البصيرة والروح الغضة التي تُحسن التعايش وتتألف الجماد.

لو كنتَ أصغيتَ له بقدرِ ما كلّمته وأنّ به احتفاء بخلقِ الله وآياتِ الكونِ البارعة. لكن هذه الاشياء لو كانت تنطق وتُحسن الردَّ كما يفعل البشر، لربما فرّت من سماعك، وللسان بصمة تخلقُ لكَ وقد بصّم به الآخرون. ما دمتَ لا تبرع في شيءٍ سوى كثرة الكلامِ. لقد بالغت في شحذِ لسانك فقطعت به أذنيكَ.

ربما لن ينطقَ الدلو بكلمةٍ بعد أسبوع على ما تلقّاه من المرآة. وتحوّل من دلوِ الكلامِ إلى ذيلِ الكلامِ الذي انسحب منكبًّا على وجهه. ولن يتورمَ وجهه مجددًا. لو صمت قليلًا ولو ربط لسانه في العراءِ، لعله يعرف أنّ للصمتِ كلامًا، ربما يثقب أذناه ويتعلق بها بقدرِ ما تعلّق بلسانه، ويسمعُ

ما تتورد به أذنيه.. من كانت لغته خاملةً مُجنزةً، فلا يُطالبُ الناسَ بحملِ الجنائزِ مواساةً له.

لِمن الدور..أنتِ أيتها الكادحة قفي أمامها. خرجت صورة غائمة كالرمادِ.

أيها الولود إن نفسك لا تملُ من الخيبة ولا تأنف من التشوّه. فلِمَ تصرين على تكرار أمانيك والإنجاب كل عامٍ للمزيدِ من الأطفالِ المشوهين بمجرد انتسابهم لكِ. أطفالك لهم صورة نفسك، طلبتِ لهم السيادة وظننتِ أن لا عيشَ دونها فخسرتِهم أمنية أمنية، متى ستشعرين بالذنبِ وتلجمي أمنية أن تحققت في آخرهم، فقد كان أولهم ضحيةً لها.

من يبحثون عن قيمتهم في السيادة هم أفقرُ الناسِ قيمة. ومن يفرض القدرَ لا يستحقه. وقد ينتزع القدر من اللسان ولا ينتزع من النفس. أنتِ اخترت إنجاب العوَق وإصابة أطفالك به.

أن تختار لولدك طريقًا فأنت تصادر ما خلقه الله له، ومن يُربى على حلمِ التسلطِ على الناس، فأنما يدفع بالسلطة ذُلّ نفسه وعبوديته، فيكونُ عبدًا لسيادةِ الناسِ.

وما جاء عبدٌ بكرامةٍ لو أُلبس تاجُ الملكِ. ومن يضع قدره بوضعِ قدر الآخرين فقد توهم المكانة.

ولولا توريث الآباء للأبناء أقدارهم لتغيّر العالم.

ليتهم يعلموهم التفكير وسيأتي كل شيء بعده. كدحت أيها الولود ولم تظفري بأجر ألم الولادة.

وكنت تضعين فقرهم بين أعينهم وهم لا يرون إلا السيادة مكانة.

ما أشقى أن تنجب وأنت لا تملكُ لمن أنجبت إلّا الأماني.

لقد وضعَ اللهُ الشأن فيمن خلق، فلا تتصنعوا شأنهم.. منْ الآخر؟ هيا أيها الراعي.

ظهرت صورته مهتزة مرتابة، أيها الراعي الطيب ما زال نايك مواسٍ لحزنك. تبثه أساكَ ويبثك حنينه، ولا تدري مصدر حزنك وأنه من حرمانِك نفسك وأسرتك، تخشى على شاردةِ القطيعِ ولا تخشى شاردةَ القلبِ بداخلك. حديث يحدثك أنّ لكَ حق فيما تعمل، وليتك حميتَ أسرتك من الحاجة والحرمان مثلما حميت وحرست قطيع سيدك. بلغ بك الولاء العمى، فلا أطعمت أسرتك ولا أهل قريتك، وادخرتَ نفسك وما بيديك للأمير. ليتك تزحزح صخرةَ جهلك. سلب الملكُ الجائر قطيعك وقطيع أميرك، فلم تمنعه لأنه قوي وسلبت بضعفك حق أهل قريتك لأنهم ضعفاء. فلم يبقَ لديك وأنت ترى جهد سنينك يُسلب أمامك..تمنيت لو أنك أديت بعضه لقريتك لم يبقَ منه إلّا كِباشٌ وخرافٌ مريضةٌ، هلك بعضُها وتعافى بعضُها بفضلِ عجوزِ الصفحِ. فرعيت باقيها وتكاثرت مرة أخرى. فلا أفدتَ بكثرتها ولا بقلتها، ليتك تحشد أفكارك حشد قطيعك.

ليتك تمنع هذا العبد الذي يسطو على القطيع ويحرم القرية منه داخلك.

ليت عصاكَ تكون غليظة على جبنك وخضوعك. وليتك تبحث خصبَ الأفكارِ لتحررك من قيودك المزعومة. وليتك تسمن جرأتك

وهُزال صنيعك بنفسك. لقد ربيت ذُلك أكثر من تربية بناتك، انتفض وتحرر فلا ينبغي لأرض الله داخلك أن تُدنس وتُستعبد لغيره. خلق الناس أمراء أنفسهم ولا حق لأميرٍ في نفس الناس إلا بالمعروف. وأن ترعى حقوقك خير من أن ترعى سلبها. فإنك على هذه الحالة لست إلا فردًا من القطيع..

سأفعل.. سأفعل أيها المرآة.. يبدو أنّ إمارة الأمير تشغل الناس هنا عن إمارة أنفسهم همس الصدق في أذني.. أرى أن حقيقة الناس في وادٍ وما يرون أنفسهم عليه في وادٍ آخر. لا يجيدون إلّا إذلال أنفسهم وتعبيدها لحوافر خيل الأمير.

العبد منْ تستباح نفسه..إن الله يحبنا عبيدًا له وأحرارًا لدى خلقه، أعزةً على أنفسنا..

تقدّم أيها المتقلّب.. أرجو أن لا تفتري علي المرآة كما افتريت على الآخرين.. أنت من تحتاج رؤية نفسك أمامها لا هي..قف أمامها.. ووقف المتقلب ظل ضوء المرآة يتردد ويغيب، يبدو أنها لا تريد رؤيته قلتُ للصدقِ، بعد قليل ظهرت صورتين على شكله في المرآة. أنت في صورتك الأولى جبان ضعيف، جبنك في أنك لا تواجه نفسك، وضعفك في أنك لا تستطيع أن تكون حقيقتك. اتخذت الإدّعاء والتظاهُر سبيلًا لكسبِ الودِ، وتلونت لإخفاء لونك، سايرت وجاملت وادعيت الاقتناع، كسبت الود بمحايلة الناس استغفلت طيبهم وخدعت نقاء سريرتهم وسرحت بحسن نواياهم، حتى أكسبوك الطمأنينة وجانبك الأمان.

ورفعوا الحذَر عنك ومنحوك الثقة وأودعوك السر، وكشفوا لك الضعف وبثوك الشكوى، وكنت تخاتل أمانهم وتتصيد مشاعرهم، أعطوك ثمن خداعك التسليم ومراوغة أساليبك إخراجك من دائرةِ الشك.

وحرصك الدعيّ التقريب وما كان به إلا التشهير والانتقاص، كشفوا ظهورهم أمانًا لك، فكنت أعرف الطاعنين بالأذى وادعتهم حتى ألانوا لك الجانب.

بادرتهم المودة حتى تستجلب غفلتهم، كانوا على فطرتهم بلا تزوير ولا تجميل.

وكنت تخطط بخبث العارِف المدبّر. وليست شجاعة أن تمرق كاللصِ من أمانِ النفوسِ. وكنت في صورتك الثانية ودًا كاذبًا مصطنعًا، تنازلت عن رأيك ابتغاء التوافق وخوف المواجهة والدحض ومكثت غير بعيد برأيك خلف الظهور تطعن ما امتدحت، ترى في الناس ما جبلتَ نفسك عليه وتأخذهم به فكنتَ صادقًا في كذبك وتلونك ما أن تخلع وجهًا حتى ترتدي غيره بحسب مقتضى الحال واختباء المقاصد، مقاصد دفينة تحرك من تحت الطاولة .

استمرأت خداع نفسِك، فوجدتها متعة في خداعِ الناسِ. وادعيت التحضّر باستعارة الوجوه المقبولة. وغضضت الجوهرَ المسمومِ وجملت مرض نفسك وتذبذبها وتقلبها بادعاء قبول الرأي الآخر. نسيت صدقك وركبت بساط كذبك غير مبالٍ بقصرِ حبلك وافتضاح أمرك. همزك وغمزك في كل مجلس لا تعرف الإخلاص ولا تصدق في غاية. خبأت

غاياتك عن الأعين فكانت أمام نفاذ البصائر. ولولا غضُ الطرفِ بالثقة عنك لكنتَ عاريًا مهما استطال أمرك وبرع تمويهك.

ما كان أهلًا للصحبة من كان الشيطانُ أقربَ إليه من صحبه.

إن تمّ صدقك تمت فضائلك ولكم كان ظنك أن الصدق سذاجة محضة والبراءة عيبٌ وغفلةٌ وغشمٌ متجاهلًا وجهك بين تعدد وجوهك. ادعيت السمو والرقي وما أنت إلا أهل السفاهة. وقد يأخذ البعض بيد مكرك وخداعك إلى غايته تغافلًا وإيهامًا لك بالغفلة حتى تنكشف أمام قبائحك..

عليكِ اللعنة من مرآة كل ما قلته افتراء، سأحطمك يومًا، صرخ المتقلب بالمرآة وانقلب غاضبًا.

أخذته العزةُ بالإثمِ قلت للصدق. من التالي؟ تقدّم أيها العبد الأكبر تقلبت المرآة فجاءت صورته بلا ملامح. أنت أيها العبد الأكبر قد استمرأت العبودية فنبت عليها جسدك واستطبت الذل وكنت تهدد أطفال القريةِ بالتشوّه إن سرقوا من أملاك الأميرِ. ومنعك إياهم يشوهك. التشوّه يبدأ من النوايا ومما تؤسس عليه نفسك والتمسّك بالقدوة واجترار منهجه هو اتكال وعجز وجزء من الفرار من مسؤولية قيادة الذات. كما يتكل مرور الماء على انخفاض الأرض إبتداءً من تقمّص المنهج الجاهز إذ لا يكلف إلا الاتباع وإنتهاءً بتسيير السلوك بسوق وإملاء الأوامر.. وصمتت المرآة أمام إطراق العبد وكأنها تعرف أن كل كلام العالم لن يخفض نسبة عبوديته ولن يخدش ذُلّه الأبدي.

تراجع العبد وابتعد تحدثة نفسه بجدوى قيوده.

الأمير

ألا تمل من جلوسك على شجرةِ اليأس. شابٌ قويٌ مثلك يجب أن يفعل أكثر من هذا.. ماذا أفعل أيها الصدق.. لا شيء أيها الغريب لا شيء. يبدو أنك ما زلت ترى نفسك غريبًا عن القرية..وهذا ما يروننني عليه.

إذا كنت لا تجد عملًا كبيرًا فعليك بالصغائر لعلك تكبر معها مثل أن تساعدني بنقل الماءِ إلى بيتِ العباءة.. خجلت من نفسي إذ رأيتها تقاد على يد طفل وانتابتني نوبة الألم.. حسنًا سأساعدك، ملأنا الجرار من النهر وحملتها لباب العباءة وأدخلها الصدقُ بدوره، وعدنا للنهر مرةً أخرى، فهبّت عاصفة مفاجئة وانتشرت دواليب الهواء ترفعُ ما خفّ من الأرض. وأخذت الأشجار تنحني وتعتدل مع هباتها. تنادى أطفال القرية وهبّوا مسرعين نحو الأشجار وهم يصيحون الريح القوية.. الريح القوية..إلى أين يذهبون أيها الصدق؟ لجمعِ الثمار التي تُسقطها الريح لأهلهم، وهم يستغلون الريح القوية بهزّ الأشجار ليحصلوا على أكبر قدرٍ من الثمار. توزعوا حول الأشجار يهزونها ويلقطون الساقط منها. وبينما هم منشغلون بهذا هبّت الكادحة نحوهم، كفّوا عن هذا وإلا ضربكم العبدُ الأكبر. وجمعت أولادها وعادت بهم فيما ظلّ الآخرين يجمعون الثمار وما إن رأوا العبدَ الأكبرَ قادمًا حتى لاذوا بالفِرار.. أي قرية ذليلة هذه لماذا

يمنعهم العبدُ الاكبرُ مِن تحصيلِ ثمارٍ غرستها الطبيعة؟.. لأنه يعتبرها مِلك الأمير. ومن هو هذا الأمير؟.. الأمير الغائب كما تقول مناهجنا. إنهم يؤسسون على ظلم أنفسهم من أبسط الحقوق حتى إن عادَ الأمير ورفع هذه العبودية يكون عادلًا بنظرِهم الأعمى. ما زال ملكه قائم مع غيابه وما زال عبيده يسعون في ملكه بحجةِ أنهم أُمناء عليه.

وهل أمرهم هذا الأمير أن يمنعوا الناس من الثمارِ على الأشجار..في الحقيقة هو لم يأمر لكن العبيد مثل هذا والفلاح والراعي ابتكروا ولاءً يمنعهم ويمنع الآخرين، عندما غابت رقابة الأمير أقاموا رقابتهم بأكثر مما يحرص عليه الأمير نفسه. لأنهم كانوا من حاشيته والعاملين في أملاكه والمنتفعين بها .

ثم إنهم وبمبالغةٍ في الولاءِ حرموا أنفسهم وأسرهم من الأجر. إنهم يتصنعون السلطة بأثرِ من زالت سلطته وما تمسكم بهذه الأملاك إلا ضمانة لمكانتهم عند الأمير، إنهم زواحف السلطة. أصبحوا لا يجدون أنفسهم إلا بهذه العبودية، حتى أنهم يمنعون الناس من تسلق الأشجار ويجبروهم على جناية سقط الرياح لما يذبل من ثمرٍ، ويعاقبون من يتجرأ على هذا أنهم يستحضرون الأمير بأنفسهم ويبتدعون تسلطه لا سلطته ويستعيضون عن ظلمه واحتكاره بظلمهم لأنفسهم قلت وأكملت أمير غائب تجري سلطته بهؤلاء الأذلّاء.

هل كان هذا الأمير الغائب ظالمًا لهذا الحد.. يقولون أنه لم يكن كذلك فعلى ما اعتمدوا بتوريث ظلمهم لأنفسهم وكيف اختلقوا إذلال

أنفسهم لإرضاءه. وكيف حوّلوا ملكهم إلى ملكٍ خاص له وحده. هل منعهم من استخدام عقولهم أيضًا. ملك لا يقوم إلا على حرمان الرعية هل يجمع الأمراء ملكهم بشقاء الناس.

لو كان هذا الأمير ظالمًا لربما انتقموا منه بسلبِ أملاكه.

متى سيدرك هؤلاء أن الأمراء مجرد خدم للناس ومن لم يُحسن الخدمة سيدفع ثمن تولّيه المسؤولية. لكن وجود عبيد هكذا يفسر السطوة والطغيان الذي يصبه الحكام على الناس. الآن أدرك أيها الصدق معنى كلامك أنّ شابًا قويًا مثلي يجب أن يفعل أكثر من الجلوس على شجرةِ اليأس.

أنت تدفعني للتصدّي لهؤلاء. أنت لست هينًا أيها الصدق وأنا سأحاول.

وانتابتني نوبة ألم الفقدان، وما هي أملاك الأمير غير هذه الأشجار؟.. الحقل والقطعان وثمار الأشجار. ومن يدّعون حماية مُلك الأمير حتى من أنفسهم هم في الحقيقة يستوفون حصصهم دون الآخرين كالشيخِ كذِب والسخط والمتقلب والعبد والكادحة، لهذا منعت أولادها من لقطِ الثمار. إلّا الراعي والفلاح المغفلان.. ويدخل في ملكه أيضًا أهل هذه القرية، فقد ورثهم من آبائه معززين بصكوك العبودية، وذلك القصر الذي تراه ينتظر نزوله من الغيب على سجادةٍ من كرامةِ العبيد تتشرف بأقدامه.. ومن يسكن هذا القصر؟ أنها زوجة الأمير التي لا يراها أحد إلا بأفعالها الشائنة التي يتقنها العبيد ويحرسه ذلك العبد.. أين ذهبت أنفس هؤلاء العبيد، حين يحل فيها أمير غائب يأمر وينهى بهذه النفوس المرصودة لخدمته. وأين ذهبت مسؤوليتهم تجاه قريتهم؟.

هؤلاء هم بطانة الظلم.. خذ هذا الخاتم واشتري به ثمارًا للمرأة العباءة.

لا داعي لهذا أنا أجلب لها الثمار من تسلّق الأشجار.. ولا تلتزم بأمارة العبدِ الأكبر.. وضحكنا ضحك الأحرار.. شكرًا أيها الصدق لأنك عرّفتني بالشيخِ كذِب وقلتُ بشيءٍ من الندم، لقد كنتَ صادقًا حدّ الغفلة.. لا عليك أيها الغريب فالله يدافع عن عباده الصادقين حدّ الغفلة.. كلما رأيته أشعر بالخجل لأنه استغفلني وأوقعني في كيده كلما نظر إليّ شعرتُ بسذاجتي.

مهما ارتقيت، فهناك من ينزلك إلى تاريخك بنظرةِ عينٍ.

يا أهلَ القريةِ.. يا أهلَ القريةِ لقد مات القاضي..هرعنا إليه.. ما تقول يا ابن الكادحة.. لقد مات القاضي.. أيها الغريب.. انظر.. ورأيتُ السخطَ المتطور والشيخَ كذِب يحملان حصيرة من طرفيها عليها شيء مُغطى وضعاه أرضًا وهما يبكيان، ماذا حدث أيها الكذِب؟.. قد جاءني السخط وطلب منّي مرافقته لرحلةِ صيدٍ، فذهبتُ معه وفي طريقنا لمنطقة الصيد على مقرُبةٍ من وادي التجارب وجدنا في طريقنا جثة محترقة بالقربِ منها عصى، استدللنا عليها إنها عصى القاضي، ووجدنا وشاح القضاء قُرب جثته، وصدرية الجلد، وقد أصيب ببعض الحروق.

ذهب السخط الى منزل القاضي مسرعا وسأل ابنته: فقالت إنه لم يعُد منذ مساءِ الأمسِ. لقد انتحر القاضي بحرق نفسه أليس كذلك أيها السخط؟ لا شك في ذلك ولا بد أنه انتحر بسبب حديث المرآة فقد أساءت له كثيرًا وبالغت في إهانته..راقبتُ الجثة كانت بلا ملامح والحروق التي في العصى

متفرقة، والوشاح محروق من أطرافه وصدرية الجلد بها خمس ثقوب بقدرِ طعنةِ سكينٍ وعليها شيئًا من الدمِ. اجتمع أهلُ القريةِ يبكون ويندبون..كيف لنا أن نتأكد أنه القاضي وهذه الجثة محترقة؟ توجهتُ للسخطِ بالسؤال.. انظر إلى أغراضه، ماذا تفعل أغراض القاضي قرب جثة محترقة.

يا أهل القرية صاح السخط، لقد انتحر القاضي بسبب إهانة المرآة.. المرآة من قتلت قاضيكم يجب أن نكسرها، وعليكم جميعًا أن لا تقفوا أمامها مرة أخرى، لقد مات وترك ابنته الوحيدة، خسرنا رجلًا طيبًا وعادلًا.. ماذا سيفعل الأمير إن عادَ ولم يجد القاضي، قال العبدُ الأكبرُ.. جاءت ابنة القاضي تصيح أبي.. أبي ورمت بنفسها على جثته وهي تصرخ: من فعل هذا بأبي.. لقد انتحر بحرق نفسه..

قال الكذب.. فصرخت بوجهه: أبي ليس ضعيفًا.. أبي لا يحرق نفسه. أبي لا يحرق نفسه.. وظلت تنوح وهي تمسح سواد جثته بوجهها. حتى احتضنتها الكادحة وأبعدتها.. لا أظن أنّ هذان الكاذبان يأتيان بصدق، همس الصدق في أذني، أقبل الحكيمُ صدفة وأعاد الكذبُ رواية الحادثة على مسامعه.

أيُ فوضى ستحلُ بالقرية بلا قاضٍ يلزمها الحدود ويبصّرها العواقب، ربما يكون هناك من قتله وأحرق جثته. ربما أيها الحكيم فقد وجدنا جثته قرب منطقة الصيد ربما يكون فرسان الملك قتلوه وأحرقوه، أوضح السخط وأيده الكثير من الناس.. لا تدل ميتته أنه مات ندمًا.. لنأخذه وندفنه في وادي التجارب. أيها الكادحة اعتني بابنة القاضي ودعيها تقيم

معك فقد أصبحت وحيدة بعد موت أبيها. وحملنا جثة القاضي وسارت القرية معنا ودفناه في الوادي وعُدنا بقلوبٍ منكسرة .

في اليوم التالي سمعنا أجراس القافلة ترن بين البيوت. وأخذ تاجر البراءة ينادي.. أطفال مشوهين.. أطفال محرومين.. انقذ طفلك من فقرك وعوزك، اشتري مستقبل طفلك ببيع عاطفتك.. لدينا يكبرون ولدينا يتكاملون.. أطفال القرى النائية، نشتري أقدارهم من ضيق أقدارهم، اشتري سعادة أطفالك بإبعادهم عن نفسك. وقد تتابعت قافلته من الإبل والخيل عليها أطفال مشوهين بعضهم يبكي وبعضهم يثب الخوف من عينيه وبعضهم ينادون على أمهاتهم وحولهم حراس القافلة نادى علينا.. أين الكادحة الولود؟، أليس لديها شيئًا لنا أم أنها حسّنت نسلها؟.. أين تأخذون هؤلاء الأطفال؟، سألته.. نأخذهم لحياةٍ أفضل من شقاء حياتهم.

أنا رجل أحب الفقراء وأعطف على ذريتهم المشوهة بشرائها منهم، لأربيهم على أقدارٍ أرحم، أليس هذا أفضل من تركهم بيد آباءهم العاجزين.

قبل بضعة أيام قُتل أحد الآباء لأنه كان يسطو على مزارع الملك لإطعام أطفاله الجياع. قتله حُرّاس الملك طعنًا وظلّ أطفاله بِلا رعاية.

تبادلت والصدق نظرات الاستغراب..وخرجت الكادحة بطفلين صغيرين لدي هؤلاء يا تاجر البراءة.. ماذا تفعلين أيتها الكادحة أتبيعين أبناءك؟ اعترضتُ..إنهم مشوهون قالت بزهد، ويزداد تشوّههم كل يوم ولا أمل في تكاملهم، كما أني لا أجد ما أسد به جوعهم، وأني أريد أنْ أجمع بهم ثروة لأخيهم الصدق حين يكبر ويصبح أميرًا.. خذهم أيها

التاجر، أشار التاجر لحراسه أنْ يحملوا الطفلين على الدوابِ، وفتح كيسه وملأ كفها بأحجارٍ كريمةٍ ثمنًا لها.

أمي أرجوكِ لا تفعلي هذا لا أريد أن أصبح أميرًا. بل ستصبح أميرًا وتخلصنا من هذا الذُل. وانصرفت باكيةً.. قرع التاجرُ أجراسَ قافلته وسارت مبتعدة.. توقفت الكادحةُ عند الباب ونظرت للصدق وكأنّها عرفت ما يقصده وخاطبته بيأسٍ أن يصبحوا عبيدًا لدى الملك أفضل من أن يصبحوا عبيدًا للعبيد ومضت تنتحب.. ماذا تقصد بقولها أيها الصدق.. لقد أخبرتها من قبل أني سمعت أنّ هذا التاجر ليس إلّا كاذبًا وهو يشتري الأطفال بوعدِ أهلهم بأن يوفر لهم حياتًا أفضل من حياةِ أهلهم. لكنه في الحقيقة يأخذهم ليبيعهم للملك ليصبحوا عبيدًا في أملاكه أو جنودًا يستقوي بهم على خصومه.

كما أنهم لن يتكاملوا، بل ستزداد تشوهاتهم لأنهم سينشأون على الإذلال والاستعباد والتحكّم، ويُعدون كمشروعٍ خاضعٍ بولاءٍ أعمى للملك. يظلمُ بهم ويفتك بهم ويجري سائر جرائمه بهم. ومن يحاول الفِرار منهم من خدمة الملك وتبعيته سيُلاحق ويُقتل. هكذا يأخذهم من أهلهم ليكون هو كل أهلهم.

إنه لا يشتريهم عطفًا عليهم ولا صناعة لمستقبلهم كما يدّعي، وإنما يقوّم بهم ملكه وتعدّيه وطغيانه. وسوف يربونهم وفق مناهج تخرجهم من دائرة الآدمية إلى الوحشية، هذا هو ثمن الإفراط في الأماني إن كثُرت أمنياتك ستضطر إلى التضحية ببعضها لتعيل بعضها الآخر. كما أنّ هذا التاجر لن يختص ببيعهم على الملك وحده وإنما يمكن أن يبيعهم بسعرٍ

أكبرٍ لبعض الأُسر الغنية المرفّهة ليكونوا خدمًا لهم. وقد يكونوا بهذا أوفر حظًا ممن يُباع للملك. رُعاة وحرفيين ومزارعين وخدم وطباخين يأكلون بقدر حاجة أجسادهم للعمل والخدمة وينامون مع البهائم ويُعاملون بالسياط والإذلال وعليهم أنْ ينسوا أنّ لهم كرامة خُلقت معهم، وقدرًا يطالبون به بل إن بقاءهم أحياءً هو غاية ما يتمنون..

يا إلهي ما أشدّ هذا الظلم..

في العام الماضي واصل الصدق حديثه حين جاء تاجر البراءة، لم تبع أمي الطفلين أملًا بأن ترى بهم تكاملًا، لكنها أصيبت باليأسِ هذا العام. والغريب أنه حينها جاء الفلاح بابنته الجميلة القلب الأبيض للتاجر ليبيعها وهو يملك حقلًا يكفي لإطعام كل القرية وقد حَرَمَتْ عليه عبوديته وذله المساس بمحاصيله وهو في أشدّ الحاجة لإطعام أسرته، ولولا تدخّل السخط المتطور ومنعه، لباعها خادمة يُؤخذ من جهدها ومن عرضها أيضًا.. قال له السخط إن كنت عاجزًا عن إطعامها فدعها لي لآخذها إلى الأميرة لتعمل خادمة لها في القصر، ولن تحتاج لطعامك بعدها بل إنها ستأتيك بطعامٍ لك ولأسرتك مقابل خدمتها.. وظلّ الفلاح الذليل يشكر السخط على استخدام ابنته التي تملك من الجمال ما يحق لها أن تُخَدّم أميرتها لديها. وخرج في اليوم التالي يعمل في حقله ولا يعود إلّا بالتعب.. يالشدة أمانته ليس على ملك الأمير وإنما على رفاهية العبد الذي يركبه قلت.

رأينا الراعي يتّجه لبيتِ عجوزِ الصفح فاعترضناه فإذا برأسه ينزف دمًا يخرُ بين خصلاتِ شعره على وجهه.. ما بك أيها الراعي منْ فعل بك

هذا؟ أهم فرسان الملك.. بل هو الغراب. غراب السخط الذي يلازمني في المرعى وكلما غفلت جاءني طائرًا من غفلتي ونقر رأسي بقوةٍ وطار هاربًا ليحط على الصخرةِ عند السفح. في السابق كان يضربني بأقدامه أما الآن فصار ينقرني ويسيل دمي.. أيها العجوز يا عجوزَ الصفح أُصيب الراعي.. ألديك ما يوقف نزفه؟ تفضلوا بالدخول .. هل نقرك الغرابُ ثانية.. نعم هو كذلك أخرجت العجوز القطن واللفّاف وصبّت على رأسه سائلًا ونثرت فوق الجراح بودرة داكنة، ستؤلمك قليلًا فتحمّل، يبدو أن غرابَ السخطِ يريد منك شيئًا قالت العجوز، أليس كذلك.. نعم لقد رباه السخط على يديه وهو ينقل له الأخبار وأشياء أخرى.

لفت العجوزُ رأسه وأوقفت دمه لماذا ينقرك الغراب؟.

لا أدري إنه ينقرني ثم يحطُّ على الصخرةِ وأحيانًا يحفر تحت جوانبها، وهل ينقر كل من يراه أم يخصك أنت؟ .. لا أدري إنه لا يغادر المرعى وأحيانًا يحطُّ على رؤوسِ القطيع وينقرها.. هل تأخذنا إلى هناك؟.. آخذكم بشرط أن تجدوا لي طريقة لقتل الغراب .. سنرى.. شكرنا العجوز وخرجنا نحو المرعى.. ما عملك في هذا المرعى وأنت لا تجني منه شيئًا؟ قلتُ له هل حرضك حديث المرآة على هذا السؤال.. ألا يمكن أن تكون مُحقّة؟ أشعر أنها كذلك، لكني لا أستطيع التخلّي عن إخلاصي.

عن إخلاصك أم عن جبنك؟ رد عليه الصدق وأكمل ماذا ستفعل لو أخذت من القطيع ما أريد رغمًا عنك؟.. سأشكوك إلى الأمير حين يعود.. لكن حسب علمي أنك لا تمنع الكذب والسخط والمتقلب من

أخذ حصصهم.. وماذا يمكنني أن أفعل لهم وهم يدّعون أنهم من حاشيةِ الأميرِ.. وصلنا المرعى ورأينا الغراب يحطُّ على الصخرةِ وبجانبها خروفان هزيلان.. ما بالُ هذان الخروفان هزيلان هكذا دون الخِراف! .. أنا أيضًا يشغلني أمرهما إنهما لا يسيران مع القطيع، وإنما منفردين عنه ولا يرعيان إلّا قليلًا، ويقضيان معظم وقتهما بالوقوفِ عندَ الصخرةِ وهما يزدادان هُزالًا كل يوم.. لم يتحركا لإقترابنا لكنّ الغراب طار وأراد نقر رأسي ونعق ليحطّ على الصخرة.

واستمر في نعيقه ثم ظلّ ينظر إلينا، وقفز تحت الصخرةِ وأخذ يحفر تحت جوانبها.. أرأيت، قال الراعي هذا ما يفعله كل يوم.. ابتعد أنت، ساعدني أيها الصدق، ووقفتُ أعلى صخرةِ السفح وأخذتُ أدفعها، بقوة أيها الصدق وانضم إلينا الفلاحُ حتى دفعناها فانقلبت ودارت تتدحرج بسرعة هائلة لتصيب من القطيع من لا يتجنبها. والغراب ينعق، نظرت تحت مكانها كان التراب هشًا، وشرعتُ أحفر، وقابلني الصدقُ بالبحثِ سائلًا.. عمّا تبحث؟ لا أدري.

أجبته وظللنا نحفر حتى علقت أصابعي بخيطٍ سحبته فخرج ما يشبه الجيب، الذي خِيط بجانبيه من قماش كالقلادة، نفضتُ ترابها، كانت قطعة قماش مقواه بخياطتها على بعضها.. ما هذا؟ قال الصدقُ.. أظن أنها تعويذة.. أخذ الغراب ينعق والخروفان يثغيان، أما الفلاح فقد ركض يتفقد الأغنام التي ضربتها الصخرة وقتلت بعضها.. انظر ماذا فعلت بأغنام الأمير.. اخرس عليك اللعنة وعلى أميرك.

فتحت جيبها وأخرجت ورقة، تعال أيها الراعي، فتحتها وقرأت، أنت حر والقطيع حقٌ لكَ ولأهلِ القريةِ، وأمانتك أن تؤدي هذا الحق بدل الأمير، لو كان الأمير موجودًا لأدّى حقَ الناسِ وأملاك الأمير هي أملاك الناس، ولهم فيها أكثر مما للأمير، أنت مخوّل بالتصرّف، إن ظلمت الناسَ ومنعت حقوقهم فقد أسأت للأمير وخُنت أمانتك ..الأمير.. اقرأها أيها الراعي مرة أخرى وقرأها الراعي إنها رسالة من الأمير. هل فهمت الآن ما يجري هذا الغراب ذكي جدًا كان ينقر رأسك لتفكر، وليدلّك على تعويذة التفكير هذه، ينقر رأسك ويحطّ على الصخرة ثم يحفر تحتها ليُريك الرسالة، وهذان الخروفان خرجا عن القطيع وأُصيبا بالهُزال لأنهما كانا يفكران أكثر منك.

وأعدتُ الورقة لجيب القماش وعلقتها في رقبةِ الراعي.. التفكير أمانة في عنقك.. من غير هذه التعويذة أيها الراعي ستكون واحدًا من هؤلاء وأشرتُ إلى القطيع.. أرجو أن لا يستحق رأسك أكثر من النقر.

لقد زحزحنا صخرة جهلك فأتمنى أن تفكر.. هيا بنا أيها الصدق.. تركتاه مع القطيع وعدنا أدراجنا.

سمعنا نداءً خلفنا أيها الغريب فإذا بالفلاح يشير إلينا بيده.. أن تعالوا.. ماذا يريد هذا العبد؟ قال الصدق لنذهب ونرى.. ماذا أيها الفلاح ما بك؟.. جاء إلي وأمسك يدي وعاد بي مسرعًا إلى حقله.. هنا وجدتها ومدّ يده وأخرجها من جيبه ما هذا؟ سألته.. لا أدري وجدتها عند سياج

بئر السقاية، كان خيطها ظاهرًا فسحبتها وفتحتها ووجدت فيها ورقة اقرأها لي.. ألا تعرف القراءة.. لا إنها تعويذة التفكير، وقرأتُ في الورقة ذات الكلامِ المكتوب في تعويذة الراعي.

إنها رسالة تركها لك الأمير لتوزع نصيب أهل القرية من المحصول.

حقًا الحمد لله، إذن سأطعم أسرتي.. احذر مخالفة أمر الأمير، فإن لم تؤدِ حقهم فستكون خائنًا.. سأفعل.. سأفعل أيها الغريب، وانتابه فرحٌ غامرٌ.

ألبست التعويذة في رقبته وأعدتُ عليه.. من غير هذه التعويذة أيها الفلاح ستكون واحدًا من أولئك، وأشرتُ إلى القطيع.. اسمع ستبدأ بجناية المحصول وتوصل حصص أهل القرية إلى بيوتهم. سأفعل حين أعود في المساء من العمل.

انصرفنا بابتسامةٍ تعلو وجوهنا والغراب فوق رؤوسنا ينعق، وربما كان يرى ما يستحق النقر. بعد ساعات رأينا الراعي يطوف البيوت ويوزع عليها اللحم واللبن وقبل المغيب كان الفلاح يوزع الثمار أيضًا. تلك الليلة نام أهلُ القريةِ وفي بطونهم الشبع منذ رحيل أميرهم..

حطّ الليلُ سدوله وكنت أفكر ببنت الفلاح التي أسماها الصدق القلب الأبيض، إنها يجب أن تترك خدمة الأميرة ما دام أبوها اصبح ممول القرية ولا داعي لبقائها في الخدمة.

وفي الصباح رأيتُ الفلاح يتوسل السخط في أن يستأذن الأميرة بإعفاء ابنته من الخدمة لكن السخط رفض قائلًا: إنها تتشرف بخدمة الأميرة كما أبيها بخدمة الأمير وأنّ الأميرة تحتاجها لتسليتها أكثر من خدمتها.

أقبل الحكيم صدفة نازلًا وتلقاه أطفال القرية وكعادته افترش بهم العشب طلب مني الصدق أنْ أنضمَ إليهم لأستمع إلى حكايا الحكيم، وأثناء ذلك.. جاء الشيخُ كذِب والسخط، صاح السخط بأبن الكادحة: اذهب واحضر الراعي من بيته.. غاب قليلًا وعاد به. أنتما أيها الفلاح والراعي مَن سمح لكما بتوزيع أملاك الأمير على أهلِ القريةِ، فأجابه الراعي.. الأمير.. أيّ أمير أنت أيها الراعي؟.

بل أمير القرية، لقد ترك لنا رسائلًا تأمرنا بتوزيع حصص الناس.

وأين هي هذه الرسائل؟ فأخرج الاثنان الرسائل وأعطوها له.. اقرأها.. لكنه أعطاها للشيخِ كذِب، اقرأها أيها الكذِب، وقرأها وعقّب الفلاح.. حتى لو كنتم من حاشية الأمير فأمره يجري عليكم وعلينا.. حسنا اذهبوا إلى عملكما.

اقترب السخط من الحكيم وهو في دائرة الأطفال.. أيها الحكيم أريد أن أعتذر إّليك عما قلته حين انتحر القاضي عن كسر المرآة ومطالبة الناس بعدم الوقوف أمامها. لقد كنتُ مخطئًا، وإنما كانت ثورة الغضب والحزن على القاضي، وإني أريد أن تسمحَ لي بالوقوف أمامها.. لا بأس انتظر حتى أنهي القصة للأطفال..

همس الصدقُ في أذني لنذهب معهم ونرى كيف ستخزيه المرآه.

بعد قليل توجهنا إلى منزل الحكيم.. ما الذي حدث أيها السخط حتى أصبحتَ تريد الوقوف أمام المرآة وأنت لم تحضر يوم حضر الناس؟.

لا شيء أيها الغريب، أنا فقط أريد أن أعرف أخطائي وأصلحها، ولست جبانًا مثل القاضي الذي أحرق نفسه لأنه لم يتقبل حقيقته.. لنرى إن كنت ستفعل ذلك، وقفنا عند الشجرة ببابِ الحكيم ودخل ليأتي بالمرآة، هل جئتما لتشمتا بي من إهانة المرآة.. قال لنا.. بل جئنا لنشهد كيف ستصلح نفسك.. تأخر الحكيم وخرج مع قولي..

سُرقت المرآة.. بحثتُ عنها في كلِ المنزل، أحدهم سرقها.

ماذا تقول أيها الحكيم؟ صاح السخط: هذه كارثة من غير هذه المرآة لن نستطيع معرفة أنفسنا، ألم تُسرق إلا الآن حين أردتُ رؤيتها، لا شك أن القاضي سرقها، وربما كسرها ورماها بعيدًا أو لعله خبأها وانتحر بعدها، فلا يعرف أحد سبيلها. كيف له أنْ يحرم أهلَ القريةِ منها. ياله من أناني، لا بد أن نبحث في بيته وفي كل القرية.. لو لا هذه المرآة لزادت تشوّهات القرية وهي السبيل الوحيد لنجاتهم من التشوّه والعيوب.

ما أخشاه أنّ أحدهم سرقها.

ما لا يعرفه أهلُ القرية عن المرآة أنّ من يطيل الوقوف أمامها يُصاب بالأنانية ولا يرى إلا نفسه، وحتمًا سيرى نفسه فوق الآخرين حتى ينكر ما لهم ويعظّم ما له.

إني لأستغرب ممن سرقها، ما الذي يمكن أن يستفيده منها! ولن يحظى حائزها إلا بالغمِ.

سبقنا السخط المتطور إلى القرية يصيح.. سُرقت المرآة.. سُرقت مرآتكم وسيزيد تشوهكم، لا بد أنّ القاضي أراد الاستئثار بها دونكم ولا

بد أنها أمعنت في إهانته، فأودت بحياته، أهدر حقكم وحق نفسه، لم يعُد لديكم ما ترون به حقيقتكم، واجتمع حوله من اجتمع وأخذوا يبحثون في البيوت وحولها.

لا بد أنها صدفة محضة أن يقرر السخط الوقوف أمام المرآة في يوم فقدانها. رافقني لبيت العجوز أيها الصدق..وهل تراني أفارقك، قد اعتدتُ صحبتك وصرتَ تملأ أوقاتي ونفسي.. طرقت بابها المشرع يا عجوز الصفح.. تفضّل بالدخول.. رائحة زكية، إنها زهور البابونج هي عطرٌ وعلاج.. هلاّ أحضرتِ لي البذور المجففة التي أودعتك إياها.. أية بذور يا بني؟.. البذور التي جلبتها من الفلاح وأوصيتك بتجفيفها.. لا أدري لا أذكر يا بني لا تطالب الغصن بتذكّر الطيور العابرة. أنا يا بني أنسى الإساءة والإحسان على حدٍ سواء، فما بالك بالأشياء. لديك المنزل فابحث أين وضعتها.. ابحث أيها الصدق.

- غريبٌ أمرك أيها العجوز! وما غرابته؟ -أنكِ تعالجين الناس ولا تعالجين نفسكِ من النسيان.

أتدري لِمَ انسى؟ لأني أتخففُ من أعباءِ الدنيا، ولأني لا أُصاب بالألم لكثرة ما أخفف عن الناس آلامهم، وما دُمت لا أُصاب بالألم فإني أنسى، قد رفع الله عنّي ألم الجسد جزاءً بما رفعتُ عن أجسادِ الناسِ بفضله، وأنا أحيا كالروحِ لا تمسّها الأيدي ولا تحبسها الجدرانُ ولا الصدور، كما أنّ لديّ مودة تجاه كلَ شيءٍ خلقه الله في عظيم ملكوته، ولو لم تكن للأشياءِ والجماداتِ من أرواحٍ، لما انطلقت الشهبُ ذاتيًا لتحرقَ الشياطين بلا

أمرٍ ولا توجيه. كلُ الأشياءِ حولك تستحقُ العناية، فمن تسمو روحه لهذا سيكون بعيدًا عن أن يُبتلى بها ويرفع عنه هم وجوده.. إن نسياني هو نسيان الترفّع، ففي النسيان شيءٌ من البراءة.

- لكن أيها العجوز المباركة البراءة من الخطأ والترفّع عنه ليس ضمانًا لعدم الابتلاء، فالإنسان يُبتلى بما يملك ولعل جسده الأكثر نصيبًا في هذا.

يا بني أنا لا أؤجل عبادةَ اللهِ حتى بلائه، من يؤجلون عبادة الله بإخلاصٍ يؤجل الله أمنياتهم. وأنّ اللهَ لا يُوقعك في بلاءٍ إلا إن توافرت بكَ احتمالية الجزع وقلة الصبر والحمد. فإن كنتَ فوق هذا أعفاك الله من ابتلائه، وأنه سبحانه أعلمُ منّي بما ألقى في نفسي.. ها قد وجدتُ البذور.. حسن إنْ جئتكِ في الغدِ وقلتُ لكِ أني أخذتُ منكِ البذور فهل ستذكرين؟.. نظرت إليّ نظرة حنون وابتسمت وسألتني ماذا ستفعل بهذه البذور؟.

سأحرثُ حقلًا صغيرًا قُرب الكوخِ إتقاء احتكار عبيد الأمير.. حسن تفعل لعل فطور يديك تجبرُ فطورَ القلوبِ.

الإنسانُ بذرةُ طموحه. فاحرص على مساعدة أهل القرية، فإنهم مغلوبون.. خرجنا وكيس البذور بيدنا اذهب أيها الصدق واجلب ابن الكادحة ليساعدنا في الحراثة.

قبل حلولِ المغيبِ اتممنا حراثة الحقل ونثر البذور وشققنا ساقيةً من النهرِ لإروائه.. شعرتُ بالتعبِ يهدرُ في دمي، ومع هذا جلستُ على الدرجةِ العليا لسلمِ الكوخِ أتأملُ النجومَ القريبةَ تزهرُ في حقلِ الظلام،

والقمرُ يصعدُ الأُفقَ كنظرةِ طفلٍ لقامةِ أباه. ليلةٌ ساكنةٌ أودعت الأشياءُ أرواحها بيدِ الرحمنِ، وذهبت في سباتِ الموتِ المؤقّت، حدد ضياءُ القمرِ منحوتات وبيوتَ القريةِ على خلفية الظلام البعيد، الأمنياتُ التي تنتظرُ صبحًا يبشرها بالتكامل ما زالت تدعو وتتمنى بدعاءٍ يرتفع فيحبطه عمله، يحملُ أهلُه جريرةَ بعض ويصابون بهم.

أن يُشملَ الأبرياءَ بعقوبةِ المذنبين فهذه عقوبة سماحهم لهم وسكوتهم عن ذنبهم.

فهم شركاؤهم في عدمِ منعه. لو يدرك الناسُ أنّ للخير والحق سلطةٌ حملوا أمانتها، فإن تخلّوا عن أمر المعروف سُحبت عنهم هذه السلطة ومُنحت للمذنبين ليعاقبوهم على سكوتهم وتخلّيهم عن مسؤوليتهم.

لا يكذّبُ المظهرُ ما فعل الجوهر. ندف الصباحُ ضوءه وضجّ أهلُ القريةِ لبعضهم بالشكوى من التشوّه، زاد تشوههم منذ فقدان المرآة وأُصيبوا بذنبِ أحدهم، خرج الفلاح لحقله وتبعه الراعي بقطيعه .

انظر أيها الغريب.. لقد تورمت يدي لأنّ طفلَ الوردِ ضربني بالعصى عليها لم أنم البارحة من الألم قال طفل الحَدَق.

لم أضربه أيها الغريب، هو أخذ عصاي ووضع رأسها في الأرض وظلّ يركض حتى اصطدمت وآذت يده.. أرني يدك.. ربما أصبت برضٍ.. تعالوا معي ألى العجوز. كيف أعرف أنك صادق فيما ادّعيت؟، ألديك من يشهدُ لك أنّ طفلَ الوردِ ضربك؟.. نعم لديّ عجوز الصفحِ، فقد كنا نلعب بالقربِ منها.

سنذهب إليها ونعرف الحقيقة.. يدّعي طفلُ الحدقِ أنّ طفلَ الوردِ ضربه بعصاه وتورمت يده بالأمسِ وأنتِ شهدتِ ذلك أيها العجوز.. أنا لا أدري لا أذكر ذلك ما دام بالأمسِ فلا أذكره.. أنا لا أذكرُ إلّا يومي، لقد نسيتُ أنا أيضًا أنكِ تنسين، لا أدري كيف تحتملين حالتك هذه.

دعني أعالجك أيها الصغير.. أنت المذنبُ يا طفلَ الوردِ، أنت ضربته أنت.

وصفعته.. لا.. لا تفعل هذا، صاحت العجوز، إنهم أطفال وسينسون إساءة بعضهم، لكنهم لن ينسوا إساءتك أنت.. ظلّ طفلُ الوردِ ينظرُ في وجهي ووجهه يتقلص حتى توالت دموعه كالمظليين.

شعرت بالندم وهو يلقي عتابه بالبكاء في وجهي.

دهنت العجوز ورمَ الطفلِ وحركتها.. هل تشعر بتحسّن سيخف الورم قريبًا، اذهب الآن.. أعتذر عن إحراجك أيها العجوز بطلب شهادتِك، فقد نسيتُ نسيانك.. لا بأس عليك يا بني. هيا لنخرج، خرجتُ فتعاقب أهلُ القرية عليّ يرونني تشوهاتهم.. وظلّ طفلُ الوردِ يقف عند بابِ بيتهم ينظر إليّ، إنّه يشعرني ببرائته وتسرّعي بصفعه. يجب أنْ أعترف أني تسرعتُ بضربه، فإن لم أفعل فربما أُصاب بالتشوّه.

ذهبتُ واحتضنته واعتذرتُ إليه، فقد أصبح التشوّه طقسًا يوميًا.

أنا خجِلٌ منك أيها الغريب.

- ولماذا؟.

لأني أتيتك بهديةٍ ارسلتها لك الأميرة.

- ومن هي هذه الأميرة؟ إنها ابنة الكادحة تقيم في وهمها بذلك القصر وضعت نفسها ورصدتها كزوجة للأمير، وهي لا تدري متى يعود، ونصّبت نفسها زوجة بدون رأيه.

وهي تعيش في انتظارها، وفي الواقع ليس للأمير الغائب بالذات، وإنما هي تعُد نفسها زوجة لمن يصبح أميرًا، فلو كان الشيخُ كذِب أصبح أميرًا بادعائه لكانت زوجته، ولو أصبح غيره لكانت كذلك.

- ومن وضعها هذا الموضع؟.

إنها الكادحة التي ترى نفسها ذليلة ولا خلاص لذُلها إلا بإمارة ولدها الصدق، أو بإمارة ابنتها. ربما لا ترى أنّ السعي للإمارة هو إعلان عن نفسٍ ذليلة، إنها تضع عبوديتها بأعلى المراتب ولا تُدرك أنّ الحرية تصنعها النفسُ لا المنصب.

- وهل هناك من يراها هكذا كأميرة؟ يراها السخطُ كذلك ما دامت تقبله ويقبلها. ولعل الناس ينحدرون إلى مستوى قبول مثلهما كأمراء. هناك من يعولون على فسادِ الزمنِ القادمِ لتقبّل أفكارهم.

- كيف تضع ابنتها بهذا الرخص؟!.

لا تبذل نفسك للدفاع عن ذليلٍ بإرادته.

- ولكن أيها الصدق منْ تتكلم عنها هي أمك كما أنّ الأميرةَ هي أختك الكبرى، كيف تقول عنهما هذا وتراهما بهذا الشكل؟!.

هل نسيتَ أيها الغريب أنني الصدق، وأني أقوم على النفس والأقربين.

- أنت مسمى يملأ اسمه.

إنها قوالب الآباء التي تنشيء الآلات البشرية، إنهم يستخدمون أبناءهم لتحقيق مآربهم.. يا لها من تجارة بغيضة!.

- وماذا أهدتنا الأميرة الدّعية ؟ انظر بنفسك..

- لقد تعطفّت علينا وخفضت نظرتها الجليلة لترانا بعين الاعتبار.. إنه ثوبٌ فردته أمامي فإذا به لا يعدو ثوبُ العبدُ الأكبرُ، المشغول بعبوديته حتى عن ثيابه، بل هو يلبس ثيابًا ذليلة ليتم على نفسه نعمة العبودية.. أتدري أيها الصدق..

كثيرون هنا من يرون أني لا أستحق ما عليّ من ثوبٍ، إنهم لا يريدون أن يروا ميزةً عليهم حتى لو كانت مجرد ثوب، فكيف سيحتملون لو مُليء هذا الثوبُ بقدره، مساكين منْ يرون أنّ مجرد قدر الآخرين إهانة لقدرهم، مساكين منْ يرون القمة على قدرِ مؤاخراتهم. وكثيرون من يصرون على بخس قدرك إرضاءً لضآلة قدرهم. كم أرثي لمن يضطرهم الزمن لتقيء قدرك رغمًا عنهم.

بعضُ الناسِ يسيرون بوخز المؤخرة لا بوخز الضمير.

وإنه لمرض أنْ يكون إثباتُ الذاتِ معتمدًا على إسقاطِ الآخر.

أنا لا أرى هذه الهدية في باطنها إلّا شيئًا من الحسد، كما أني ومنذ دخلت القرية عرفتُ أن ثياب أهلها وفق صفاتهم، فكيف أرتدي ما يريد الآخرون أن يرونني عليه مصداقًا لرأيهم لا حسب ما يمثلُ صفاتي ويليقُ بي.

لقد جاءها السخطُ بخادمةٍ لتصدق مرضها بالإمارة.. أعد عليها هديتها أيها الصدق. وقُل لها إن هذا الثوب يليق بأميرها.. أميرٌ يتملقُ رعيته هو من جاءت به الصدف. لو علِمَ هؤلاء ثقل مسؤولية الإمارة لأغلقوا أفواههم بذيولهم.

طوال عمري وأنا أرى الحُكم زلاجة تجرُها الكلابُ. إن لم يكن الحاكمُ حاكمًا خارج بيته أكثر من داخله، فهو مجرد دعيّ. وكيف لمن يعجز عن إصلاح تشوهاته أن يتحمّل مسؤولية إصلاح عيوب المجتمع، الآن أعرف أنّ الكادحة باعت أطفالها حتى تجد عذرًا لإنجاب المزيد من الأمراء.

لقد أغرقت طول البلاد وعرضها بهم. لعل العالم يزداد سوءًا بما تنجبه هذه الحواضن.. يهدرون حياتهم على التفاهة ويكلفون أبناءهم عبأ المكانةِ ليعيشوا في ذيولِ أسماءهم.

لفظني النومُ في جوفِ الليلةِ التاليةِ وأجسلني التأمّل على السلم.

كل يوم يقيء جوهرها على مظهرها، العيوبُ تريدُ أن تفلت من نفسها. أنا مجرد غريب عنها وأتألم لحالها، تُرى أين هلك أميرها وتركها سائبة تتخبط.

ما هذا الصوت.. أصغيتُ سمعي باتجاه النهرِ، رأيتُ ظلمةً على حافته، أتكون طيور الفجر جمعها البرد. سرتُ إليها.. استدرتُ للضفةِ الأخرى، عبرتُ الساقية، وسرتُ بين الأعشابِ والنباتات الطويلة.

منْ؟.. جاءني صوت..

- ماذا تفعلُ هنا في جوفِ الليل؟.. هل أخفتك؟.

لديّ من الخوفِ ما يكفي.

كان يجلس بين الأعشابِ وأمامه جرة وكأس وبضع ثمرات.

- أنت تشرب الخمر أيها المتقلب.. أهذا الوجه الثالث لك بعد وجهيك في المرآة؟.

وتجلس في عمقِ الظلامِ، أنت تواجه الناس في تقلبك. فلماذا التخفّي من السُكرِ.

أطرق وأخذ يهتز.. لماذا تبكي أيها المتقلب؟.

أبكي على حقيقتي، هذا ما أعيشه منها تحت جُنح الظلام.. هنا فقط أكون أنا، أمّا في النهارِ فأنا كذبة.

- منْ يراك الآن لا يصدق ما أنت عليه في النهار، مِن تلوّن وتقلّب ومخادعة واستغفال، لا بد أنّ السُكر أيقظ ضميرك المرحوم.. ألا تخجل أنْ تُغفل أنت ضميرك ويوقظه السكر.

أنا في الحقيقة لست إلا جبانًا مهزومًا أتراوح بين التصنّع والخوف، جبان لا أستطيع أن أواجه الناس بما لدي، اعتدت التحايل على الناس والواقع. إني أتحايل على نفسي، هذه ليست لحظة ضعف بل هي لحظة قوة وحقيقة.

- أرى أنك صادقٌ فيما تقول، يبدو أن حقيقتك قد طفت على المشروب.

أتدري لِمَ تراني في النهارِ متقلبًا متعدد الوجوه؟ لا تحزر مواقفي لأني أخاف من الصدق أن يجلب لي عداء الناس وكرههم ونبذهم، ومن

يمكنه أن يحتمل كره الناس، ولا شيء أعدى عليك من قولِ الصدق. هل أخبرك بشيء؟.

- أخبرني..

أنا أرى.. قال وقد حضر اللؤم في وجهه على ضوءِ النجومِ. منْ لديهم وجه واحد متطابق الجوهر والمظهر هم متخلفون ومغفلون وساذجون من ينعتوهم بالطيبين هم بالواقع مُفلسي الحيلة، أنتم ترون أنّ سلوكي متقلّب لكنه في الواقع متحضر.

- لقد انقلب وجهك والآخر، وكيف يكون التحضّر في السلوك؟ يكون في أنك تخفي حقيقتك ولا تسمح لأحدٍ ببلوغها وتتصنع الوجوه والمشاعر، تجامل وتتألف وتتفق وتسرح باعتقاد الناس في وادٍ آخر غير واديك. أمّا في داخلك المجهول والمموّه فأنت ترفض وتنفر وتعارض وتحتقر، لا تسمح لأحدٍ بإمساك نفسك. هذا التلاعُب والتخفّي ما يضمن لك القبول.

إنه تحضّر وتطور الأساليب للتعايش، ما دام لديك خلف سلوكك حديث نفس تعدل به وتعقب على الآخرين وتنتقم منهم بما تشاء داخلك.. حديث النفس المكنون في التعامل هو النسخة الأصلية، أمّا حديث اللسان فهو نسخة مزورة مُخادعة.

- هل ترى براعة في أنْ تخفي وتبطن غير ما تُظهر؟ بل هو التحضّر وتحديث الأساليب.

- لكن أيها الجاهل ما تتصنعه ليس إلا ردّة فعل على الآخرين، وليس إلا مسايرة المثل بالمثل، أنت تتلون وفق ما يرغبون أن يروك، فأنت هنا

أجبن من أن تكون مصدر فعل أو تأثير أو تحقيق ذات، أنت تتشكل كصدىً لصوتِ الآخرين، فأين صوتك؟ أنت أكثر أذىً من المرآة أيها الغريب.

– يبدو أن نسماتَ الفجرِ الباردة قد أطارت الصدق من رأسك. هذا السُكر الذي يكلفك بيع الثمار لساعةٍ واحدةٍ في ظلماتِ نفسك، هو أفضلُ وجوهك.

لماذا تدفن نفسك في هذا الظلام..؟ إنّ عواقب الصدق أفضل من مزايا التقلّب.

لا أحد يمنعك من أن تغسل نفسك بهذا الماء الجاري وتطهرها فيطلع الصبح على ظلماء نفسك.. هل أقول لك شيئًا تُكرهني عليه.. أنت لست إلا صنيعة الآخرين تخاذلت حتى استعمروك وعبأوا سلوكك ففرت نفسك لهذه القطيعة.

ما يجعلك بهذا التلّون هو أنك بِلا مبدأ.

بل لديّ مبدأ لكنّي أضطر للتصرف بعكسه.

– عندما تؤمن بمبدأ وتعمل بعكسه فهذا نِفاق تحققت فيه الآيات الثلاث.

حدثت نفسك بالمبدأ وكذبت في تطبيقه، وأنك وعدتَ نفسك بترجمته كسلوك وأخلفت ذلك، وأُتُمنت على نفاذه وخنته.

لا توقعني بوحلِ حديثك، أنا هكذا أحصلُ على مكانتي بما آراه يناسبني.

– أنت كمن يغمض عينيه حتى لا يراه الناس، ستظلُ هكذا جبانًا وضحية جهلك.

سأذهبُ إلى كوخي وأنت خُذ زيف وجوهك وانصرف.

لا تُخبر أحدًا أنك رأيتني هنا.

– لن أخبر أحدًا، فلديك من العارِ ما يكفيك. انظر هذه الفروع الثلاث أثمرت كوخًا اسكنه. فليت تعدّد وجوهك يثمر لك ما تسكنه نفسك بدل التشرّد في الآخرين. التشرّد في الآخرين غُربة.. صعدتُ كوخي وأطللتُ عليه وكتفاه يتقلبان ويغيبان في الظلمة.. أجلتُ نظري على بيوتِ القريةِ، كان الضوءُ يتحرك خلف بابِ المرأة العباءة. تذكرتُ حديثَ الصدقِ عنها أنها تقضي كثير من الليل بالعبادة، أنا لم ارها حتى الآن.

سمعتُ أصواتَ الطيورِ عند النهر. إنها تتجمع في الحفرة التي أحدثها تيار النهر في أيام الربيع بسبب ذوبان الثلوج بين النباتات الطويلة لتحتمي من البرد الذي تنفثه رياح الشمال. وتنام في ساعة الفجر الأخيرة حتى طلوع النهار. تسللتُ ببطءٍ مبتعدًا عن حافةِ النهرِ ثم اقتربتُ من خلفها عكس اتجاه الريح، انخفضتُ ونظرتُ في الحفرة كان عدد طيور اللقلق ونعاج الماء يزيد عن الثمانية تحذّرت أن أصدر صوتًا، واقتربتُ أكثر وهي ما تزال ساكنة، وثبتُ عليها بكلتا يدي وأمسكتُ اثنين منها من رقابها ثم من أجنحتها وفزع الباقي للطيران. كانت كبيرةُ الحجمِ وثقيلةُ الوزنِ، ذبحتها ووضعتها في الكوخ.

انتظرتُ طلوعَ الصبحِ وناديتُ على الصدق خذ هذه الطيور واعطي واحدًا للكادحة والآخر للعباءة، هل لديها من يطبخ لها؟، كانت العجوزُ تشاركها طعامها والآن لديها ابنة القاضي التي رفضت الإقامة مع الكادحة وأقامت عندها لانها تكره ابنها الأكبر.

سآخذها إليهم وأعود إليك لأني أريدك في أمر.

كان المتقلبُ قادمًا بأتجاه النهر ينظر لمكان سكره، صبغ وجهه بابتسامة وهو ينظر إليّ، سرعان ما أطفأها وبدت عليه الجدية. كمن شعر باغتيابه في نفس.

أريدك في أمرٍ أيها الغريب.. البارحة عند انصرافي من جلستي مع الفجر رأيتُ شخصان يدخلان منزل الشيخِ كذِب.

- وتقولُ أنّ السُكرَ يُنسي، يبدو أنك لا تنسى إلا حقيقتك.

دعكَ من هذا واستمع إليّ، إنهما ما يزالان في بيته وبما أنهما دخلا خُفية فلن يخرجا إلا خُفية. كانوا مُلثمين ويحملون صندوقًا وأدخلوا خيولهم في ملحق بيت الشيخ كذب.

- وماذا تظنُ أنهم جاءوا يفعلوا ولماذا يأتون مستترين بالظلام؟ أظن أنهم من قتلوا القاضي وربما جاءوا ليقتلوا شخصًا آخر؟ وماذا يمكن أن يحوي صندوقهم؟ ليس لديّ فكرة.. وقطع حديثه لقدومِ الصدق، سأذهب الآن وآتيك فيما بعد ومضى.. هآ أيها الصدق قلت أنك تريدني في أمر.

أريدك أن تنحت لي تمثالًا من الخشب فإن لم تستطع فمن الطين.

- وماذا تفعل به؟ أريد أن أعلّم الليّن الجسدِ الرماية بالقوس، كما أني أريده أن يكون متقنًا على شكلٍ ما.. أي شكل.. سأخبرك فيما بعد دعني آتي به أولا فإن شئت فاذهب معنا إلى السفح.. ذهب الصدق وعاد بالمائع كان جسده يترهل ويتموج بشكل تود لو جلدته حتى يتصلب.. أمسكه الصدق بشدة من ثوبه.. اسمع أيها المائع ستتعلم رغم أنفك أنا سأدربك حتى تتربى على الخشونة في عظامك ومواقفك، أتريدُ أن تنفق أمك كل ما لديها لـتأتيك بدواء وأنت لا تفعل شيئًا لعلاج نفسك، الدواء لا يصنع الرجال، أنا أعرف ما تعانيه، أنت تعاني من التقبّل، تقبّل كل شيء حتى ألنت جسدك وموقفك. سأعلمك شيئًا اسمه الجرأة وردة الفعل سأحطم هذا الوعاء التافه الذي تعيشه وهذه النفس التي تأخذ شكل الإناء الذي يحتويها.. هل تريد أن تكون رجلًا؟.. نعم أريد.. خذ ضع هذا القوس في كتفك وارتدي جعبة السهام واتبعني، هل ستذهب معنا أيها الغريب وتصنع لنا تمثالًا.. سأفعل.. أريد أن أرى كيف يربي الصدق وكيف يصنع من الصلصال مواقفًا.. سرنا باتجاه السفح والصدق يحث الليّن على السير بسرعة.

اصغ إليّ أيها الليّن.. من هم الذين تحبهم أكثر في القرية؟ أحب أمي وأحبك أنت وأحب الغريب رد اللين..

ومَن الذين تكرههم أكثر؟ الشيخ كذب والسخط المتطور.. اصنع لنا أيها الغريب، تمثالًا على هيئة الكذِب.. لكل قوة فعل قوة رد فعل عندما أقول لك أنك لست رجلًا هل يزعجك هذا.. نعم يزعجني.. اصرخ بأعلى

صوتك .. إذن أنت لديك ردة فعل، وترفض الإهانة ولديك الجرأة أن تدافع عن نفسك. إنّ مشكلة لين جسدك ومواقفك تكمن في لين نفسك، عليك أن تقول ما تشعر به بجرأة وقوة.

-ها قد انتهيت، إنه لا يشبه الكذب تمامًا لكنه كذّاب.

لماذا تكره الشيخَ كذِب.. لأنه كذّاب.. اصرخ بوجهه أنت كذّاب.. كذّاب وجبان..والآن سدد إليه سهمك. إن أصبحت نفسك صلبة، أصبح جسدك كذلك.

ستمارس الرماية كل يوم وتعدو وتحمل الأثقال وتتلقى دروسًا في السلوك هذا جدول تدريبك.

تركنا الليّن يتدرب وجلسنا نتحدث.. أخبرني المتقلب أنّ شخصان دخلا القرية البارحة لبيت الكذب لا أدري ما قصتهما لكني سأترصد لهما ربما كان الكذب يبيعهما من أملاك الأمير خُفية. قال إنهما جاءا على الخيول.

لعلهما من قرية التواضع.. وربما من قرية التعدّي.. لا أظن أنه يجرؤ على التعامل مع قرية التعدّي.. هناك ما يجري تحت رؤوسنا نحتاج إلى عونٍ لنقفَ بوجه من يتسببون بخراب القرية. هل ترى بابن الكادحة عونًا يا صدق؟ إنه شابٌ تافهٌ لكنه يصلح للتوجيه كالدابة.. ومن أيضًا؟.. أبناء الخياط الثلاثة يمكن الاعتماد عليهم.. أتقبل أيها الغريب رأيي؟ قل أيها الصدق.. لا يعجبني موقفك.. أنت متفرج أكثر منه عامل حتى أنّ كوخك يقع كمتفرج على القرية.

- لا أدري أيها الصدق ما الذي يجعلني بهذا البرود وشعرت بنوبة ألم الفقدان.

ربما أحتاج إلى التورط بشيء يجر ما بعده، فكفّ النفس هو ستر المتخاذلين علينا أن نثقف موقفنا، أشعر أنّ استضعاف أهل القرية يستصرخنا كما أنّا يجب أن نحملهم على وقاية أنفسهم من التشوّه، إن خُلقت ليكون لك دورًا وتخلّيت عنه فأنت خائن، وربما ننتظر أن يقع علينا الظلم لنرفعه عن الناس.

- تعال أيها الليّن.. اجلس.. اصغِ إلي.. إنّ نفس الإنسان خُلقت مؤسسة بلا نقصٍ أو عيب، ثم أنه أهملها وحرّفها وأخلف دورها وآنف مراجعتها، فتاه عن قياده، وجاءت البيئة والتربية والكبت لتُطبق عليها وتحرمها حرية خلقها، وتلوث وتحور وتخبط نقاءها ورؤيتها وتدَخّل بها الآخرون وصادروا موقفها.

إن استضعاف الطفولة هي المرحلة الأولى في الإضلال، والتبعية الجاهلة هي إعداد لرحلة الضياع. والتنمية الكاذبة هي سماء حجرية منخفضة تقف بوجه نمو الفطرة وتفعيلها.

وأكبر جُرم يرتكبه الإنسان أن يعبأ نفسه فيمن عبأه خالقه.

لن يستطيع الإنسان أن يحسن امتلاك نفسه فلو تركها لمالكها لاستقامت.

وأنّ النفوس فُطرت على التعدي، فكان أول تعديها تسلّطها على النفوس.. يحتاج النمو إلى شمسٍ وماءٍ لا إلى إحباطٍ وانتقاص، وأنت

أيها الليّن عسفت بك التعديات واستضعفتك وحقرتك حتى أقعدتْ نفسك وكبتت قدرك وهويتك. أخذك الناسُ بالعيبِ والنقصِ واسقطوا همتك وعابوا عليك سقوطك.

أنت قُمعت حتى خبأت نفسك تحت لسانك وأنشأوك على الإذلال والإهمال فكنت حصيلة بغيهم. ولم تجد ما تقي به نفسك من تعديهم إلا المُلاينة والمسالمة، وكنت تسترضيهم بسخطِ كرامتك وتبتلع موقفك لتهدأ به نفسك.

عليك أن تعمل بهويتك وأن تصدق مع نفسك ولا تطلب رضا الآخرين بغيض نفسك. فهذه المواددة كاذبة أنت لست مجهولًا، لديك ذات كامنة عليك استخراجها والعمل بها. عليك أن تضع هويتك في عينيك وعلى لسانك واعلم أنّ سعة التقبّل لا تأتي إلّا من هوية هزيلة واعتزاز باهت وشخصية رعاع، وكثيرًا ما تأتي من نفاق واستدراج، وأكثرُ الناسِ صدقًا، أكثرهم حِدِية والإنسان المؤسس على الوعي له حدود واضحة تشير لتجاوز الآخرين.

وحدود مبادئ الشخص أكبر من حدود ذاته ولهذا ينتفض حين يتعدى على ما يؤمن به. نحن في عصر يتقن إسقاط الحدود حتى تعمّ الفوضى. السفهاء وحدهم من يأنفون من التناقض بينهم وبين محيطهم.

هناك مبالغة في تحقيق السلم والتآلف وهو قائمٌ على مبدأ القطيع. وَلَكَمْ أُدخل هوى النفس من التفاهة ما اغتال قيمةَ الإنسان.. هل وعيت ما

أقول أيها الليّن؟.. تقدمت الصدق بهذا الدرس وستتلقى منه ما يحرضك على التفكير قبل كل شيء.

هيا لنعد الآن إلى القرية.

وهل سنترك التمثال هنا؟ قال اللين.. نعم اتركه هنا فلن تجده صادقًا في الغدِ. كما أنه سيشتد ويتصلب وعليك أن تكونَ مثله في هذا.. انتظرت حلول الليل بفارغ الصبر لأترصد منزل الشيخ كذب وأعرف قصة الرجلان الملثمان وفكرت إنْ رأيتهم يخرجون فسأتبعهم لأعرف وجهتهم..

توجّهت لبيت دلو الكلام واستدرت خلفه توقفت ونظرت حولي ثم تسللت لجدران بيت الشيخ كذب ومنها إلى ملحق بيته الذي أعرفه جيدًا.

وقفت عند الباب الخشبي المضعضع اعتليتُ إيطاره الأسفل ونظرت فرأيت الخيول. خفضت نظري ومددت يدي لعارضة الخشب التي تغلقه ورفعتها فانفتح الباب حرصت على الدخول بهدوء، سرت في الممر نحو الزريبة ودخلتها، أطلقتُ الخيول فهرولت في الظلام وخرجت خلفها واستترت بالجدار، وعبرت خلف بيت الدلو وعدت اسير بهدوء في ساحة القرية.

أهـذا ما استطعت فعله. إطـلاق الخيول جاءني محدّث مني واسترضيت نفسي أن هذا أفضل من كتف اليدين والتفرّج. جلستُ على السلم أنظر باتجاه منزل الكذب بلا رؤية في الظلام المستبد المكثّف بغيومٍ سترت نجومَ السماءِ.

شبكتُ ذراعي على ركبتي وعضضت إبهامي متفكرًا، أيمكن لهذه القرية أنْ تتكامل ويخرج جوهرها لمظهرها؟، أيظن أهلها أنّ التشوّه سيقف عند هذا الحد. كل ما يفكر به الناس هو أنْ يصلح مظهرهم ليستر الباطن بما فيه من قبائح عن الأعين.

هذه العقوبة المباشرة التي تطفو على مظهرهم هي ما يؤرقهم أكثر من أسبابها.

ما أكثر العِبر وما أقل الاعتبار. بعضهم منشغلٌ بنفسه وعيوبه، وبعضهم منشغلٌ بإفساد غيره.

لولا هذا القسر الذي تمارسه الأمنيات، لربما تكاملوا، ولولا هذا السعي المحموم لبلوغ المظاهر لربما تطابق المظهر والجوهر.

كل ما يهمهم أنْ يحصلوا على الحرية في العبث بأنفسهم من غير اطّلاع الآخرين. أو حتى الاضطرار لتحمّل عواقب أخطاءهم.

لو صدقت نيتهم لانقلبوا إلى ظاهرهم بأفضل ما يمكن.. قاطع هاجسي صوتٌ مخاتل وشبحٌ يقترب.. أيها الغريب.. نزلتُ السلم بسرعة.. منْ.. أنا المتقلب قال بصوتٍ خافتٍ.. ما هذا الذي تحمله؟ إنه صندوق الملثمان، لقد سرقته.. ادخله بسرعة معي للكوخ.

-لا أُدخل لكوخي المسروقات.

هذا ليس وقت فضائلك.. هيا يا رجل بسرعة.

دفعني حذره لأحمله معه ودخلنا به الكوخ.

– ما الذي فعلته؟.

إنها أملاك أميرنا ولن أسمح لهم ببيعها.

-ألهذا سرقته؟.

لا يهمني أن أكون سارقًا بنظرك، ما يهمني أن أُفشِل هذا المخطط الخائن.

دعه عندك وإياك أنْ تخبر أحدًا عنه وإياك أن تفضح أني جئت لأخبئه عندك، سيآخذه مساء الغد تحت الظلام. لقد جئت به لكوخك لأنك بعيد عن الشُبهة.

سأخرج الآن خبأه جيدًا.

– وماذا يوجد داخله؟.

بإمكانك فتحه.. وداعًا تركني مع حيرتي وخرج متلفتًا. أرجو أنْ لا يكون أحدًا رآه، يجب أن أرى ما بداخله. فتحت كلاليبه وقربت الفانوس كان به سيفًا طويلًا من أجمل ما رأيت بمقبضٍ صقيلٍ وقرابه مرصّع ودرع من صدف الحديد وحزام بنهايات معدنية، وخوذة واقية وتاج من معدن رخيص وبدلة من الجلد السميك وشعار نحاسي على شكل صقر وبضع سلاسل في قاع الصندوق مزينة بشعارات مختلفة، وعصى ملساء رخيصة بقبضة من الجلد المثبتة بالدبابيس.

لا شك أنها مقتنيات الأمير وثمنها كبير وقيمتها أكبر. يجب أن أحافظ عليها.

تُرى هل سرقها المتقلب ليحافظ عليها من التهريب؟، لا أظن أنّ لديه هذا القدر من الشرف، لكنه تحمّل سرقتها لينجيها من البيع ربما لديه بعض الشرف إذن.

لا أريد أن أكون شريكه في السرقة، وثبت إلى ذهني فكرة أنه صندوق مسروق ويجب أن لا يبقى لديّ في الكوخ. نظرتُ خارجًا.. القرية غارقة في السكون.. حملتُ الصندوق ونزلتُ السلم وذهبت خلف الكوخ ونزلت به المنحدر نحو الغابة، مشيت على الدربِ الأملسِ، لا داعي للابتعاد كثيرًا في الغابة، رأيتُ زورًا من النباتات المختلفة. لم تسلكه قدم فدخلته توغلت فيه لمسافة مناسبة توقفت عند شجرة كان ساقها بطول قامتي تمامًا. ثم ينقسم لفرعين سميكين، وضعتُ الصندوق، أزلتُ الحشائش، وبدأتُ الحفر وحين أتممته وضعت في الحفرة غطاءً جلبته معي تحت الصندوق وغطيته بالنصف الآخر. وأهلتُ عليه التراب وأعدتُ الحشائش فوقه تأكدت من الشجرة. وشققتُ خيطًا من ثوبي وربطته بأحد فرعيها. وعدتُ بين النباتات للدربِ وأعدت تشابكها حتى لا يظهر أنّ قدمًا مرت منه.

انتبهت أني أتصبب عرقًا، تنفستُ بعمقٍ وعدتُ وصعدتُ المنحدر وجلستُ ألهث على السلم.

قمتُ وغسلتُ وجهي ويدي بماء النهر ودخلتُ الكوخ وتمددت متسائلًا كيف يقدم هؤلاء على بيع تراثهم وهويتهم. تُرى هل غياب الأمير كذبة؟.

هل قتله أحدهم كما قتل القاضي. لو لم أرَ القصر لما صدقت أنّ لهذه القرية من أمير، كما أنّ الأمراء لا يخرجون من ديارهم إلا إذا استخلفوا أحدًا عليها.

لو عاد الأمر للكذب والسخط لباعوا أميرهم لتاجر البراءة كعبدٍ ممتهن.

ثقُل جفناي وهبط النوم داخلي. ما هذه الوجوه الخفافيش المسلطة التي تنقض على وجهي بكل ملامحها الثقيلة.. انهض.. انهض أيها الغريب.. أتظن أنك نائم أم إنّا نائمون. ماذا تريدون؟ كيف تدخلون الكوخ بِلا إذن!. لا يستأذن صاحب الحق باستعادة حقه.. ماذا تعني أيها الكذب؟ ونهضت واقفًا أمام وجهه.. لقد سُرق صندوق من قصر الامير وهو في عهدتنا ويجب ان نفتش كوخك..قال الكذب.

اخرس أنت وأمثالك السارقون وأشرتُ للسخطِ والعبدِ الأكبرِ. فتش الكوخ أيها العبد.. فتشوا ما شئتم السرقة تليق بأمثالكم. ما الذي يحويه هذا الصندوق؟ إنها مقتنيات الأمير، قال السخط.. أنا لم أدخل القصر حتى ولا أعرف شيئًا عمّا تقولون، هل تريدون الإساءة لسمعتي؟.. لا أيها الغريب، إن وجدنا الصندوق لديك فأنت الفاعل وإن لم نجده فأنت بريء، كما إنّا سنفتش كل بيوت القرية.

ربما هناك أغراب سرقوه ألا يمكن هذا أيها الكذب!.. ونظرتُ إليه باتهام.

لا يوجد شيء أيها الشيخ، الصندوق غير موجود.

هل تأكدت الآن، اخرج وابحث عن السارقين وأُشرت للسخطِ.. هيا اخرجوا وأمسكتُ السخط من ثوبه وصحت بوجهه محذرًا إن دخلت الكوخ مرةً أخرى بلا إذن فسأجعلك تلعق أقدامك، ودفعته للخارج بقوة.

ذهب الكذبُ ومن معه وجلستُ على السلم متوترًا. ولكن سرّني أني حافظتُ على أمانة المتقلب، ليته يأتي الآن ويأخذها، أشعر أنها دُفنت في كتفيّ وأثقلتها.

مضى جوف الليل واستسلمت الأشياء لوداعة خلقها. أحسستُ أنّ يقظتي تبعد عن نومي كثيرًا.. فتمشيت نحو النهر وهناك لم أشك أنه هو.

- لماذا لم تأتِ لأخذ صندوقك وقد سكنت القرية؟.

لا يمكنني الليلة ربما هناك من يراقب، وكرع كأسًا طويلة ونفض رأسه كذيلِ الكلبِ. لقد جاء الكذب وجماعته يبحثون عن الصندوق أصبحتُ سارقًا بنظرهم وكان همّي أن أكون أمينا لأمانتك وقد فتشوا كوخي، أنت أيها المتقلب جعلتني أبدو بمظهر السارق.

لقد أخذوا صندوقهم لِمَ لا ترد.. يبدو أنّ سُكرك لم يصل الحقيقة بعد.

وهذا ما أفكر فيه بما أني في ساعة الحقيقة. وأنك طيب وساذج أيها الغريب وبما أنك لا تؤذي أحدًا. أرجو أن تسامحني أيها الغريب أنا من استدرجتك لهذا وأخبرتك أنْ شخصان ملثمان دخلا بيت الكذب وأنهما يحملان صندوقًا وحملك هذا إلى التفكير بالأمر حتى أنك ذهبت أول الليلِ وأطلقتَ الخيول.

لكنها عادت ولم تذهب بعيدًا ثم أني جئت إليك وأوهمتك أني سرقت الصندوق بحجة الحفاظ على مقتنيات الأمير وإنقاذها وانطلت عليك غايتي. كل هذا كان مخططًا وأنا كنتُ معهم للإيقاع بك.

- أيها النذل.. لقد وثقت بك ولم أقل أنك جئت بالصندوق حفاظًا على وعدي لك.

ثم إنهم جاءوا وهم على ثقةٍ تامةٍ بوجود الصندوق في كوخك، أرادوا أن يخرجوه من كوخك لتكون سارقًا بالدليل القاطع ويشهد عليك ثلاثة شهود.

كانوا يعدون لك هذا لمحاكمتك غدًا بتهمة الخيانة أمام القرية. ويقيموا عليك الحجة لطردك منها بعد أن يقنعوا كل أهل القرية بفعلتك فيدينك محبيك قبل مبغضيك. الشخصان الملثمان لم يكونا إلا السخط والعبدَ الأكبر وقد جمع الكذب والسخط والعبد الأكبر مقتنيات الصندوق من أملاكهم الخاصة.

فليس هناك مقتنيات في الحقيقة تركها الأمير وأنّ قصة تهريب أملاك الأمير ليست إلا وهمًا، لكنك كنت أذكى منّا جميعًا وأوقعتنا في فخنا.. أين الصندوق أيها الغريب.. قال وكأنه قطع صدقه بلؤمه.

- أخذوه، الكذب ومن معه هل لديك ما يشهد لك أنك أعطيتني صندوقًا.. لا أحد إلا ادعاؤك.

كنت قد صدّقت ادعاءك أن هناك مقتنيات أمير وأنك تكبدت سرقتها لتحافظ عليها وأنك حريص على إفشال مخطط تهريبها.

ولم أخبرهم أنك من جلب الصندوق، لكنك كنتَ متآمرًا كاذبًا. ماذا أراد الكذب بهذا؟.

أرادك أنْ لا تتدخل في شؤونهم، وأنْ يطردوك من القرية، إنهم يخططون لشيءٍ أكبر.

لو كانوا وجدوا الصندوق لكنت سارقًا أمام أهل القرية بسببك أنت. وثقتُ بك وتآمرتَ عليّ ثم ها أنت تقول الحقيقة.

فلماذا أنا المتقلب إذن..

- بل قُل كلٌ يعمل بأصله وإثبات اسمك لا يعني شيئًا أمام طمس ذاتك وأنت خسيس الأصل.

صدقت أيها الغريب.. من هذه الناحية. هل أُسرك بأمرٍ لا يعلمُ به أحدٌ من أهل القرية على أنْ تكتمه.

- قد رأيت عهدي مع كاذب فكيف به وأنت صادق.

الشيخُ كذِب يكون أبي.

- حقًا تقول ! نعم..قبل سنين تزوج الشيخُ كذب من احدى نساء القرية وحملت بي وحين قاربت ولادتها أخذها الشيخُ كذب إلى قرية التعدّي. وبقيا هناك حتى ولدتني وماتت في الولادة فعهد بي إلى مرضعة هناك، وعاد للقرية وتركني هناك بعدها عند عائلة من أقاربه حتى شببت فجاء وأعادني إلى هذه القرية.

وأمرني أنْ لا أخبر أحدًا أنني ولده، وأنْ أدخل القرية كغريبٍ مقطوع، وأُقيم بمنزلٍ مستقل وليس معه.

كبرت هنا أمام عيني أبي وهو لا يراني إلا كذبة من كذباته.

وقد سرّني أنك أوقعت به وأفسدت مخططه، يسرني أنْ أراه مهزومًا حقيرًا ولهذا رويت لك ما حدث وكشفت لك مخططه.

- لقد أشفقتُ عليك أيها المتقلب وأريد ان أخبرك أنّ النوايا الحسنة تدافع عن أهلها.

كل ما كنتُ أقصده هو أنْ لا أبقي سرقة في كوخي، أما وقد عرفت قصدهم ونواياهم في طردي من القرية وإصابة سمعتي فسيكون بعده ما يكون.

اسمع أيها المتقلب.. سيكون هذا الصندوق ثمنًا لتعديهم عليّ ومكرهم بي.

وقل لهم أني لن أخرج من القرية حتى أنظفها منهم، أو يعود أميرها ويفعل ذلك.

إنه الصباح الذي انتظره شبان القرية هذه المرة وقد وافاهم الحكيم صدفة لعلاجهم. جلس أمامهم كقطبِ الرحى على العشب وهو يعوض عمل المرآة المفقودة في علاج نفوس الناس من التشوّه.

تكلم يا ابن الكادحة، قال الحكيم.. أنا أيها الحكيم أعاني من ضآلة القدر ومن تمثل ما لا أستحق، ومن غلبة الطموح بلا عمل، وأخلع على نفسي من

التمنّي ما أسد به العيوب وأبلغ المكانة وأُتم القدر وأرضي النفس، واقعٌ في حسد من يعلوني قدرًا وأبخس من قدرهم ما يضعني فوقهم.

لديك فضيلة الاعتراف..شخّص الحكيم صدفة.. اعلم أنّ الله لم يخلق حقيرًا قليل شأن، وأن لك شأنًا خُلقت له، فإن نافست الناس قدرًا هو ليس لك رأيت نفسك دونهم، ولو شُغلت بشأنٍ خُلقت له لكانوا دونك فيه.

لكن الناس تنافسوا على أقدار المال والملك والسلطة بكل ما هو ظاهر ووضع الآخرين وزنهم بهذه المقاييس فهانت أقدارهم.

ولو تنافسوا على ما هو باطن لتفاوتت قيمهم ولكان أفقر الناس ملكًا أكثرهم قيمة في علمٍ أو مكانة.

إن الله عادل بتوزيع ملكه على الناس.

لكنهم يبخسون ما آتاهم الله ويتنافسون ملك الناس وما بأيديهم، ويضيقون مسالك القيمة بتنافس بعضها وترك غيرها بلا عامل ولا ساعٍ.

لعل ما يصيبك هو أنك أهملت فطرةً كانت كفيلة بمنحك ما تطمح من القدر والمكانة وأحللت مكانها مقاييس هواك وما امتاز به الناس فارتبكت قيمتك.

نحن لا نحترم أقدار الله لنا، وندّعي تحقيق الذات خير من خالقها. سيدلك الله على ما خُلقت لأجله فلا تصارع لعله في علمٍ ولعله في إيمانٍ وتقوى ولعله في صبرٍ ولعله في نفسٍ رحيمةٍ.

سيكف الناسُ عن صراعهم وتنافسهم إن آمنوا أنّ للقيم والمعاني قيمة تفوق المال والملك، وأن أول مَن وضع مقياس الافضلية هو إبليس، قال أنا خيرٌ منه خلقتني من نارٍ وخلقته من طين.

ومنذ تلك الكلمة حُشرنا في اتّباع الماديات وتنافسها ونسينا أنّ أرواحنا التي تحركنا هي معنى.

تكلم يا بُعد النظر..

سيدي أنا أعاني من الذهاب بعيدًا في نفوس الناس، وأرى ما تؤهلهم نفوسهم لفعله وآخذ عليهم جريرة ادعاءهم ببناء أنفسهم وهدم بناء فطرتهم وجريرة سلوك منحرف ستطرحه مكونات منحرفة غيبتْ وعطلت المكونات الأصل وادعت مكانتها. وأود لو اقمتُ العدل على أنفسهم باجتثاث أسباب ومؤهلات الخطأ.

إن الإنسان خُلق بقيمته العُليا (ولقد خلقنا الإنسان في أحسنِ تقويم) وهو يراها كبيتٍ قديمٍ يزيله ويبني بمكانه بيتًا جديدًا دعياً كفيلًا بهدم سلوكه وصلاحه. وهو مؤتمن منذ الولادة على هذه القيمة العليا وأمانته أن يعيدها نقية ناصعة لربها يوم وفاته، أي أنّ رحلة الحياة تكمن في الحفاظ على الفطرة من التلوث.

وأنّ النظر في نفوسِ الناس ليس محرمًا فالله ينظر في قلوب عباده،لكنه لا يؤاخذهم على استعداد وتأهل للخطأ ولا نية حتى تكون عملًا، وأنّ في نفسِ الإنسان أسرار جسيمة، لو لم يكن بها عبرة لَما أطلعك الله عليها وإنما أطلعك ليريك صبره على خلقه ورحمته بهم ومدى نقاءك وربما مدى

تلوثهم وتحريفهم. إن قرّب اللهُ لك البعيد فرأيته قريبًا، فتلك نعمة يكون صونها بحفظ مكنونِ النفوسِ، فلست أمينًا عليها وإنما عليك أمر معروف ونهي عن منكر قبل السلوك الظاهر وبعده.

والناس مُلهم ومُعَلَم وعليك وأنت ترى بهذا البعد أن تمد حياءك بقدر بصرك.

ولا تنتهك للناس ما ستر الله منهم، ولا تأنف من عيوب تراها فقد يرى بك مثلها.

وأعظم الصدق ما تم على النفس فدمغ كِبرها، وأعظم العدل إحقاق الحق على النفس. وأهونه الاعتراف بالذنب.

وإنما وضع الله الذنب عمن اعترف بذنبه لأنه أحق العدل على نفسه باعترافه. ومن ينتصف للحق من نفسه فقد تمّ صدقه. ومن لم يخشَ أنْ يُعاب بين الناسِ على خطأ ارتكبه وخشي أنْ يُعاب على كبره وعزته بالأثمِ فقد تمّ صدقه. وإقامةُ العدلِ على النفسِ هو إقامة حكم الله على ما خلق.

حدّث الناس يا بعد النظر أن لا يبخسوا قدرَ الله في نفوسهم فتهون أقدارهم.

وأنت ماذا لديك يا دقائق الأمور؟.

لدي أيها الحكيم..أني أرى دقائق الأمور فأحزم موقفي على كبائرها.

وأرى طفيف الزلل فأتوقّع كبيرَ الذنبِ، وأرى سلوك مؤجل الحصول بفتات مقدماته فأنفر من الناس لا على ما فعلوا لكن على ما يمكن أن

يفعلوا، وأضع حكمًا مسبقًا على الناس يوافيه سلوكهم فيما بعد. ما أسأت ظنًا بأحدٍ إلا وكان عند سوء ظني.

يمكن أن تكون نفس الإنسان أوسع من الأرض، ويمكن أن تضيق حتى عليه. فأما دقائق الأمور فإنها تغربل ما يمر إلى نفسك وحياتك، ذلك أدعى أنْ لا تعايش من تتلقى منه الصدمة. بما أشارت به صُغرى الدلائل. وبين سوء الظن وحُسن التوقع شعرة دقيقة. وأنك مُطالبٌ بحُسنِ الظنِ بِلا غفلة واعلم أنّ الكره يأتي من الاختلاف وهذا الاختلاف تراه الأرواح فقط فقد تنفر من شخصٍ لمجرد رؤيته فاعلم أنّ روحك رأت به اختلافًا معها، ومنشأ هذا إلى تشوّه الفطرة، فإن حصل الكلام والتعامل أصبح الكره رسميًا وواقعًا. وعلى المرءِ أنْ يتوقع الخير من الناسِ بحسب الخير الذي بنفسه.

وما يُجمع بسوءِ الظنِ ويوضع في الاعتقاد قد يقع في ظلمٍ وقد يسيغ تعديًا. وقد يأتي بخيبة تنسف ما بُنيت عليه. وقد ترى بسوء ظنك ما يؤيده من باب الصدفة والتأويل وسوء التفسير. وأنّ الظن لا يغني من الحقِ شيئًا والأحكام المسبقة إسقاط مشبوه قائم على نظرة يشوبها هوى النفس. ويجنح بها اعتقاد مرتكب بلا ورع. فمن شحّ الخيرُ في نفسه نظر بشحه هذا إلى الناس فرأى من نفسه ما توهمه بالناس.

تقدم يا خوف الزجاج.. أيها الحكيم إني أرى عللًا حميدةً آتانا الله إياها لنتّقي بها عواقب البشر.

وإني أعاني من الفراسة وأشفق على الناسِ منها. تلهمني قراءة النوايا وتبصّرني مردود النفوس وأدرك ما يعتمل فيها من تدبير، وأستمع لحديث

النفس الخفي، وأستشعر اغتيابي داخل الصدور وأرى تزوير الألسن لحقائق القلوب، وينبئني الحدس بما يكون ولعلي أجول في نفوس الناس أكثر مما يفعلون بأنفسهم فأُصاب بالإحباط مما أرى من قبائح ومسوخ، يكلفني إياها نفاذ الرؤية.

إنّ علتك أعلى من طبي يا خوف الزجاج ولكن ربما أجد ما ينفعك.

اعلم أنّ داخل الإنسان معجزة إلهية لو دخلته بكامل قدرتك لما خرجت منه إلا محدودًا. هكذا هي نفس الإنسان خُلقت لتعجز، إن الله يمدُ ببصرك بقدر نقاءك وللإنسان حواس نادرة دقيقة وشفيفة، إن عملت عليها جاءتك بالعجب، وإن أعددتها للإلهام الإلهي جاءتك بعلم غزير. كثيرٌ من الناسِ يعيشون أجسادًا وغرائز، وآخرون يعيشون عواطفًا وإتّباع هوى نفسٍ، وآخرون عقولًا ومهاراتٍ.

ونادرون هم من يعيشون أرواحًا. كثيرةٌ هي العِبر ودواعي التفكير في الإنسان وما حوله، وأبرع الناس من يُحسن الإصغاء ويدرك ما يريد الله قوله بهذا الخلق البديع. إن العيش في درك الجسدِ يُورثُ العمى والعيش في فضاءِ الروحِ يُورثُ الرؤيا. واعلم أنّ للنفوسِ حرمة، فلا تدخلها إلّا بنية الخير، واعلم أنّ للأنبياءِ حواس لم يبلغها باقي البشر، ومع هذا فإنهم لا ينشغلون بإعابة الناس وإنما بهدايتهم.

قد فهمت أيها الحكيم، قال خوف الزجاج.. أطال الحكيم النظر إليّ وقال: ليت كل الناس يصابون بعللكم يا أبناء الخياط يا أصحاب الرؤية وإنها عللُ عافية في البصيرة.

تناول الحكيمُ عصاه ومضى برفقة خوف الزجاج مرتقيًا لمنزله الذي يرتقي بارتقاء نفسه.. لا أدري لِمَ شعرت أنّ كل ما قاله الحكيم للشبان موجّه إليّ وأنّ عللهم هي عللي، وأنّ علاجها يشُق عليّ، وأنّ مجرد معرفتها أرهقتني.

كم أنا بعيد عن الرضى وكم أنا غافل غفلة السكّير عن سقوط المروءة.

- أيها الصدق خذني إلى القصر.

ماذا ستفعل؟ أريد لقاء القلبِ الأبيضِ من دونِ أن تعلمَ الأميرةُ الدعيّة.

حسن تعالَ معي.. لكن يجب أنْ لا يرانا السخطُ، لأنه يعتبر بنت الكادحة خاصة له والقصر أيضًا.. يُرَى القصرُ وسط ساحة القرية ويقع خارجها متطرفًا عنها، وكأنه غير معني بها إلا في مسألة الإمارة.

هذه الإمارة التي تتقلب من دعيٍّ لدعيّ، ويطمع بها كل من سفه نفسه.

ليت البشر يعتبرون أنّ للشياطين ملك واحد لا يتغير ولا تتغير أهدافه وسعيه، كما يتغير حكم البشر بالأمزجة.

يا ويلتنا أعجزنا أن نكون مثل هؤلاء الضالين، أيكون أهلُ الشرِ والفسادِ أكثر إخلاصًا من أهلِ الخيرِ والصلاح، ونحن الموجهون والمؤتمنون بالرسالة وهم عثراتها وعقباتها وكل همهم أن نشاركهم بمصيرهم البائس.

تركنا القرية وراءنا لطريقٍ مرصوفٍ بالأحجار واتضح القصر أمامنا رغم ارتفاع سوره وضخامة بوابته وبنائه المتعالي على بيوت القرية، إلا أنه لا يوقع الهيبة في النفس ولا تشعرك رؤيته إلا أأك مُستغل منذ قدرك

حتى حقوقك.. إنْ لم تسقط طبقة الزعامة من نفوس الناس فلن يستووا أبدًا.. ألم تقل لي أنّ العبدَ الأكبرَ يحرس القصر.. أجل في الليلِ فقط وهو غير محروس في النهار.. سأنتظرك هنا عند بوابة القصر ادخل أنت وائتني بالفتاة من غير أن تراك الأميرة.. نظرتُ من البوابة حيث دخل الصدق كان القصر يتوسط حديقة تحيط به تملأها ظلالُ الأشجارِ، ورأيت بنت الكادحة تجلس على كرسي وتدير ظهرها للبوابة تحت مظلة تضاجع خيالها الأوهام. كتلك الكاتبة العربية التي تضاجعها قصص الحب وتستخدم ملابسها الداخلية عناوينًا لكتبها.

تسلل الصدق عبر ممر الأشجار لمدخل القصر ويبدو أنه يعرفه جيدًا ويعرف مكان القلب الأبيض أيضًا. إنه طفل لا يُؤخذ عليه سوء نية ولا يخشى جانبه.

بقيتُ أنظر للكادحة وهي تشهر وجهها لوهمِ الإمارة غافلةً عما حولها ذاهلةً في حلمها تعيشه يقظة حتى يقع عليها.. لم يتأخر الصدق حتى أتى بها، أشرت لهما أنْ يخرجا من البوابة حتى لا تراهم الأميرة. وقفت الفتاة أمامي تضج تساؤلًا، كانت أجمل مما وصفها الصدق وليس عليها من التشوهات شيء ظاهر.

أنت ابنة الفلاح؟.. أجابت بصوتٍ خفيض نعم.. هل أنت راضية بعملك خادمة عند هذه الدعيّة؟.. أصابها السؤال بالحيرة وردت: أنا مضطرة للعمل هنا من أجل عائلتي.. إن كنتِ لا تريدين العمل فدعي أمر السخط لي، أعدكِ أنه لن يجرؤ على المساس بكِ، أنا أعرف أن أباكِ عبدٌ

متخاذل، وهو من اضطرك بعبوديته لهذا العمل لأنه أجبن من أن يستوفي حقه من حقله.

وقد خاف ممن أمروه وكفّ عن توزيع حقوق القرية، فإن كان لا بد من عملك هذا فأني أريد منك أن تتأكدي من خلال الأميرة وتستخبري عن وجود مقتنيات تعود للأمير، وعن غرفة مغلقة في القصر تُودع فيها هذه المقتنيات.

كما أنكِ إن شئتِ أن تحرري أباكِ من سطوةِ هؤلاءِ فعليكِ أنْ تساعديني.

وكيف أفعل هذا؟ سأقول لكِ حسب ما أعلم، فإن السخط يعمل بما تخططه هذه الدعيّة فأريدكِ أنْ تعرفي ما يخططون له، وأي حديث يقوم بينهم يتضمن اعترافاتهم بأفعالهم عن كل سرٍّ يحدث خلفَ هذا الجدار يتسبب في إذلال القرية وأهلها. هل تفعلين هذا أيها القلب الأبيض من أجلي ومن أجل أهل القرية.

سأفعل ما تطلبه مني فقط لأحرر أبي ولا أضطر للعمل كخادمة هنا.

حسن، أنتِ لست جبانة كأبيك سأنتظر منك الأخبار، عودي الآن إلى القصر. لنذهب أيها الصدق.. في طريق عودتنا لقينا ابن الكادحة خلف بيوت القرية.

أيها الغريب أتدري ما يفعله هناك ابن الكادحة؟.. ماذا يفعل؟.. إنه ينتظر عودة القلب الأبيض من عملها ويضايقها ويفرض نفسه عليها..

أحقا تقول.. نعم.. لقد رأيت هذا بعيني.. توجهنا نحوه وصحت به اقترب إلى هنا ولطمته على غير توقع. أيها النذل هززته، إن تعرضت مرة أخرى لبنت الفلاح فسأعيدك بمن كدحتك من غير جدوى. أفهمت ما أقول.. لا أريد أن أراك على هذا الطريق مرة اخرى.. نظر إلى الصدق بحقد وكأنه يتوعده.. هيا اذهب لأمك كان خير لها لو باعتك مع المشوهين بصم من الأحجار.. تابعنا طريقنا، أتدري أيها الصدق أشعر أنّ القرية تطبق على صدري وأنّ تشوهاتها تنتشر في جسدي كالجدري.

إذن ما رأيك أن نذهب برحلةِ صيد.. فكرة جيدة.. على أنْ نأخذ المائع معنا، ليكن.. اذهب إلى كوخك وسآتيك به ونخرج من عندك، دخلت الكوخ وسألت نفسي إلى متى أظل بهذا الكوخ كالمشرّد، وأمسكتني نوبة ألم طويلة، أخذتُ عدة الصيد ومشيت نحو الصدق والمائع.. إلى أين سنذهب.. خلف منزل الحكيم صدفة، فالأرض مفتوحة والنباتات عالية، مكان صيد جيد.. صعدنا السفح.

أنت تتعرق أيها الغريب قال الصدق.. ربما هو الشعور بالندم.

على ماذا؟ لا أدري أيها الصدق.. لا أدري.. أخذت الرياح مع صعودنا تزداد نقاءً وخضرة الأرض تنعش نفوسنا، والغيوم البيضاء تمر بظلالٍ سريعةٍ تمسح رؤوسنا.

كيف أصبحت في التدريب أيها الليّن؟.. أظن أني أسجل تقدمًا.. أليس كذلك أيها الصدق.. بالتأكيد.. إنّ عوده يشتد، لكن عن مواقفه لم نختبرها حتى الآن.

كثير من لديهم عود صلب وموقف هش.. صدقت أيها الليّن.

لقد وعدت أمي أن أتكفل رعايتها.. أحسنت أيها الليّن، تستطيع أنّ تكون ما تريد إنْ قررت ذلك. مررنا بمنزل الحكيم وأطللنا على السهل خلفه. الطيور والحيوانات البرية موجودة هنا بكثرة، انتشرنا في المكان بين النباتات بحذرٍ.

وذهب الصدقُ للأرضِ التي تتقدمنا.. كثيرٌ من الحشرات تجذب الطيور، سرتُ بحذرٍ والقوس بيدي، سمعتُ حركة بين الحشائش فاقتربت منها منخفضًا، ظللتُ أخطو بحذر ونظري مُسدد بين الحشائش أمامي، لم أنتبه إلا لفرار أفعى صفراء من بين قدمي، لو لا صوت فرارها بين العشب اليابس لَما عرفت بوجودها ولكنت الآن ممدًا بسمها. تقدمت أكثر ورأيت أرنبًا يفر، كان قريبًا، لحقته ورميته بالسهمِ فأصبته، رفعت رأسي فإذا بالليّن يعدو بين الحشائش، يبدو أنه سدّد سهمه وسبقه الطائر للفرار، فكرتُ أني يجب أنْ أطعم أهل القرية لأنقذهم من تسلّط واحتكار عملاء الأمير، سيحيلهم الجوعُ بلا همة للحياة.

سددتُ سهمي باتجاه أرنب آخر فأصطدته ورأيت الليّن يرفعُ طائرًا بيده ويلوّح لي، لقد اصطاد أخيرًا، أسعدني أنْ أراه يستعيد نفسه من العجز والخور وازدراء الناس. وربما كانت سعادتي لأجل تلك المرأة العباءة تمكنت من صيد طائر هذه المرة، نظرتُ باتجاه الصدق فرأيته منبطحًا على كتف التلة يشير لي وينادديني، هرولتُ نحوه وأشار لي أنْ أنخفض، وأشار بأصبعه لِما وراء التلة. تُرى ماذا هناك؟، انخفضت أكثر وانبطحت

بجانبه، ماذا هناك؟، فأشار لي. رأيتُ فارسًا يعدو بحصانه في شق الوادي الممتد خلف ظهر القرية الذي ينتهي بصخورٍ ضخمة، جلبها السيل من الجبال. وصل الفارس لنهاية الوادي وترجّل وصعد جرف الوادي نحو الصخور، فخرج منها من لا يحتاج وجوده إلى استغراب، إنه السخط بشعره الشوكي وأساليبه المريبة.

تلقى الفارس ووقفا يتحدثان ثم جلسا كان الفارس يتكلم ويشير بيده والسخط يستمع. أشرت لليّن أنْ يأتي صوبنا حتى لا يصدر صوتًا يشعرهم بوجودنا أشرت له بالانخفاض رأينا الفارس ينزل للوادي نحو جواده ويعود وبيده سلة أعطاها للسخط وظلّ يكلمه وهو يخرج منها شيئًا لم نتبينه عن بعد، وربت على كتفه ونزل لجواده امتطاه وانطلق في الشق ظلّ السخط ينظر حوله ونزل الوادي وسار حاملًا السلة على رأسه. انتظرنا وبقينا نراقب حتى صار قبالة منزله وصعد باتجاهه. ماذا تراه يفعل وما هذه السلة؟ - لا أدري.

هذا رائع أيها الليّن لقد اصطدت طيرين أما أنا فلم اصطد إلا أرنبًا واحدًا.

وشغلني أمر هذا الفارس لدينا صيد جيد لنعُد للقرية. أصبحت تتقن الرماية يا صديقي.. أثنى الصدق على اللين وطبطب على ظهره.

هذا بفضلك أيها الصدق.

عادت نوبة الألم تقطع طريق أنفاسي. قفلنا عائدين ستسر أمك كثيرًا بصيدك أيها اللين قال الصدق.. أنا أيضًا فرح لهذا.. أنا أُعدك لتصطاد

ما هو أكثر من الطير.. وما هو هذا الأكثر رد اللين.. فأجابه الصدق.. الكلاب. صيد صيد القرية.. فهمتك أيها الصدق.

صيد جيد يجب أن نشكره على أن جاء بك أيها الغريب.

مرحبًا بالحكيم صدفة.. مرحبًا يا أعزائي.. نظر الحكيم للصدق وقال: كم أنت بارع أيها الصدق، جمعت بين هذان الاثنان بين هذا الرجل الذي يسمي نفسه غريبًا، وبين من سلب حق ذاته في أن تكون.. سترى ما يكون من أمرهما من كان الصدق دليله لن يظل.. أنت يا سيد الأنفس من نستنير برأيه وحكمته ردّ الصدق بأدب.

ألم تجد عجوز الصفح ما تعيد به بصر أمك العباءة أيها الليّن.

لم تجد أيها الحكيم ما زالت أمي لا تبصر إلا من داخلها. أما عيناها فأصبحت مجرد رسم على وجهها أن إبصارها لا يعتمد عليها أن لم تبرها أشياء أخرى فلن تبصر قال الحكيم محدثًا نفسه اعتني بها جيدًا أيها الليّن.

سأفعل أيها الحكيم.. غادرنا الحكيم بعد أنْ أعطيناه من صيدنا وأوصيت الصدق أنْ يوزع الصيد على بعض بيوت أهل القرية خاصة عائلة الفلاح.

اغتسلت بالنهر وعدت للكوخ وتمددت حاولت أنْ أتصور عمى العباءة أغمضت عيني قليلًا. إذن نحن نعيش العمى كل يوم لكننا لا نفكر فيه لضمان أبصارنا. أي وحشة هذه التي تعيشها كم تمنيت أن أستطيع إعادة بصرها لا أدري إن كانت فقدته بحادث، أم جاء من

الضعف. لكن كيف عرفت بأمر الأحجار المضيئة يومها. وتذكرت قول الليّن أنها تبصر من داخلها.

أيها الغريب.. من.. هذا صوت العبد الأكبر.. ماذا تريد أيها العبد؟ جئتك بفاكهة جلبها أحد أقاربي الذي ينزل ضيفًا عندي من قرية التواضع نظرت إلى الفاكهة وعدت لوجهه ليس في القرية أشجار خوخ، حتما هي من خارج القرية من أين هبط عليك الكرم فجأة أيها العبد.

أنت لا تحسن الظن بأحد أيها الغريب حتى أنك تنفّر الآخرين من ودك.

وطفحت صورة وجهه ليلة الصندوق على عيني، أنا لا أبيت ضغينة لأحد أيها العبد وإنما تدين الناس أعمالهم. لعل لديك وجها طيبًا سودته العبودية لكن أريد أن أسألك كيف لمن يضرب الأطفال على لقط ثمار الريح أن يكون كريمًا هكذا؟ إنها الأمانة أيها الغريب لا يمكنني إلا أن أكون مخلصًا للأمير غاب أم حضر ضع كيس الخوخ عندك وجب علي شكرك. ماذا تفعل لمن لا يعرف كيف يؤمن وبم يؤمن قلت لنفسي. خرج العبد وخطر لي أن آكل القليل منه وأعطي الباقي للصدق ليوزعه، أدنيت الكيس وتناولت ثلاث حبات وأبعدته جانبًا.

لم تمض دقائق حتى اشتعلت معدتي بالألم والمغص الشديد وارتفع الدوار لرأسي، أسرعت بالخروج خلف الكوخ وضعت أصبعي بفمي وأفرغت جوفي ونوبات الألم تشد بقوة على معدتي، عدت للكوخ تمددت أخذ جسمي يتعرق ويعلو صوت الآمي وشعرت بالغثيان... فتحت عيني على الصدق.. لقد استفاق.. لقد استفاق صاح الصدق ثم

هبطت رأفة وجه عجوز الصفح على وجهي. حمدًا لله على سلامتك ما الذي حدث أيها الصدق .. لا شيء فقط كنت ميتًا منذ مساء الأمس.

ما الذي أصابني أيها العجوز.. أصابك الخوخ ولو لا الصدفة لأصبحت ميتًا قال لي الصدق قبل قليل أنه لو لم يكن ذاهبًا إلى كوخك يحمل عشاءك ووجدك فاقدًا لوعيك وقربك كيس الخوخ لربما لم تستيقظ بعدها. أحضر ابن الكادحة وحملاك إلى هنا ظننت من أعراض الحمى والتعرق إن شيئًا لدغك فأفرغت مضادًا للسم في جوفك كان حظك وافرًا لأني لم يخطر ببالي ساعتها أنك قد أكلت من ذلك الخوخ الذي حُقن بالسم.

غالب الظن أنه من فطرٍ مسمومٍ لا ينبت في محيط قريتنا، بل ينبت في قرية التعدّي. لقد فتحتُ ثمار الخوخ ووجدت أن السائل المسموم حُقن بشكلٍ جانبي ليبقى تحت جلد الخوخ لأن مسامات الخوخ واسعة ولا تكشف مكان الحقن.

وقد تمكّن السمُ من جسدك حتى فقدت وعيك.

لقد تقيأت معدتي بعد الشعور بالألم بقليل.. إذن هذا ما أنقذ حياتك. هناك من يريد قتلك بالسم أيها الغريب.

العبدُ الأكبرُ هو من جلب الفاكهة، لم أكن لأثق به وكنت حذرًا منه لكن الغريب إن الغفلة أنجتني من سُم الأفعى عند الصيد وأوقعني الحذر بسُمِ الخوخ.

رغم أني لن أسمح لك أن تتركني وحيدًا، لكنك كدتُ أن تفعلها لو لا أن أكرمنا الله بعجوزِ الصفح. لا نملك ما يرد دينها إلا حياتنا، نحن فداؤك أيها العجوزالمباركة.

الحمد لله الذي كاد أعداءك بنجاتك. خُذ هذا العقار وتناول منه، سيزيل السُم من جسدك. عافاك الله.

شكرًا لعنايتك أيها العجوز.. شكرًا لعناية الله يا بني.

خرجتُ من بيتِ العجوز.. أنا بخير أيها الصدق، اذهب إلى بيتك، لا تقلق علي، ليس قبل أن أخبرك بشيء.. جاءت بالأمس القلب الأبيض لبيت العجوز لتسأل عنك، وقالت أنها ستأتي لتطمئن عليك كانت تبكي حين رأتك فاقدا وعيك.

إنها فتاة طيبة.. أيكفي هذا أيها الصدق.. قليل البعض أكثر من سواه.

اذهب الآن.. كانت الشمس كتفاحة سيأكلها الغروب.. بعد قليل جلست كعادتي على السلم أستذكر ما حدث وأتلمّس وجودي من جديد. مرت الساعات بِلا شعورٍ مني وهبط الظلام على سكون القرية، ضربت رأسي الريحُ الفاترة واستعدت جفوني لإغلاق جسدي، شعرتُ بخدرِ النومِ يطوّح برأسي، غفوت ربما لدقائق وأيقظتني لمسةٌ ما، رفعتُ رأسي ورأيت الضوء يومض في بيت عجوز الصفح، بقيتُ أنظر إليه، إن البيت كله يومض، هذا ليس ضوء فانوس.

وركضتُ نحو البيت.. حين دنوت رأيت ألسنة النيران اعتلت الباب وقفزت، كان المدخل يستعر بالنار في باب الخشب تخطيته فأحسست

بحرارةٍ شديدة ورأيتُ المعشب ورفوفه تأكلها النار، وحصير الأرضية يمد النار لبعضه. أيها العجوز صحت.. دخلت غرفتها النيران تسري بالغرفة وتحيط بسريرها الخشبي وهي تصرخ وسط النيران وتلوذ بالجدار، صرخت صرخة مدوية حين أمسكت النار برأسها وثوبها. اقتحمتُ النارَ وأحسستُ بوجهي يسقط في اللهب، احتضنتها وركضت بها لوسط بقعة، وضعتها على حصيرة أصبحت رمادًا. أطفأتُ النار في رأسها وثوبها وحملتها وخرجت بها.

التنافس

يا أهل القرية إن تركتكم أميركم ورحل عنكم، فإن لكم منهج ورثتموه عن آبائكم تسيرون عليه، كما كان أميركم يسير عليه. فلا تظنوا أنّ غياب الأميرِ حُجةٌ لكم لتُخرجوا أنفسكم من المسؤولية. فمن كان يدين بالولاء للأمير فعليه أنْ يستقيم على نهجه، ومن وجد أنّ غيابه فرصة ليحل التزامه ويقوم على نفسه بلا قيد أو انضباط فإنه يشوهها. فإن طال غياب الأمير فإنّ لكم أنْ تختاوا أميرًا منكم، يرعاكم ويسوي أمركم ويلزمكم المنهج حتى عودة الأمير.

فاجمعوا أمركم على شخصٍ منكم ترجعون إليه وتلتزمون أمره، على أنْ يستحق الإمارة فإن لم يستحقها فإن عيوبه ستظهر عليكم أنتم. إنّ الحكم مهلكة لطالبه ما لم يقُم على الاستحقاق. ويجب أنْ يخضع لشروط المنهج، فإن اخترتم فأخبروني لأقوم مقام القاضي في تنصيبه، وخفضَ الحكيم يده وتوجّه لكوخه تاركًا الناسَ في شغلِ حديثه.

ما الذي حدث أيها الغريب؟ سألت العجوز بعد استعادة وعيها؟ تلك الليلة حين خرجتُ بكِ من وسط النيران ورائحة الجلد المحترق تصيبني بالذهول. فقدتِ وعيك لحظة اشتعال النار بجسدك، أدخلتك لبيت المرأة العباءة وناديتُ الصدق ووضعتك على سرير ابنة القاضي، أصابتني الحيرة لا أحد يعرف علاجك إلا انتِ فحاولت إيقاظك من الإغماء.

استيقظت وأنتِ تشدين على الألم بصبرٍ كبير، قلتِ لي اذهب إلى وادي التجارب تجد شجرة أوراقها على شكل سلسال دمع وشجرة أخرى على شكل وجوه غاضبة، خرجنا راكضين أنا والصدق لوادي التجارب.

كنّا نحاول إنقاذك من الألم بأسرع وقت وإيقاف نوبة الارتجاف من الألم في جسدك.

تفحصنا الأشجار على ضوء الفانوس، فعثرنا على شجرة الوجوه الغاضبة وسط الوادي، جمعنا من أوراقها وبحثنا عن الأخرى حتى وجدناها بأقصى الوادي وعدنا راكضين.

وكنتِ قد لقنتِ ابنة القاضي عن كيفية استخدامها، حين عُدنا وجدناكِ غبت عن الوعي مرة أخرى، أخذتْ ابنة القاضي أوراق سلسال الدمع وغلتها واستخلصت ماءها وصبّت جرعة منها في فمك. والأوراق الأخرى قطعتها ودعكتها حتى أصبح لونها أبيضًا كالمرهمِ ودهنت بها أماكن الحرق في جسدك. بقينا عند رأسك حتى أفقتِ عند الفجر على صحوة الألم ولم تنبسي بكلمةٍ من وقتها، لقد نجوتِ أيتها العجوز الطيبة.

أيمكن لأحدٍ من البشر أن يحرق عجوزَ الصفحِ قالت ! ربما تكون نارُ الفانوسِ تسببت بالحريق ولا أظن أنّ أحدًا يمكن أنْ يقدُم على فعلٍ شنيعٍ كهذا.

أنا ممتنة لكم يا أعزائي.

أصبتُ بالرعب عليك أيها العجوز لم أكن لأحتمل موتكِ.

كل شيء بقدر يا بني لعلنا نرى ما حدث شرًا ولا نعلم عواقبه.

أيها الغريب.. أيها الغريب.. ماذا هناك أيها الصدق تعال معي وجرّني من ذراعي وخرج بي من بيت العباءة..ماذا حدث ما بك تلهث؟ وجدتُ القاضي.. ماذا تقول ! القاضي ما زال حيًا.. نعم وجدته وكلمته إنه محبوسٌ في البئر القديمة.

محبوسٌ في البئر! كلمته بصوتٍ خافت.. وكيف عرفت مكانه؟ رأيت العبدَ الأكبرَ لا يبرح المكان أمام البئر القديمة خلف بيت السخط حتى خلال الليل بقيت أراقب حتى عاد العبدُ الأكبرُ إلى منزله وقت الغداء، فكرتُ أن لا شيء يجعله يقف هنا كحارس إلا أنْ يكون شيئًا في البئر.

ذهبتُ إليه وألقيتُ حجرًا فرد علي صوت ضعيف قلت له من تكون فقال أنا القاضي، أحدهم حبسه هناك هذه البئر يابسة وليست عميقة كانت تستخدم سابقًا لصيد الحمام. سألته من الذي ألقاك في البئر فصمت قليلًا ورد أنه هو من وقع فيه ولم يطلب مني إخراجه، سألته هل آتيك بطعام فقال لي لا لا حاجة لا تخبر أحدًا أنك رأيتني هنا وعرفت بمكاني، قال لي أرجوك أيها الصدق لا تخبر أحدًا.

غريب.. إذن كانت الجثة التي جاء بها السخط والكذب لتضليلنا لا شك أنهم من ألقاه في البئر، ولكن لماذا لم يخبرك بمن ألقاه.. قلت أنه رفض أن تأتيه بطعام.. نعم قال لي لا حاجة. لنذهب ونخرجه.. لا ليس الآن، بعد أن كلمته جاء العبد الأكبر فأستترت بسياج البئر ثم تسللت بعيدًا، العبدُ يحرسه لا يمكن إخراجه إلا خلال الليل لا بأس لم يتبقَ على حلوله الكثير.

اذهب إلى بيتك نلتقي عند كوخي أول ساعة الظلام .. عدت للكوخ متفكرًا أن يلقوه بالبئر لا غرابة لكن أن لا يريد أن يعرف أحد بمكانه فهذا غريب.

حتى أنه ليس ذي شأن ودور كبير بالقرية ولا أحد يهتم لحدوده أو يعود إليه في أمر. مرة يقتل ومرة يحبس لماذا كل هذا. قلبت صفحة تفكيري وأنا على سلم الكوخ أستذكر قول العجوز أيمكن لأحد من البشر أن يحرقَ عجوز الصفح.. حتى لو كان هناك من فعل هذا تحت ستر الظلام وكانت العجوز عرفته فأنها بلا شك ستنسى ما كان بالأمس. وهل يمكن أن يؤذي أحد هذه العجوز. إنها نفحة روح ليس لها وطئ نور على نهار. إنها يوم واحد من المحبة والرحمة يعيد نفسه كل يوم، إنها الشيء الذي لا يدور مع ما حوله هناك يدٌ رحيمة أنجتها بما خففت على الناس. إن العيش بلا ذاكرة مكلف جدًا. أيمكن للشرِّ أن يشمل هذه العجوز الطيبة.. التففنا حول القرية بعد هبوط الظلام ودخلناها من جهة البئر كمنّا في الظلام ورأينا العبدَ الأكبرَ جالسًا على جدار بيت السخط على مسافة من البئر. تخفينا بين الاشجار حتى وصلنا البئر أطللت برأسي عليه كان أغزر ظلامًا من الجهل، ألقيت حجرًا ولم أسمع جوابًا، ألقيت بطرفِ الحبل داخل البئر وأخذت أمده حتى بلغ القاع وارتخى بيدي، بدأت أحركه وأنفضه في انتظار أن يمسك به القاضي لكن لا مُجيب، ألقيتُ حجرًا آخر واستمعت ما الذي حدث له. سحبت الحبل وألقيته مرة أخرى بلا جدوى أشرت للصدق أن نعود. انسحبنا بحذر على ذات الطريق، دخلنا القرية من وسطها ماذا يعني أن لا يجيب القاضي أيها الصدق؟ لا أدري ربما حبسوه بمكان آخر ولعلهم قتلوه فقد اقتنع أهل القرية من قبل بموته ومن سيعلم أن أعادوا قتل ميت. سنأتي غدًا في النهار لنرى إن كان لا يزال موجودًا.

مررت على بيوت شبان القرية وطلبت منهم الحضور صباحًا عند بيت عجوزِ الصفح فوعدوني بالحضور. شعرتُ برغبة نفسي داخلي بالحديث لكني لم أصغِ لها.

استفقتُ في صمت الليل على صوت المتقلب يغني عند النهر على الوتر الأخير من صوته. لكل إنسان وتر أخير خلف أوتاره هو وتر صوت الحمير عادة ما يستخدم في الغضب أو كما هو عنده وقد أوقعه السكر من الحياء فظل ينهق.. لم أعد أشعر بالأمان في الكوخ منذ ليلة الصندوق، حملني النوم بعيدًا عن أفكاري سمعت طرق الصدق على خشب السلم.

حضر الجميع أيها الغريب..حسن قل لهم إن ينقلوا الماء إلى بيت العجوز بكل ما لديهم من أوانٍ.. نزعت ثوبي الموشّى وارتديت ثوبًا قديمًا أرسلته لي العباءة وخرجت لألتحق بالشبان. كان جميلًا أن أرى الليّن وهو ينقل الماء بدلوٍ كبير ينم عن شدة في العظم وكان يبدو عليه سرور التعب.

دخلنا لبيتِ العجوز الذي ظلت النار تلتهمه ببرود على مهلها لأني شغلت أنا والصدق بعلاجها عن إطفاء النار، فلم تبقِ منه شيئًا إلا الجدران. كانت طاولة إعداد الأدوية الكبيرة احترقت وكذلك الرفوف وسرير نوم العجوز والأبواب وفرش المنزل وصناديق الأعشاب، وأواني الأدوية المعدة، بدأنا بإخراج كل الأشياء المحترقة ومسح سخام الجدران وغسلها وتنظيف الأرضية وكنس ركام الحرق.

حتى أعدنا المنزل لحالته الأولى لكن من غيرأثاث، وكانت همة أبناء الخياط وحبهم للمساعدة شيء يؤكد أنّ هذه القرية ما زال بها من الخير وما زال الأنقياء الطيبون فيها حتى لو ملأتها التشوهات وكثُر المسيئون فيها.

جلسنا نتحدث داخل البيت عن كيفية جلب الأخشاب وصناعة آثاث جديد للبيت، حين سمعنا صوتًا ينادي يا شبانَ القريةِ يريدكم الحكيم صدفة.

فاجتمعوا في الساحة، إنه صوت العبدِ الأكبرِ.. خرجنا ووجدنا أهلَ القرية مجتمعين حول الحكيم صدفة.. إنه القاضي.. انظروا.. انضممنا للناس ونحن مشدوهين ورأينا القاضي يقف بجانب الحكيم وقد صار نحيل الجسد، كان أهلُ القرية يحمدون الله على سلامته وهو يرد عليهم ببرود وكأنه كان راضيًا بقتلة مرة وحبسه أخرى.

يا أهل القرية تحدث القاضي، رأيتم أنّ الصديقان المخلصان السخط المتطور والشيخ كذب عثرا على جثة اعتقدا أنها جثة القاضي، وتذكرون أنهم وجدوا قربها عصى ظنوا أنها عصى القاضي، ووجدوا وشاحًا حسبوه وشاح القضاء وصدرية الجلد أيضًا، فأعلموا أنها لا تعود لي وقد تصادف هذا مع غيابي عن البيت فأخذهم الظن أنّ هذه الجثة تعود لقاضيكم، وقد ضربتها صاعقة وأحرقتها بالكامل في ليلةٍ ممطرةٍ شديدةِ البرقِ والرعدِ.

ولأني أعرفُ مدى إخلاص هذان الصديقان، فلا يخطر لي في بال أنْ يأتوا بكذبٍ وافتراءٍ عليكم حول مصيري.

وإنما هي الصدفة أنْ يتصادف بحثهم عنّي بوجود جثة محترقة اعتقدوا إنها تعود للقاضي ولأنهما مقرّبان مني بحدٍ كبير ويعرفان مدى استيائي مما قالته المرآة ذلك اليوم، وبالغت بإهانتي، فقد ذهبا إلى أني ربما أكون انتحرت بسبب إهانتها.

ولا لوم عليهما في ذلك، واعلموا أيها الناس أن ما حدث لي كان أني حاولت اصطياد الحمام في البئر القديمة في ظلمة الفجر من غير أن يعلم أحد بهذا حتى ابنتي.

فوقعت في البئر بخطأ مني، ولولا جدية الشيخ كذب في البحث عني لما عثر أحد علي من أهل القرية.

كان الشيخ أوصى العبدَ الأكبر بالبحث عني بكل مكان فهم لم يصدقوا بحادثة موتي منتحرًا، ووجدني العبدُ الأكبرُ وقد كُسرت رجلي عند سقوطي في البئر، وأخرجوني في الليل إلى منزل السخط القريب، وكنت طوال هذه الفترة أتلقى علاجي غير قادر على الوقوف على قدمي. ولعل عجوز الصفح تتذكر أنُ السخط ذهب إليها لأكثر من مرةٍ لجلب الدواء وعلاج الكسر، ولم يشأ السخط إخبار أحد بالحادث حتى أتماثل للشفاء وأخرج إلى الناس، واليوم خرجتُ لكم بتمامِ عافيتي لينفي وجودي لبس حادثة الانتحار.

ما هذا الذي يقوله القاضي هل باع هذا الرجل نفسه لهؤلاء همس الصدق.

ورددت عليه يستشهد بعجوزِ الصفح التي تنسى. وأكمل القاضي وقد استدعيتُ الحكيم صدفة مع كتاب المنهاج ليشهد حسب ما طلب منكم من قبل تتويج أمير للقرية حسب شروط المنهاج، وقد حرصتُ على اختيار شخص قادر على مسؤولية الإمارة يكفل تتويجه استقامة أمور القرية وتعافيها من التشوهات.

اليوم يا أهلَ القريةِ ستشهدون اختيار أميرًا لكم، تكون به القرية أكثر قوة وقدرة على مواجهة الأخطار الخارجية وحماية مصالح أهل القرية، وانتظام شؤونها. اخترت لكم أفضل شباب القرية وأقواهم وأقدرهم على الحكم .

تقدم أيها السخط المتطور.. شاهت وجوه الناس بين القاضي والسخط. الذي خرج ممتطيًا فرسًا هزيلًا موطئًا رأسه وكأنه يشعر بحمل العار. وعلى شوك شعره تاج أحمر من النحاس وسلسلة بدائرتان ومعاضد من الجلد وعصى تصلح للرعيان أو ناقري الطبول، ووجهه الحقير يفضح شره كما تفضح العاهرة ضحكتها. لكنه يرتدي ثوبًا موشّى كثوبي تمامًا.

أيُعقل أنه أجبر الخياط على إعطائه ثوبًا كهذا يكذّب صفاته!.

ياللمهزلة كيف يصبح ابن الجارية أميرًا!.. تقدم السخط بفرسه ووقف أمام القاضي والحكيم صدفة.. ضج الناس بالحديث الخافت يعترضون على ما يجري.. أسكتهم صوتُ القاضي، يا أهل قرية الأمنيات ها هي أمنيتكم تتحقق بأن يكون لكم أمير منكم يمثلكم ويخرجكم من الظلال إلى النور، من التشوّه إلى السلامة.. أُعلن لكم وِفق قانون ومنهج آباءنا المتمثل بأختيار أمير للقرية حال غياب أميرها عن تنصيب السخط المتطور أميرًا على القرية، له عليكم الأمر والطاعة والتصرّف بالمُلكِ وسكن القصر وامتلاك إرث الأمير السابق، والقضاء بينكم في أموركم.

ويحق له التحالف مع من يرتأي من القرى المجاورة ضمانًا لقوة القرية ومنعتها وتعيين مستشارين خاصين لإدارة أمور القرية وإصدار التعليمات والأوامر، وإصدار الأحكام والعقوبات بحق من يخرج على امارته، واختيار حاشية تليق بمقامه.

ووفق هذه الصلاحيات أكلف الحكيم صدفة بقراءة شروط المنهاج.

فتح الحكيم كتابه وأخذ يقلب صفحاته وتوقّف. وقلّب وتوقف مرة أخرى نظر إلى رصيف الورق.. غير معقول ما هذه الجرأة!.

ما بك أيها الحكيم، صاح السخط..

أيها الناس.. صاح الحكيم، لقد انتزعت الصفحات الخمس الخاصة بمراسيم تنصيب الأمير التي تتضمن شروط تنصيبه. تجرّأ أحدهم على منهاج الآباء ونزع منه الصفحات الأهم.

وماذا تريد هذه الشروط لتنصيب الأمير اكثر مما لدى السخط المتطور؟ تريد أن يلتزم الأمير أولًا بهذه الشروط قبل غيره، ويجب أن يكون اختياره مستحقًا حتى لا يتسبب بتشوّه القرية أكثر مما هي عليه.

هل تحاول أيها الحكيم أن تحمّلني مسؤولية تشوّه القرية وهي تتشوه كل صباح بما يفعله الناس بأنفسهم، فهل الأمير وصيّ على أعمالهم؟. هذا الشرط مرفوض أيها الحكيم.. أليس كذلك أيها القاضي.

نعم.. نعم، أجاب القاضي بخنوع. إنّ بقاء القرية بلا أمير هو التشوّه بعينه.

وماذا إن بدا التشوه على أبناء القرية في الغد أيها السخط ؟ لن يكون تشوّههم جديدًا، وما الشرط الآخر أيها الحكيم؟ الشرط الآخر قال الحكيم بإحباط، أنْ يكون مظهر الامير وِفقَ جوهره وأنْ تتمثل ثيابه صفاته.

لا اظن أني بحاجة للرد على هذا فأنت وغيرك ترون الثوب الذي أرتديه، وسلّ السخط سيفه وشهره أمام الوجوه، وهذا السيف هو الفيصل بيني وبين من يخرج على إمارتي. ومن يتسبب بتشويه الناس فسأُطعم رقبته لسيفي.

أرى أنك تبالغ بوضع الشروط أيها الحكيم، ولوّح له بسيفه وجرّ شفرته على يده ..

إنها الأمانة أيها السخط، أمانة القرية بكاملها وأنا لن أرضى بك أميرًا إلا باستيفاء الشروط، يجب أن تعثر على المرآة وتقف أمامها وامام الجميع فإن أخرجتْ بكَ عيوبًا فلن تصبح أميرًا ويجب أنْ تعيد الصفحات المنزوعة من المنهج، وتنصَّب وِفقَ موادها، كما أنّ عليك أنْ تنام في الكهف فإن حدثتك عينُ الجبل، فستملك السر للوصول إلى الإنسان الذي يؤهلك لإمارة هذه القرية المريضة.

أنت تضع العراقيل أمام تنصيبي، اعلم أنّ وقوفك لوحدك بالضدِّ مني سيكلفك النفي من القرية وما أنت إلا واحدًا من القرية ولست أمينا عليها، لن نوقف مصلحة القرية على قبولك، كان علينا أن لا نأخذ برأيك ونضع لك اعتبارًا لا تستحقه، كما أنك قد خُنتَ أمانتك من قبل أنْ تتحدث عن أمانة القرية.

وقد أضعتَ المرآة التي أُتُمنت عليها وتركت الناس تتخبط بالتشوّه، والآن جئت لتقول لنا أنّ صفحات كتاب المنهاج انتُزِعت، فأين كنت حتى يحدث هذا.

وما دُمتَ لم تحفظ هذه الصفحات فلا يحق لك مطالبتي بإتمام الشروط.

وأنت لم تتم شرط حفظها من الضياع. ولا أظنُ أنّ حكمي سيكلف القرية خسائر أكبر من الخسائر التي تسببت بها أنت.

أيها الناس إني أعفي بقرار أميري الحكيم صدفة من مسؤولية مراسم التتويج وأعين القاضي أمينًا عليها بدلًا عنه حفظًا للمصلحة العامة. ما قولك أيها القاضي؟.. نعم سيدي الأمير..

يا أهل قرية الأمنيات.. أُعلن لكم السخط المتطور أميرًا بتمام شروط الإمارة تجب له الطاعة ومن لا يلتزم فسيعرِّض نفسه للعقوبة، عقوبة تجاوز الحدود، منذُ الساعة، السخط المتطور أمير هذه القرية والآمر الناهي فيها اذهبوا إلى أعمالكم واجتهدوا في خدمة الأمير.

توقّفوا صاح السخط بالناس.. اسمعوا لبعض القرارات التي أصدرتها، لا يُسمح لأحدٍ أيًا كان بالتعدّي على أملاك الأمير إلا ما قام الأمير نفسه بتوزيعه على الأهالي، وبموجَب هذا يلتزم عمال الأمير الفلاح والراعي بمنع التصرّف بأي شيء، والقرار الآخر أني سأُبرم اتفاقية مع ملك قرية التعدّي تحصل بموجبها القرية على حُراس لحمايتها وحماية ملك الأمير، وهم فرسان من خاصة الملك يقيمون بيننا مُعزّزين مُكرّمين لهم كامل الصلاحية بالتصرّف وفق ما يقتضيه أمن القرية.

والقرار الآخر سيحدد الأمير في حال عثرنا على المرآة شخصًا آخر غير الحكيم صدفة يكون مسؤولا عن إيقاف الناس أمامها.

كما أنّ على الحكيم أنْ يسلّم كتاب المنهج إلى القاضي بعد إعفاءه من هذه المسؤولية. والأمر الأكثر أهمية، هو أنْ من لا يخضع لأوامر الامير سيُحبس في البئر القديمة بلا ماء ولا طعام، كما أني سأعمل على بيع كل من أرى به تشوّهات كثيرة إلى تاجر البراءة صغيرًا كان أم كبيرًا.

كما أني سأنقل سكني إلى القصر حيثُ مقرّ حكمي، فمن كان لديه شكوى فليأتي إلى قصري الآن، بإمكانكم الانصراف، وساق السخط فرسه الهزيل باتجاه القصر كأمير على قرية لم تعُد تملك من أمرها شيئًا.

أكان من الضروري أيها الحكيم أن تعلن عن حاجة القرية لأمير؟ وماذا أفعل أيها الغريب؟، أتظن أنهم لو لم أُعلن عن حاجتها سيقفون على هذا، لقد اعدّوا كل شيء مسبقًا، ولم يبق لنا إلا التسليم بالواقع.

أنت أيها القاضي كيف ترضى بهذه المهزلة؟ لقد تمّ أمر الإمارة، والسخط الآن هو الأمير وهذا خير من الفوضى وأنا معه فيما يفعل لمصلحة الناس.

لم يبق في هذه القرية المريضة من يعوَّل عليه بخير. وأنت أيها الكذِب لم تقل شيئًا منذ حضرتَ ولم تعترض!.. ولماذا أعترض إنّ إمارة الأمير سخط خير من الفوضى وأنا لم أفعل إلا الصواب وأنا معه فيما يفعل.

انصرف الجميع واحتضن القاضي ابنته وهي غير مصدّقة لما يحدث، وقد وجدت أبيها، أمّا أنا فأشعر أني فقدت شيئًا لا يُعوَّض، وأشعر أنّ القهر يقطّع بلعومي. اليوم الذي يشهد تخاذُل القاضي وتهميش الحكيم وقهر أهل القرية وتنصيب السخط، وفوق هذا أنه سرق ثوبي الموشّى ليتباهى به ويظهر كأمير.

ما كان عليّ أنْ أخلعه وأعطيه هذه الفرصة، كان هذا الثوب بمثابة الدافع لي لتسوية باطني بمظهره الوقور لم يعُد الخضوع بالأمر الجديد على القرية، الآن ستعبث هذه العصابة بها كما تشاء بعد حصولهم على السلطة بشكل رسمي. أمسكتني نوبة ألم الفقدان وهزّتني بشدة، ثم هدأت وحلّ السُبات بجسدي، كما حلّ بالقرية بعد تلقّيها صفعة الإمارة. سينقلب المزيد من رجال القرية تبعًا لمصالحهم لقبول هذا الحكم المشبوه، فإن

حظوا بشيءٍ من الامتياز، فلن يعنيهم حال الناس وإن لم يحظوا سيبقوا صامتين بلا موقف حتى في داخلهم. كأن خضوعهم في انتظار الأمير صار حجة لوجود أمير زائف، جمعت شُبان القرية، وخرجنا لتقطيع الأخشاب من الغابة وأقمنا ورشة لصناعة آثاث جديد لبيت العجوز. أتممنا الطاولة الكبيرة وأدخلناها وثبّتنا الرفوف.

وانفرد أبناء الخيّاط بصناعة الأبواب، واختص الليّن الجسد بصناعة التخت والكراسي.. هل تذكر أيها الليّن حين تعرّفت عليك، وكنت تجلس على كرسي كهذا الذي تصنع، كيف كنت تبدو كالكراسي التي وضعت فوق بعضها.

أذكر هذا أيها الغريب، لكن ليس بعد اليوم أنا الآن امتداد لنفسي وليس للأشياء.

فيما كانت حاشية السخط تعمل على نقل آثاث منزلة إلى القصر وكأنهم يهدمون ما نبني.

تعال معي أيها الصدق لنذهب لزيارة العجوز ونطمئن عليها.

طرقتُ بيت العباءة فُتح الباب فإذا بامرأة تنظر باتجاهنا مباشرةً، لا يبدو على عينيها ضياع العمى، طويلة القامة لا يظهر منها سوى عينيها تتشح بالسواد بعباءة فضفاضة، وإذا حسبنا سواد عماها تكون قطعة من السواد، لم أرَ بحياتي حدقين بهذه السعة، بقيتُ صامتًا أنظرُ إليها ولا أظنُ أني رأيت عينيها فقط .. أنت أيها الصدق، قالت بصوت به تهدج رخيم.. ومعي الغريب.. مرحبًا بكم،، تفضلوا بالدخول.. وسارت داخلة، كأن بصرها بأقدامها تسير بثقة لدرجة أنّ العمى لا يستطيع الظهور عليها.

كيف حال عجوزنا الطيبة..أنا بخير ما دمتم حولي، العباءة تعتني بي بعد ذهاب ابنة القاضي.. وكيف حال جراحك؟.. أصبحت باردة وذهبت حرقتها، إنها تجف بسرعة.

أنا وشبان القرية نعمل على إعادة منزلك، سيكون خلال أيام جاهزًا لعودتك وبأثاث جديد .

حقا.. شكرًا لكم يا أعزائي، رغم أني في مرض، لكني سعيدة بوجودي مع العباءة، لكن إعادة الأدوية يحتاج لوقت أكبر.

أصبحت القرية بحاجة أكثر للأدوية .. أخبرتني العباءة أنّ السخط نُصِّب أميرًا، ستواجه القرية أيامًا عصيبة، بالأمسِ كانت الآلام في جسدي وغدًا ستكون في، نفسي على ما سيحل بالناس، سيتحمل الناسُ ثمن سكوتهم.

حسنًا لنعُد إلى العمل أيها الصدق، سننتظر نهوضك من الفراش أيها العجوز وسأخبرك حين يصير منزلك جاهزًا.

بقينا نعمل لساعة متأخرة من الليل حملني التعب على غفوة صافية لا يهمس أحد فيها داخلي. كان ذلك الصباح الأول على تولّي السخط، خرج الناس يرون بعضهم تشوهاتهم وقد أصابت كل أهل القرية بشكلٍ لم يسبق له مثيل، لكنّ أكثر ما أثارني هو أنّ أهل القرية أُصيبوا بالتصلّد ولم يعُد جوهرهم يبدو لبعضهم، لقد فقدوا الرؤية داخل بعضهم وتصلدت طينتهم، إنها مرحلة خطيرة من العمى. يبدو أنهم فقدوا الروابط بينهم حتى لم يعُد أحد يرى جوهر الآخر. احتفى بعضهم باستتار نفسه

وجوهره عن الآخرين رغم خروج كلِ التشوّهات على جسده.. إنه القيد والرابط الذي كان يوحّد موقفهم حين تخلّوا عنه أصبحت نفوسهم في عزلة وأصبحوا يرون أنهم تحرّروا من اطّلاع الغير عليهم، ولسوف تتفرق مواقفهم تباعًا. لم يكن لديهم من تأويل لما حدث سوى أنّ اختيار الأمير الجديد عاد عليهم بفائدة التصلُّد والتحرُّر من أثرِ الآخرين، وخفاء الجوهر الآن بإمكانهم أن يضمروا ما يشاؤون دون اطّلاع أحد وبإمكانهم تولّي أمر أنفسهم دون حساب أحد أو الابتلاء بذنوبه.

لن يعرف أحد الآن لِمَا تشوّه ظاهره ولن يعرف البقية أيضًا.

أصبح الهمّ في الظاهر هو شغلهم الشاغل ورأى أخرون أنّ نقمةً حلّت بأهلِ القريةِ إذ انحلّ ارتباط كل فرد عن مجتمعه، فلا يعنيه تشوّه الناس ولا يوجعهألمهم.

وكل هذا بسبب عدم استحقاق السخط للإمارة فكانت دالة ادعائه التي ظهرت في تشوّه الناس ثمنًا لخطأهم في الاختيار. وأنهم لن يروا بعد اليوم داخلهم سببًا لتشوه ظاهرهم الآن سيقع التنافس بينهم على المظاهر، غير معنيين بخراب نفوسهم، أصبحت أهدافهم مادية وسقط المعنى من حسابهم. لا أحد سيضع القيمة في ميزان سلوكه. سيستغرق سعيهم على القِيم المادية تنافس المال والملك والمظهر، وتراجع تأسيس النفوس بالقيم وانحلال مقاييس المروءة وغلَبة مقاييس التقليد والتظُاهر والتفاخُر بتحصيل المكانة المادية. والتخلّي عن المكانة المعنوية والانشغال بتأثيث البيوت بأفخرِ السلع وإهمال تأسيس النفوس بالمبادئ والقِيم والسعي الأعمى لتحصيل الملذات والتفاضُل في عبودية المادة.

قضيت وشباب والقرية أيامًا في العمل على صناعة آثاث المنزل، وبعد جهد أعدناه بأفضل مما كان عليه، وعادت العجوزُ إلى بيتها بعد تعافيها من جراح النار. واتفق الجميع على الخروج إلى البرية مع العجوز لجمع الأعشاب التي تحتاجها لإعداد الأدوية ومساعدتها في إعدادها.

هيا أيها الغريب لقد تأخرنا.. العجوز والآخرين بانتظارك سأسبقك، ارتديتُ ثوبي الجديد حسرةً على ثوبي القديم. خرجتُ من الكوخ ولفت انتباهي أنّ غراب السخط يحُط على سقفه. نزلتُ السلم وتمشذيت لحقلي الصغير كانت المزروعات بدأت تزهر، علامةً على قُربِ الثمار. اجتمعنا عند منزل العجوز وسارت أمامنا تشير إلينا نحو البرية حيث نجد الأعشاب الطبية. قالت لنا: إنّ بعض الأعشابِ من هذه البرية، وبعضها تُجلب من الغابة وأخرى من وادي التجارب. رأيتُ الصدقَ يمسك بيد العباءة ويتبعنا، أسعدني خروجها معنا، كما أحزنني أن عينيها تعيش بليلٍ دائم. كنا نلقط أي عُشبة نراها ونعود للعجوز فتخبرنا أنها ليست دواءً فنرميها ونقتلع غيرها. وهي تقلع نبتة وتشير لنا أنْ نبحث عن مثلها وتشرح عن استخدامها وماذا تعالج. كان الصدق طافحًا بالبشر وهو يجلس مع العباءة ويحدّثها وهي تبتسم له وتمسح رأسه. والعجوز تجمع وتصنّف الأعشاب وتشدّها بخيوطٍ إلى حزم.

وكنتُ أستمع إلى نقاشات أبناء الخياط أصحاب الرؤية ودقة ملاحظاتهم، وتثير اهتمامي طريقة تفكيرهم ورؤيتهم للأشياء، إنهم شُبّان مُميزون.

لا أدري لِمَ تدفعني رؤية العباءة للتفكير في أمرها وفي عماها. هناك حديث يدور بيني وبينها من غير أنْ نتكلم، أشعر أنها ترى اهتمامي وتشعر

أني أرى تميّزها، لكن فيما يكون لا أدري. إنْ كان هناك من يكلم روحك فإنك ستسمع حتمًا ويقفز ذكره إلى ذهنك.

كم يشغلني عماها وكم يصعب عليّ تصديقه.

لقد نسي الليل حجران من ظلمته في عينيها. أشعر أنّ لروحها نظر يفوق المُبصرين. ما أقل مبصري العمى، وما أكثر عميان البصر. هناك من تستكثر حتى سقوط النور على وجهه لشدة عماه.

أمسك الصدقُ بيدِ العباءة وعُدنا خلفهم نحملُ الأعشاب. وكأن العجوز كانت تلبس جلد النهار عوَض جلدها المُحترق. وكأن نفسها تستحم بالأمومة فيسقط عنها درن الإساءة.

استقبلتنا الكادحة الولود توزّع الحلوى وتزغرد وكأنها حضرت عُرس أمها، تبشر الناس أنّ زواج ابنتها الأميرة من الأمير سخط سيكون في الغدِ وتدعونا إلى أفراحها. وتنتقم من مشاعر الذُل الطويلة بتغيير وجهها لوجه السخط المتطور. الآن ستنام غايتها لوطئ السيادة، وتورث ابنتها كدح المجد الزائف، يشاركها العبُ الأكبرُ بتجديد عهد عبوديته، وينتظر ابن الكادحة الأكبر دوره بالانضمام لحاشية الأمير وهو يعلّق الزينة على منازل القرية.

دخلنا بيت العجوز نعمل في طحنِ الأعشاب وتقطيعها وغليها ونضعها في صندوق كبير حيث تأمرنا.

الضجة والعمل وصفاء النفوس والمحبة الخالصة وأدوية بمختلف الروائح.

ما بك أيها الغريب آراك كثير التفكّر هذه الأيام؟ ألا يستحقُ ما نحن فيه التفكير؟ سيكون لهذا الحال ما بعده يا صديقي فلا تحزن، أيُعقل أنك حزينٌ على ثوبك، لا.. الأمر لا يستحق فنحن من نملأها وليس العكس، إنما يغيظني أن أرى صفاتي على غيري، يغيظني أن يكون العالم بيد الأدعياء.

رأيتك تطيل النظر إلى العباءة أيُهمكُ أمرها؟..

بلى أيها الصدق.. هناك أسئلة كثيرة بشأنها، أودُ لو عرفت عنها أكثر.

إنها امرأة غامضة، لو لا ارتداد أنفاسها لكان الصمت يُرى على هيأتها. إنها مقرّبة من العجوز وهي تعرف عنها أكثر من غيرها. وكما ترى فالعجوز مقبرة تُعيد كلَ شيءٍ لترابِ النسيان.. بالمناسبة جاءت القلبُ الأبيض تزور العجوز وتطمئن عليها. ربما هي أيضا أُصيبت بحروق ولم تكن محظوظة بقدرِ العجوز.. كُف عن غمزك أيها الصدق. ربما كانت تحمل أخبارًا من القصر.. الكوخ ليس بعيدًا ولعلها لم تأخذ الموضوع على محملِ الجد.

وربما لم تجد أمرًا مُهمًا يستحق الإخبار ..ربما.. أنا في غاية الإرهاق أريد الذهاب لأستريح..

نهضتُ خارجًا وأنا أشعر أنّ جسدي يسير ورائي مُثقلًا. إنه الهم وليس التعب، إنّ للهمِ ثُقل العداوةِ على النفس. لعل همتي هذه الأيام لا تبلغ حتى تحمل التفكير.

إنه الإحباط من يسقطك في داخلك.

وإنه شتات الأمر، إنّ النهوض بالنفسِ أثقل من النهوض بحجارة جبل، ليتني أعيش مفردًا أختصر مشاعري على ذاتي، أُغلق نفسي أمام همّ

الآخرين ومسؤوليتهم. ولكن ما تكونُ قيمتي وقتها.. لا شيء.. اقتصار الهمّ على الذات خيانة للفطرة، إنه حديث التعب، من يرى فكرة التخلّي وهذا الرأي. الأنانية أنْ لا تعطي من نفسك مقدار همّ على الآخرين. وأكاد أرى أنّ للأناني لحم خنزير لا يصلح حتى لأكل الغيبة. ولا شك أنّ استئناس الناس ببعضهم لا يكون في المسرّات فقط، وإنما في أسى الهمومِ والأوجاع.

ليت وحدة الألم في الأجسادِ تكون في المجتمعات.. ظلت الأفكار تضرب جدران صدري يأخذها طريق أنفاسي فتخرج بحرارة القلب. تتنازعني الخواطر وأخرج بحصيلةِ قدمٍ وطئت شجيرة شوك. هذه البلدة الصغيرة المشوّهة تريدُ أن تصل لأقصى مستويات التشوّه لتليق بهذا العالم. وتدفعني للتساؤل هل ما حدث في بلدك حدث في نفسك؟ لماذا عليك أن تعيش وداخلك دوي مجتمع كامل بينما الآخرين يتخلّون حتى عن عيش ذواتهم. وليتهم يدخلوك بطيبهم وحُسن خلقهم ورقيهم، إنهم لا يدخلوك إلا ويذكّروك بآلامهم وهمومهم وقهرهم، وعليك أنْ تجمع هذه المُهلكات وتبني بنفسك موقفًا منتفضًا لهم بالنيابة عنهم.

عليك ان تعيش وأنت كلُهم، وأنت حصالة همومهم.

يسفّهون أنفسهم ويستمتعون بجهلهم بعيدًا عن منغصات حقوقهم، ويتكلون عليك ان تكونهم وتكون نفسك.

عليك أن تعيش نفوس من مُسخوا لتعيد طبيعتها وأنت لم تُعطِ القوة على العيش بنفس مجتمع إلا لتحمل هذه المسؤولية. ان كانت نفسك ملجأ يقيهم الجور فعليك ان تُأمنهم وتخرج بهم للمواجهة.

الأناني من يقتل إنسانًا لم يجد الأمان إلا في قلبه.

وأنه أمر غاية في النبل أنْ تكون من مستلزمات عيش غيرك. تعلم أنّ هذه الحياة ليست إلا أدوات للتعذيب، لعل هذه القرية تحمّلني ما أستحق، ولعل عجزها هو استصراخ لهمتي في النهوض بها لم أعُد أستطيع أن أعيش بمعزلٍ عن همِّها. إنّ قدري أنْ أكون بأكثرِ من مجرد ذاتي. أُناس تلجأ إليك وآخرون يطاردونهم داخلك. ولو أخرج الناس الوحوش التي داخلهم لفرّت الإنسانية للغابة.

هكذا هي الحياة.. مشروع إذلال، وأنْ تعيش يعني أنْ تتمادى في الذل، وما كنت تأنفه بالأمسِ ستتألفه، وما رفضته عزتك ستخضع له تحت طرق الأيام.

أنت في الواقع لا تزهد الحياة وإنما تزهد مقارعتها. ستنفذ قدرتك وطاقتك وتلين لسطوة الأقدار. وأنّ مهمة بُلداننا هي أنْ تهدم أحلامنا وتمُنّ علينا بالظروفِ الكافرة لتختبر إيماننا. وأنّ الله لم يعُد ينتقم من الناس بأكثر من الناس. وهذه النفوس لم تعُد تؤازرني إلا بإلقاء مسؤوليتها عليّ.

وأنا أعاني عبء نفسي، لم تعُد نفسي صالحة للبشر.. انتهى أمدُ الحياة داخلي.

أنا الآن أعيش تحت ظلم وجودي. إنهم يتركون أنفسهم في العراء ويخلون أجسادهم من همّ قيمتها ويعيشون خارج ولائهم غرباء عابرين. هذه النفوس لم تُخلق للأقفاص وقيود المكان. فلا حاجز يمنعني من تحمّل همَّ الآخرين فكيف لو تخليتُ عن همّ نفسي.

أظن أنّ الظلّ خلفنا هو مخزن همومنا وأوجاعنا يعيننا على ما فاض عن طاقة أجسادنا فاحترق بها وصار أسودًا..ليس مُهمًا أين تعيش، المُهم أين يعيش ولاءك.. داخل الوطن أم خارجه.

أغلقتُ فمَّ ضميري وخرجت روحي مع نفس الغفوة.

كانت ليلة ثقيلة تركت جسدي خائرًا. حمّلني النهوض المتأخر عبء فوت الصباح. كانت الشمس تغمض عينها بجفنِ الغَيم وتفتحها على صحراء الضوء.

جلست على السلم، أحتضنُ وجهي بكفي و،نظر، ما الذي أنتظره من هؤلاء القوم الذين ارتضوا بالأمسِ تنصيب السخط، كنت أنتظر كانتظارِ الروح عند رأس صاحبها ليخرج بها للخلاء، هناك من لا ينهضون لسقوط الأشياء داخلهم، أخذت نوبات الألم تتردد وأنا أرى زفاف القرية لعيوبها، نظرت لمنحوتات البيوت ما زالت المنحوتات تدعو وكفّ سكانها عن الدعاء.

يعلقون الزينة ويكومون الأحطاب لطبخ القدور الكبيرة ويضجون بحركتهم، إنهم فرحون بخداعهم وإني لأشعر بالحزنِ على فرحهم.. أخذت المجرفة لأفتح الساقية لسقي الحقل لكني صُعقتُ حين التفت إليه، أسرعتُ نحوه ما هذا؟ هل بلغت نذالتهم حدّ تدمير الحقل. إنها آثار خيول داست المزروعات وجعلتها هشيمًا وآثار دواب أخرى أكلت الزرع وداسته، لا شك أنّ قطيع الراعي مرّ من هنا وأتلف الحقل.. أهذه هدية العُرس للقرية! أنّ يدمر الحقل الذي أُعده لإنقاذها من حرمانِ الزمرة

الفاسدة التي تستأثر بكلِ شيء إلا الشرف. شعرت بغيض شديد وكأن الألم المصاحب لجسدي جلب صديقًا مقربًا وهو الندم على تحمّلي وعدم الوقوف بوجه هؤلاء الأنذال.

في حالة الألم تأسى عليك جوارحك وفي حالة الندم تنهشك جوارحك.

دخل الغرباء القرية مع دخول الغروب ومظاهر العُرس، مشاكسة الأطفال وتجمّع النساء وحلقات الغناء والتصفيق وضرب العبد الأكبر على الطبل، وتوزيع الحلوى ورائحة قدور الطبخ ومواقدها، دخل الفرسان الخمسة بخيولهم يرتدون ثيابًا فاخرة وأحزمة مدججين بالسيوف والأقواس والنبل يحملون صندوقًا صغيرًا، ما يبدو أنه هدايا السخط. ترجّلوا عن الخيول واستقبلهم الشيخ كذب وأجلسهم على الكراسي. ومع دخول الظلام قام الفرسان باستعراض إطلاق السهام النارية، التي كانت تقع قرب كوخي ويأخذها الأطفال وأنا أنظر إليهم من السلم، وأشعر أنّ سهامهم تنغرس في صدري، وحوافر خيولهم تدكُ أظلاعي..

حضر أخيرًا السخط على فرسه الهزيل بثوبي الموشّى وتاجه الأحمر الرخيص.

نزل بين الناس المجتمعين وقام الفرسان لتهنئته وباقي أهل القرية، والقرية مضيئة بالنيران، قام السخط وصاح بالناس: يا أهل قريتي لقد تفضل هؤلاء الفرسان بالحضور لعرسالقرية ، وهم في ضيافتي اليوم، وأما في الغد فإنهم أمناء وحرّاس أمن القرية، بتصريح كامل من الأمير، وسيكونون جزءًا من القرية وحُماتها ومن أهلها وحاشية أميرها، وسيقيمون في منزلي

القديم إكرامًا لهم.. قطعت كلامه زغاريد الكادحة وتابعنها نساء القرية، فأمر السخط العبدَ الأكبرَ بسكب الزاد وتقديمه للضيوف. هذه المرة سيتذوق الراعي طعم قطيعه والفلاح ثماره بإذن أميرهم، وستشبع القرية الليلة لتجوع غدًا، سيدفعون ثمن هذا العُرس باهظًا. وهذا بادٍ على وجه القاضي الذي يتصنّع الابتسام بذلٍ جلي. وسيرون غدًا من الجور بقدر ما استراحت عينا العباءة من رؤيته وهي تجلس بعيدًا عن الناس على كرسي بباب بيتها.

وكما رأى الحكيم صدفة يوم اعترض على قبول السخط واعتزل العرس جالسًا على السفح مع الخياط وأبنائه الثلاثة..

تقدم أحد الفرسان للسخط بالصندوق فتحه وعرضه أمام عينيه، وأخذ السخطُ يقلب داخله، أغلقه وحمله ونادى على ابن الكادحة أنْ يأخذه.

بعد قليل تعالت الزغاريد بباب الكادحة وهي تمسك بيد ابنتها العروس، تقدّم إليها السخط وأمسك يدها وسارا بين الجموع المصفقة والمتهللة واقترب العبدُ الأكبرُ بفرسِ سيده السخط وإلى جانبه ابن الكادحة قرّب الحمار لركوب الأميرة الكادحة، حملها السخط ووضعها على ظهر حمار السيادة، واعتلى فرسه واتجها إلى القصر تزفهم الجموع والأغاريد.

هل ستظل جالسًا هنا تكتفي بالمراقبة. لقد سلبوا حتى ثوبك. إنْ كانت كرامتك بلا حدود تنتفض عندها فإن صبري بحدود.

هل تريد إهانتي أيها الصدق؟ لا أيها الغريب. حال القرية هو من يهينك، وتعدّيهم عليك وعلى أهلها هو من يهينك، وكل ما نعانيه إهانة لك أنْ بقيتَ على سكوتك هذا، فستسقط من نظري.

لكنّي أطمأنك أنّ الأعزّاء يسقطون من نظرنا على سرير الإنقاذ.. ولطّف كلامه بابتسامة.

لا تثقل عليّ أيها الصدق فإن بصدري حممًا تتردد.

سنرى إنْ كانت حممًا أم زبدًا.. وساد صمت بيننا أطبق فيه الظلام مع الكلام على نفسي وأصبحت أنفاسي تفرّ من حر صدري.

ما هذا الصوت؟ جرينا لساحة القرية..كان اثنان من الفرسان يتعاقبان بالسياط على جلد دلو الكلام وهو يلوذ بواحدٍ عن جلد الاخر. والسياط تكوره وترتد نازعة جلده. وهو يتوسل سيدي لم يكن قصدي، أنا مجرد لغو مجرد كلام بلا رأي ولا فعل. ولا يجديه التوسل أمام هطول السياط .أيها الحقير صاح به الفارس الضخم نحن أولى بالقرية من أهلها. وهوى عليه بالسوط والسؤال معًا من هم أسياد القرية .. أنتم سيدي أنتم.. وأنت ؟ من تكون ؟ أعقبه الآخر بالسوط.. مجرد عبد عندكم سيدي. مجرد عبد. رمى الفارس القصير سوطه ولطمه وركله فأسقطه أرضًا عند جذع أحد الأشجار حيثُ كان الأطفال يجمعون ثمر الريح القوية . أنهضه الفارس ودفعه على الجذع وكتف الآخر يديه خلف الجذع وربطها وهو يستصرخ.. أيها الجبان تتجرأ على أسيادك، لم أتجرأ سيدي كانت زلة لسان، فلطمه الضخم على فمه وأكمل القصير بلكمة في بطنه.. انحنى الدلو فأمسك شعره وصفعه بشدة.. من هو الذليل أنا سيدي.. هل هناك من يعترض على وجودنا.. لا أحد سيدي لا أحد.

كان بعض أهل القرية يتفرجون خلف الفرسان وكنا مثلهم نراقب من الظلمة القريبة. ظلّ الفارسان يضربان الدلو ويهزءان بأهل القرية. حتى

جاء العبدُ الأكبرُ.. وقال للفارس الضخم سيدي دعه لي، أنا سأُدبه لا تلوّث يدك به، أمرني الأمير سخط أنْ أتولى جلده بنفسي، إنّ تاديب أمثاله مهمتنا نحن حتى يعرف هو وغيره حدودهم، جلس الفارسان يتفرجان ويضحكان والعبدُ الأكبرُ يجلد الدلو بعنف الحقود..

الرأي رأي أسيادك أيها الوضيع كيف تجرؤ على إبداء رأي ليس من شأنك، ألا تعرف كيف تلزم عبوديتك والدلو يصرخ، إنّ ضربك يوجع أكثر من ضرب الأغراب أيها العبد.. فانهال العبد عليه بالضرب..

أنت هو الغريب.. تذكرت والقهر يحزّ حنجرتي قول صوت داخلي..

كان يحدثني، إني أتساءل هل ما حدث في بلدك حدث في نفسك إن لم يحدث فأنت لا تستحق هويتك.. توحّش العبدُ بضربِ الدلو، وهو يستصرخ اللاأحد لا أحد.. ونزلت دموعي. وحين تعب شرع يستعرض ولاءه الأعمى بعد انصراف أكثر المتفرجين من أهل القرية. وقد أشبعوا فضولهم وألقي في داخلهم حجر التحذير لتعود مياههم الراكدة إلى صفائها على الذُلِ وليشربوا العبرة ويتجنبوا التورّط في إنسانيتهم وفي وطنيتهم وفي كرامتهم، ويتركوا الأمر برقبة الأغبياء من أهل الكرامة الذين سيضحون لمرور أقدامهم الطرية على أجسادهم..

أيها النذل أتريد أنْ تحرّض الناس على التمرد..

وصفعه بيسراه وأسال الدمَ من فمه.. سيدي العبدُ الأكبر أنا مجرّد كلام وهرطقة فارغة.. ألا تعلم إن مجرد الكلام انتهاك لسيادة الأمير.. قد علمت أيها العبد علمت. قالها الدلو وهو يخفض رأسه باستسلام تام. ستظل مربوطًا

هنا على الجذع لثلاثة أيام بلا ماء ولا طعام هذا ما حكمه عليك سيدي الأمير. حتى تتوب من آرائك وتلزم قدرك المَهِين وتكون عبرة لغيرك.

وفتح العبدُ الأكبر عرى ثوب الدلو وكشف أعلى جسده. هكذا سيستمتع بك برد الليل أكثر.. إنْ نجحت في إنقاذ نفسك بالموت فأنت محظوظ وإن لم تفعل فالعطش كفيل، بهذا سيكون جميلًا أنْ يموتَ الدلو عطشًا.

وأرجو أنْ تختصر عليك وحوش الغابة وتنهش مؤخرتك لتعلّمك كيف تطلق الآراء وصفعه صفعة شعرت بدويها في أذني.

حذار أنْ يقترب منه أحد وإلا لقي مصيره.. صاح العبدُ الأكبر ببقية المتفرجين..

أصاب رأسي الدوار لشدة ما شعرت بالقهر على إهانة الدلو. أهكذا سيكون مصير أهل القرية؟.. التفت إليّ الصدق، كان وجهه ينتحب نظر إليّ نظرة غضب والتمعت على خده الدموع ومضى بلا كلام. أشعرتني نظرته بالذُل ربما أكثر من ذُلّ الدلو، حسن أنّ الظلام يغطي ملامح وجهي لكنت اعتبرت أنّ ضوء النهار جاء ليخزيني أمام نفسي. وربما كان وجهي يرتجف خجلًا أيضًا.. جلستُ على درجِ السلم أبلع غصتي، لماذا أشعر أنّ الجميع يحمّلني مسؤولية ما يجري. أشعر أنّ وجوههم تحمل عليّ كالأمواج العاتية.. أمواج متلاحقة تركب بعضها لتلطمني، منْ يأتيني كرحى تمسد رأسي وتنثر أفكاري للديدان، ومن يأتيني من أعلى برجه العاجي ليراني بقدر ما تتمنى نفسه، ومن يمر أمامي متباهيًا بحماره ليقتص من أصالتي ، ومن اكتنز سمّه وثقل على ظهره ولمعت شوكته ليحقن

صبري، ومن يحمل حقده عبر طريق الحرير ليلقي بقافلته في عروقي، ومن اشترى نفسه ابتغاء بيعي، ومن تعطّف بابي وطرق عليه ثلاثًا ليوقظ آلامي، ومن أغلق بلسانه رسالتي ليتذوق خيبتي، ومن أربكه سكوني أمام الريح فتظاهر بأوراق الشجر، ومن يلوّح لي من بعد.

قد أبدل الله درهم الفضة دينار ذهب، ومن يراهن أنّ دمي لا يصلح إلا لرصف الشوارع، ومن يبحث عني كمخطوطة لتزهد بي رفوف إهماله، ومن يمر كجرس القافلة على آمالي الحافية ، ومن رآني على غلاف الحق فأشتعلت ثيابه كبئرٍ يحترق، ومن يراني على وجهه خفاشًا ليبرر عماه، ومن يمشي بي كشمعة على وتيرة رؤياه حتى يلعن دموعي على يده ، ومن ينقّح رأيه الماضي بالندم على إنصافي، ومن لا يشعر بحجمه إلا أنْ أكون نملة سليمان، ومن يعانقني كاللبلاب ليتسلق، ومن يحمل لوح قبر ليتخرج بتحصيل احتقاري، أو يبحث عن جمجمة يضرب بها طموحي، أو يأخذ اسمي تذكرةً لأقربِ قطارٍ يفرم ذكراي، أو يسند ظهري حتى لا أحتاج لعظامي ثم يغيب كالظلّ لأبلغ الهاوية، أو ينبت بين عيني ليهدي السهام الضالّة.. تلك هي سلم الحياة فإن شئت أن ترتقي فاعمل قدميك.

هبطتُ السلم ففاجأني شبح قادمٌ نحو الكوخ، توقّفت مكاني، اقترب حتى بدت ملامحه..من؟ .. أنا القلب الأبيض.. ما الذي جاء بك في هذا الليل؟ جئتُ أُحذرك أيها الغريب، إنهم يأتمرون لقتلك، سمعتُ الفرسان يتحدثون بذلك.. إياك أن تبقى هنا غادر الكوخ هيا.. حسنًا اذهبي أنت الآن وسأرى ما أفعل.. عدتُ للكوخ حبست السكين في حزام ثوبي

وتسللت نحو شجرة دلو الكلام، تربصت من بعيد.. لا أحد عنده.. يبدو أنهم مطمئنون من جُبن القرية.

كانت نسمات البرد تلفح وجهي صرتُ خلف الشجرة، أشرت للدلو أنْ لا يصدر صوتًا، ولا أظنه كان قادرًا وقتها لشدة ارتجافه. قطعتُ الحبلَ وأغلقتُ ثوبه وسحبته وخرجت به في الظلام. هيا أسرع أيها الدلو، عبرنا ساحة القرية، وصعدنا السفح وتوجهنا لبيت الحكيم صدفة. طرقت الباب لمرات فردّ الحكيم.. من هناك.. أنا أيها الحكيم.. ماذا هناك أيها الغريب؟ أرجوك أيها الحكيم خبأ الدلو لديك، لقد ربطوه في العراء وكاد أن يموت بردًا. حسنًا هيا ادخلا، لا أنا سأذهب.. اعتني به جيدًا وداعًا .. عدت للكوخ فوجدت الصدق جالسًا مكاني على السلم وهو يكتف ساعديه.. وقفتُ أمامه لم يلتفت لي.. أهذا ما تستطيع فعله إطلاق الخيول؟ هل ذهبت لإطلاق الدلو سألته.. يبدو أني لا أضاهيك في هذه الصنعة.. ليس هذا وقت الكلام تعال معي يجب أن نغادر الكوخ حالًا سحبته من يده.. لماذا؟.. لأن القلب الأبيض أخبرتني قبل قليل أنهم سيأتون لقتلي .. ماذا تقول؟.. انتفض الصدق.. نعم هكذا. لنختبأ ليس بعيدًا عن الكوخ ونرى كمنّا خلف الكوخ حدّ الرؤية، اسمع أيها الصدق أريدك أنْ تخبر ابن الكادحة الأكبر أنْ يعلن في الغد أنه رأى الضواري تجرّ جثة الدلو إلى الغابة وستتدبر أمر إلقاء دمٍ كذب تحت الشجرة ومنها إلى داخل الغابة. عليك فعل هذا قبل طلوعِ الضوء لكن ليس قبل أنْ يأتوا إلى الكوخ، لم يمضِ الكثير حتى جاء الفرسان الثلاثة ومعهم العبد الأكبر، سحبوا سيوفهم ودخلوا الكوخ ظلّوا يتحدثون بالداخل ثم خرجوا

يتلفتون وداروا حول الكوخ ثم اتجهوا صوب الأشجار لمربط الدلو. الآن أيها الصدق اذهب لعملك وعندما تنتهي إلحق بي إلى بيت الحكيم.

نزلت المنحدر وسرت ودخلت الغابة، وسرت في الظلام بصعوبة تابعًا الطريق. انحرفت نحو الحشائش المتشابكة عبرتها ووصلت إلى الشجرة التي يبلغ جذعها ارتفاع قامتي. حفرت بسرعة وأزلتُ الغطاء وفتحت الصندوق، نزعتُ ثوبي، ارتديتُ بدلةَ الجلد السميكة والحزام ذو النهايات المعدنية وتقلدتُ السيف والخوذة الواقية ودرع صدف الحديد، وأخيرًا لبست القناع الحديدي. أعدتُ دفنَ الصندوق وانطلقتُ خارجًا نحو بيت الحكيم، وصلتُ البيت ولم أطرق الباب. كنت أتوقع قدومهم في أي لحظة ولا شك لديّ أنهم سيعرفون بتهريب الدلو قبل طلوع الصبح.

تخفيت خلف زاوية الجدار القريبة من الباب وانا اكشف الطريق للبيت.

وكان توقّعي في محله إذ رأيت أحد الفرسان قادمًا لبيت الحكيم كان يسير ببطء دون حذر ولا يتلفت وكأنه في نزهة. وقف أمام الكوخ لمسافة وظلّ ينظر إليه ثم اقترب رويدًا للباب وهو غير مبالٍ طرقْ الباب طرقًا خفيفًا ووقف بجانبه. وثبت من خلفه ووضعتُ سيفي على نحره. لا تتحرك وإلا أطحت برأسك، ارفع يديك إلى أعلى وضغطت حد السيف في نحره حاول الالتفات ورفع يديه.. أيوجد بهذه القرية من يرفع السيف قال، وينحر الشياه أيضًا.. اجثو على ركبتيك.. جثا.. فسحبت سيفه من قرابه ورميته بعيدًا.

وطرقت الباب بقوة.. من بالباب افتح الباب أيها الحكيم .. فتح الحكيم وارتد للوراء.. من أنتم ماذا تريدون. لا تخف أيها الحكيم أنا الغريب ورفعتُ

القناع عن وجهي، ما هذا الذي ترتديه ومن هذا؟ إنه أسيرنا. اجلب لنا حبلًا بسرعة. أنت استلقي على وجهك هيا ووضعت السيف على عنقه ضع يديك خلف ظهرك. اربط يديه جيدًا أيها الحكيم ربطه الحكيم، وأجلسته والسيف بعنقه.. أرى أنك لست مرتبكًا.. لا يربك الإنسان إلا نواياه..حقًا.. أولم يربك السعي خلف مظلوم ضعيف لتعيده للجلادين؟ جئتُ، أوهمهم أني أديتُ واجبي المكلّف به، وكانت نيتي أنْ أحاول إبعاد دلو الكلام عن متناولهم.. فارس نبيل لكنه يكذب قليلًا.. لست أكذب أيها الغريب، هذا ما جئت لأجله.. وماذا يفعل صادق ونبيل مع الأنذال والأشرار أؤدي واجبي رغمًا عني لأكسب عيشي.. هل تحاول النجاة بادعاءك هذا، أنا لا أخشى حد سيفك كما أنك لن تقتلني لأنك لست مثلهم.. لا تستدرّ الإشفاق أيها الفارس كن أبيًا.. فلا يليق بالفرسان.. لن يذلوا لعدوهم صحتُ به.

أنا لا أستدرجك أيها الغريب، أنا أقول الصدق، وأنا أعرف خُلُق الفرسان جيدًا وأنت لست عدوي.

ألم تكُن مع الفرسان الثلاثة قبل قليل وقصدتم الكوخ تريدون قتلي.

لم أكُن معهم أقسم لك. عندما ذهبوا لكوخك استغليت الفرصة وذهبتُ نحو دلو الكلام لأطلق سراحه لكني لم أجده، وإنْ لم تصدقني فأني رأيتُ طفلًا هناك كان قادمًا نحو مربط الدلو أمسكته وسألته ماذا تفعل هنا؟ فقال أريد أن أطلق الدلو. لقد أعجبتني شجاعته سألته ما أسمك فقال اسمي هو الصدق قلت له ألا تخاف أن تعرف عن نفسك وغايتك في القدوم إلى هنا بستر الظلام، قال لي.. نعم أخاف.. لكني لا أكذب أبدًا..

صعقني الفارس بما قاله وأبعدت سيفي عنه وتذكرت دموع الصدق وعبارته لا أحد يضاهيك بإطلاق الخيول.. صدقت فيما قلت أيها الفارس.

أيها الحكيم سآخذ هذا الفارس إلى الكهف واحتجزه هناك.. فاخبر الصدق إن جاء يبحث عني أن يخبر ابن الكادحة ليقول للسخط وفرسانه أنهم إنْ قاموا بإيذاء أحد من أهل القرية أو تعذيبه أو مجرد البحث عن الدلو، فسأقتل صاحبهم الذي هو أسيري. وقل له أنه يحتجز الأسير وسط الغابة. ولا تخبر الصدق عن مكاني في الكهف فأني أخشى أنْ يتبعوه ويعرفوا مكاننا.

سأفعل أيها الغريب.. اطمئن أيها الحكيم فلن يقربوا دارك ما دام لديّ هذا الرجل.

هيا انهض أيها الفارس وسر أمامي.. نهض وسار والسيف بيدي.

– لماذا أردتُ إطلاق الدلو؟ لأني رايتهم يعذبونه بوحشية كان أضعف من أن تشتمه حتى. لكنهم كانوا عديمي المروءة يستقوون على الضعيف لقد جعلوا منه بوقًا ينفخ بإذن القرية ليرعبها. آلمتني توسلاته.

– فلماذا لم تتدخل وقتها لمنع تعذيبه؟ لا يمكنني ذلك فأنا مجرد جندي ولدينا قائد يأمرنا كما أنّ من شروط الانضمام للفرسان عدم الاعتراض على أمر وعدم التمرد ولو بمجرد التفكير في النفس. لم يخطر في بالي إن قرية الأمنيات تعاني من هذا الظلم والإذلال.

– وما علاقتك بالسخط ؟ لا أعرفه.

– هل تستغفلني يا رجل؟ لا تعرفه وتحضر عُرسه.

أنا لا أعرف السخط ولست مدعوّا لعرسه. لكنه دعى الفرسان الأربعة وهم من ألحّوا عليّ بالمجيء معهم .. مشاركة الفرح لا تحتاج لمعرفة.

لكن هذا العُرس ليس للفرح .

ماذا تعني؟..لا شيء.. لا شيء دخلنا الكهف وأضـأتُ فانوسه وأجلست الفارس. وتذكرتُ أول ليلةٍ قضيتها هنا، نظرتُ لساقية الماء حيث تمددت وتخلصت من أدراني ووساوسي.

أول دخولي القرية.. ما اسمك أيها الفارس؟ ضوء الفجر.

ياله من اسم جميل كان أولى أن يسموك سطوة الظلام.

ماذا ستفعل بي أيها الغريب؟ -لا شيء فقط سأبيعك لتاجر البراءة قلتُ ساخرًا.. أطرق الفارس وردد تاجر البراءة مرة أخرى.. أنا أحد ضحايا تاجر البراءة.

وكيف ذلك يا ضوء الفجر؟ احكي لي قصتك. ما دمتُ سأقضي الليل لأحرسك.

مسحت جبيني. في الحقيقة أنا لا أحرسك، لكن كوخي لم يعُد آمنا ولا أمان إلا هنا. وأنا مضطر لأسرك لأحافظ على أهلي من الجور. هات، أنا أستمع: رفع الضوء رأسه ونظر بعيدًا بأسف كما ينظر التاريخ لانحدار أجياله.

باعني أهلي لتاجر البراءة وأنا بعمر الخمس سنوات ليعيلوا بثمني أخوتي.

أذكر ذلك اليوم وجه أمي وهي تبكي وتلطم وجهها وأبي وهو يأخذ صم الأحجار الكريمة ينظر إليها وينظر إلي، وكأنه يقول لنفسه ستفرغ يدي منها ولن تفرغ نفسي منك. كان أكثر الناس يبيعون أطفالهم لشدة تشوّههم، أمّا أنا فلم أكن مشوّها، كانت حياة عائلتي مشوّهة بشكل لا يصدق. في قرية التعدّي لا ثالث لاثنين الظالم والمظلوم، إما أن تكون بحاشية الملك فتتسلط على الناس وتحيا، وإما أن تدوسك حوافرهم وحوافر الظروف القاسية.

كل شيء للملك وحاشيته إلا الناس فإنهم للموت والفقر والذل.

سارت قافلة البراءة مع المغيب، ربما كانت الشمس أشرقت في اليوم التالي على القرية لكنها لم تشرق أبدًا على نفس أمي وأبي. حملوني وقتها على فرس ضعيفة، دخل الظلام الشديد على سيرنا ونحن نجتاز ممرًا صخريًا ونمر بصعوبة بين الصخور التي تعثر الدواب وتزحلق حوافرها، لا أظن أنّ الحراس يروا شيئًا من الطريق، ارتبكت الفرس لا أدري لماذا! ربما لانها رأت أفعى بين قوائمها أو ما شابه. انتفضتْ وألقتني من ظهرها وفرّتْ في الظلام.

تبعها الحارس جريًا.. وأما أنا فقد سقطت على خاصرتي كان ارتطامي مؤلمًا لكنه لم يخلّف ألمًا دائمًا. رأيت الحارس يغيب في الظلام خلف الفرس. نهضتُ وركضت نحو الظلمة بخفة نحو ما اتضح لي بعدها أنها شجيرات. توغلت فيها ركضًا ولم أتوقف حتى امتدت المسافة بيني وبين القافلة بمقدار الشعور بالأمان. لا أريد التوقّف فمصيري في القافلة كان

يطاردني. أبطأتُ المسير بين الشجيرات خوفًا وحذرًا حتى تبدت لي ظلمة كبيرة. كأن شخص الليل كان يجلس هناك.

بخوف يكبر كل خطوة حتى تهيأ لي أني أدوس ظلّي الشفيف على الظلمة الكثيفة.

تذكرتُ وجه أمي المنتحب.

حضر أمام عيني بقوة لدرجة أنه كان يجلي الظلمة الموحشة ويحيطني بهالة وجهها. لم يكن من شكٍ أني شعرتُ بدقاتِ قلبها في أقدامي تضع خوفها قبل خطوتي لتقيني المخاطر.. لا بأس يا أبي ألم تفكر بقلب أمي.. أظنُ أنّ قلبها منقبض علي أكثر من كفك على الأحجار. سامحني يا أبي إن عاد تاجر البراءة إليك وأخذها من يدك واستعادها لخسارة صفقته. هذا لتعلم يدك التي فرطت بي، إنّ قيمتي أكبر من أن تحتويها يد. ستظل يدك خالية ستظل تنظر لأصابعك وولدك يتسرب منها وليس أمامك إلا عضّها ندمًا..دخلت جلسة الليل فتبيّن لي أنها غابة أشجار. غمرني الظلام حتى لم أعُد أرى بصري.

كان قلبي وحده ينير لي، لا ليس قلبي إنه قلب أمي. خفت من وحوش الأرض، فبحثت عن شجرة تتفرع يمكن أن تقبلني بين فروعها تسلقت جذعها وجلست بين الفرعين أسند ظهري لأحدهما بجلستي الصغيرة وأمسك الفرع الآخر.

أنا الآن حُرٌّ كأي طائر. كثيرًا ما يكون ثمن الحرية فقدان الأحبة. أنا الآن ابن هذه الغابة وربما كان هذان الفرعان هما والداي وهذا الجذع هو قدري.

كانت تفرّ نفسي كلما فرّ طائر من بين الأشجار. وكلما اقترب رفيف آخر يحط عليها. وأصوات صياح أبناء آوى تفاجئني. بزغ القمرُ وتمدد الليلُ من جلسته. هزّت نسماتُ الريحِ الأشجارَ وأسندتُ رأسي للفرع وبدأ الأمان يسكن داخلي.

كان قلب أمي قد ارتفع في السماء ونشر نوره حتى أصبح لونُ الليلِ كلونِ القلق، يتردد بين النورِ والظلامِ. لا تقلقي يا أمي فلي ربٌّ أرحم بي منك، ولن يكلف الله هذا الطفل إلا ما يطيق، تأسي يا أمي عني بأخوتي، حسبي أن أكونَ ثمنًا لهم. هكذا هي النعم تفرُ منك لغيرك إنْ لم تصُنها. ولا لوم عليك يا أبي. فمن لم يربه أباه، يربه ربه . وأنّ الفتى ابنُ أصله لا ابنُ أباه وهو من يربيه.

سمعتُ أصوات بشرٍ من بعيد، من الاتجاه الذي جئت منه..

لا بد أنهم يبحثون عنّي. هكذا هي حرب الوجود، عليك أنْ تصنع قدرك بنفسك.. الألم وحده هو المُعلم الأول الذي يدلك على استثمار ما تملك في ذاتك. هناك من يخرجون من الحياة ولا يصرفون من ثروة خلقهم إلا النزر اليسير. والقدَر خير موجّه. لقد تجرأت طفولتي على ثقب غشاء الظروف السميك لأُولد حرًا.. انتظرتُ انكشاف الليلِ بصبرٍ نافذ وما زال للظلام سطوة المفاتيح على الأقفالِ. ازداد قلبُ أمي لوعةً في كبدِ السماءِ وكأنه كان يحرسني ويحذرُ بضوءه كلَ من يقترب منّي بمكروه.

مرت ساعات.. وأنا أنظر في بهمة الليلِ وكأني في غيابة حياتي القادمة. نعست الريحُ وأصبحت كهمساتِ التجاعيد على وجهٍ مترف. خفتُ أنْ أغفو

وأقع في أمانِ النومِ من أمانِ الحرص. لكن من يستطيع الوقوف بين جفني طفل إلا النوم.

ظلّ جسدي معلقًا على الشجرة، وروحي تحرسني. أفقتُ مرتبكًا على غياب قلب أمي. إنها بداية رحلة الاغتراب.. كان الليل يستعدُ لخلعِ ثوبه الأسود ويبقى عاريًا معربًا عن النهارِ. ارتفعَ صوتُ زقزقة العصافيرِ وتأهب دبيبُ الحياةِ للسريان. وبدأ ضوءُ الفجرِ يشفُ، وانكشفت الأرض، كانت الشجيرات التي مررت بها مزارع شاسعة المساحة وبها من المزروعاتِ ما يغطي حاجة أهل الأرض.. كلُ هذه الثمار ويضطر الناس لبيع أبناءهم! ولا وجود على مرمى البصر للقافلة، نظرت للجانبِ الآخرِ كانت البيوتُ متفرقة سمعتُ أصوات صياح الديكة تنادي النهار.. حسن إني لم أستغرق كثيرًا في الغابة التي كانت تمتد بعيدًا نزولًا، حتى طفولة الأرض في الوادي نزلت من الشجرة وتجاوزت الأشجار لمسافة قصيرة، حتى لاح لي طريقٌ ضيقٌ التفتُ لامتداده.

كان يتجه للمزارع وحين أعدتُ رقبتي رأيتُ رجلًا أمامي طويل القامة، سمح الوجه رغم غلظة تجاعيده، يرتدي ثيابًا يظهر إنها للعمل.. جمدت براءتي أمامه، علقتُ وجهي بوجهه، كان وجهي يُغني عن التوسّل وخوفي يلتمس رحمته.. ما الذي تفعله هنا أيها الصغير.. ما الذي جاء بك لمكانٍ كهذا من أين أنت؟.

اقترب منّي وانحنى أمام وجهي.. من القافلة، أجبته.. أيُّ قافلة؟.. قافلة تاجر البراءة.. هل باعك أهلك؟.. نعم وفررتُ من القافلة.. تعال

معي يا صغيري.. أخذ بيدي وسار نحو البيوت كانت نظرته حانية ويده خشنة يمكن أن تخدش الجلد.. إلى أين نذهب؟ سألته.. سآخذك إلى البيتِ أيها الصغير، لا تخش شيئًا ما اسمك يا صغير.. اسمي المشكاة.. ما رأيك أن أسميك وظلّ يتفكر.. ضوء الفجر. بما إني وجدتك مع ضوء الفجر، ما رأيك؟.. كان يستحق أنْ يسميني ما دام استحق رعايتي، أخذني لبيته الذي كان متواضعًا من الطين ولديه حقلٌ صغير عنده، دخلنا البيت فاستقبلته زوجته لماذا عدت؟. ومن هذا الطفل؟ إنه طفلٌ ضائعٌ وجدته في الغابة، كان أهلُه قد باعوه لتاجرِ البراءة، وفرّ من قافلته.

يا عزيزي الصغير أنت ما زلتُ صغيرًا على المتاعب، واحتضنت وجهي بكفيها، كانت رؤومًا قانعةً فسحت في حضنها مكانًا لي بين أولادها الأربعة.

اعتني به جيدًا يا امرأة منذ الساعة هو أحد أبناؤكِ..أومأت له برأسها وعادت تبتسم في وجهي سأذهب إلى عملي الآن..أعدت لنا أم الطِيب فطورًا وجلست مع أخوتي الجُدد، كانوا طيبين متآلفين ليس بهم سمة التعدّي. احتفوا بي متنافسين كسبَ مودتي قبل أن تبادر حاجتي إليه. إنها أسرة دافئة رغم شدة عَوَزها، إلا أنّ البِشر والرضا يفيضُ من محياهم. أخذني أخوتي إلى اللعب بجانب البيت. وانشغلت أمُ الطيبِ بعمل الحقل، وهكذا صرتُ فردًا من هذه الأسرة وكنت كلما حلّ الليل أفتقد أسرتي وأجلس في الظلمة وحيدًا أبكيهم.

يومها عاد أبي مع المساء من العمل في المزارع وصادف أنه يوم توزيع مؤونة الأسبوع لعمال المزارع من ثمارها. لم تكُن تكفي لثلاثة أيام، كان

أبي واسمه ملء السنابل مسرورًا لاحتفاء أسرته بي واندماجي معهم بما يمتص غربتي كما تمتصُ الأرض التعب من ظهور العمال حين يرقدون.

ويخصّني بمعاملةٍ حنون ملئها الاحتواء والاعتزاز.. كبرتُ على زادٍ زهيدٍ لا يكفي طاقة للعب، وامتلاء الدارِ بخريرِ الأمطار وغطاءٍ واحدٍ يدثر الأولاد.

ليس لمن يكون بطرفه إلا استفاقات البرد المتكررة، وكنّا في باقي أيام الأسبوع تنفذ مؤونتنا فنلجأ لخضار البرية وثمارها طعامًا لنا. وأحيانًا يضطرُ أبي لخوضِ الغابة بحثًا عن زادٍ أو صيدٍ لنا، أو يذبحُ مواليد العنزة الوحيدة ليبقي على حليبها.

ومرت الأيام ونحن نزدادُ فقرًا ونعاني شظفَ العيشِ، ونسدُ حاجتنا بالجوعِ تارةً وتارة بالتدبيرِ. كنتُ أتمنى خلال هذه السنين لو عدتُ إلى أمي وعائلتي، لكني كنت أخشى أنْ أكلفهم مشقة عيشي التي أجهدتهم سابقًا واضطرتهم لبيعي. أخذتْ هذه الأسرة تتغلغل محبتها في أعماقي.

حين بلغت الثانية عشرة رأيتُ جارًا لنا يمتطي فرسًا ولباس فرسان وسيف وكان شديدَ البخلِ كما كنتُ أظن.. يأتي كل بضعة أيامٍ لعائلته ويحمل الكثير من المؤونة، فيما كان ملء السنابل يكدُ في المزارع منذ الفجرِ حتى المغيب، ولا يأتينا إلا بالقليل من القوت. سألتُ أبي عنه فقال إنه يعمل في فرسان الملك ويحصل على أجر يكفي أسرته ويزيد. كان الملك يتعمد إفقار الناس ليضطروا لبيعِ أبناءهم لتاجر البراءة الذي هو مجنّد من قبله. ويضيّق عليهم سُبل العيشِ فيلجأ من لا يبيعون أبناءهم إلى الانضمامِ إلى معسكرات الفرسان لإعالة أسرهم.

كانت هذه سياسته ليزيد سطوته على قريته والقرى المجاورة حتى لا يمرُ عيشُ الناسِ إلا من خلاله. وكان يسلط بعضًا على بعض ليضمن بقاءه في الحكمِ باستثمار من تخضعهم الظروف التي يُحكِمها حول أعناقهم في خدمته.

حتى استعبد الناس من خلال حاجاتهم وأصبح العبيد لا يدافعون عن أنفسهم إلا دفاعًا عنه. مع أنهم يستعبدون أنفسهم بدفاعهم عنه.

ولا أحد يكسب المكانة إلا بالاندراج في خدمة الملك ولا كرامة لمن لا يدخل دائرته إلا بذُلّ العيشِ والفاقة والمعاناة. في اليوم التالي ذهبتُ إلى جارنا الفارس وأخبرته أني أريد الانضمام لفرسان الملك. وكان في نيتي أن أعيلَ الأسرتين، الأسرة التي أنجبتني، والأسرة التي تبنتني واستغربتُ أنه قال لي تعال في الغدِ وسآخذك إلى معسكرات فتيان الملك فتكونُ مستقبلًا أحد فرسانه. قلتُ له سآخذ موافقة والدي وآتي إليه، لكنه ردّ أني لست بحاجةٍ لموافقة والدي. فلا حق لوالدٍ بمنع من يريد الانضمام لخدمة الملك وإلا نفاه خارج القرية. فالملك هو والدنا.. أخبرتُ والدي في المساء عن نيتي الالتحاق بفرسانِ الملك فحاول منعي بأني ما زلتُ صغيرًا وأنهم سيجعلون منّي آلة وحشية تفقدني إنسانيتي. لكنّي أصررتُ على رغبتي ووعدته أنْ أحافظ على نفسي وأتحمّل كلَ شيء لأجل أنْ أساعد بإعالة أسرتيّ.

ورغم قلقه علي رأيته يبتسم بوجهي عندما ودعته ابتسامة مرة. واحتضنتني أمُ الطيب عميقًا حتى لمستَ أقصى أعماقها النقيّة.

التحقتُ بجارنا حملني خلفه على فرسه وانطلقنا.

أخذني بعيدًا عن القرية لأرضٍ قاحلةٍ وأشار لي عن بُعد ذلك هو الفتيان، كان مسيّجًا بتلالِ الرملِ وبه مخيمات وساحات تدريب وغرف حجرية للمدربين. سلمني للفرسان المسؤولين عن استقبال الفتيان وذهب باتجاه القصر، وبدأت رحلةُ المشقة.. رأيتُ المدربين يحملون السياط ويهوون بها على الفتية وهم يتدحرجون على ترابٍ كثيف. أعطوني ثياب التدريبِ بعد تسجيل اسمي وسلّموني للمدرب فتلقاني بضربة سوطٍ وأمرني أن أنضمَ للفتيان.

الذين كانوا يزحفون على سواعدهم. كانوا يدربونا على قفزِ الحواجزِ والسيرِ في الوحلِ وتسلق الحبالِ وحمل الأثقال والعدو مسافات بعيدة والمصارعة والطعن ورمي السهام إضافةً إلى المبارزة بالسيف وركوب الخيل.

بعد الإعداد الجسدي كان الإعداد النفسي حاضرًا خلال هذه المراحل.

حيث أسلوب القسوة والإذلال والتطبّع على الطاعة العمياء والتجرّد من الكرامة والضرب والشتم والإهانة، كان تأهيلًا للفروسية.

وما هي هذه الفروسية؟ خدمة الملك. يأمرونا بالنوم في وقتٍ محددٍ والاستيقاظ في وقتٍ محددٍ، ويوقفونا في حرِ الشمس نهارًا وبرد الرياح ليلًا، نشربُ الماءَ من مياه الآبار المجّة.

ويأتونا بزادٍ كان يمكن أن يعطونا إياه ونحن في بيوتناخارج الخدمة ..

لو كان ثمة عدل.. تسارعت الأيام بلا مشاعر وأنا أنظر إلى هدفي في إعالة الأسرتين. نحن لسنا إلا لبنة جديدة توضع تحت أقدام الملك ليعلو

ملكه على رقاب أهلنا. حاولتُ أنْ ألقي بمشاعري خارجًا حتى لا أتعذب بها في مصنع العبيد.

هذا رغم أنّ نفسي كانت ترهقني بنزاعِ الرفض. أنهيتُ سنوات من التأهيل، لسنواتٍ أخرى أكثر شدة وقسوة وأكثر مسخًا.

أيستحق قوت العيش كل هذا.. أم هي التضحية من تستحق. كيف لشخصٍ يهدر كرامته وقيمته ليضحي لكرامة أهله.

كانوا خلال هذه السنوات يعطونا أجازة ليومين لنعودَ إلى أهلنا ومعنا أجور أشهر.. عدة أجور زهيدة لكنها كانت تعيل أسرنا لحدٍ ما.

وفي آخر مراحل تدريبنا كانوا يحشرون في رؤوسنا مناهج الولاء للملك، ويعلمونا كيف نفنى ليحيا الملك، وكيف نذل لإعزاز الملك، لا شيء في أنفسنا لنا.. كل شيء للملك، كان المدربين المخلصين لعبوديتهم يربطون كل شيء به حتى وجودنا لن يكون له معنى بدونه، حرّموا علينا لمس أنفسنا أو تفقدها أو البحث داخلنا عن إنسانيتنا التي طمرتها أتربة التدريب.

أنسَونا أنّ لنا عزة نفس تدافع عنا أو حتى تطلب حقها في الوجود بأجسادنا.

التي تربى على الخدمة وتسمن على عافية الذُلِّ. أنشأؤنا لندافع عن الملك بعد أنْ قتلوا دفاعنا عن أنفسنا. قويت أجسادُنا وضعفت عقولنا.

التبعية هي ضرورة انعدام التفكير.

لم يكن من حقنا أنْ نفهم أو نفكر. التفكير هو الطريق للحياة.

كانوا يستغلون كل أوقاتنا حتى لا نجد فرصة لإحصاء ما فقدناه بهذه الفروسية الزائفة. التفكير أحد أشرس أعداءك، فهو يريك كل شيء ويعذبك تبعًا لذلك. التفكير نوع من القتل يُريك وجه الحياة بكل قبحه فتُقتل على مهلٍ، لكنه بذاتِ الوقتِ طريق نجاتك بنعمة خلقك. لم نكن نملكُ تلقاء هذه الإهانة إلا حديث النفس.. أنا حرٌّ برأيي على مدى الصوت الخافت فإن ارتفع كان تهلُكة، نحن في زمن (فليغيره بنفسه) وكسبُ العيشِ هو الطريق الذي نتعرض فيه لسلبِ ملكاتِ خلقنا وتجريدنا من إنسانيتنا وحقوقنا.

في الواقع إنّ كنوز خَلْقَنّا تُسلب بقوتِ عيشنا .

كم تمنيتُ أنْ أعيش لأفكر ولا أحتاج إلا إلى التفكير لأستمر بذلك من غير الحاجة للتوقف للماء والطعام وإبطاء المسير. بعد سنواتٍ أخرى أصبحنا مُعدين حسب تقدير المدربين لنكون من فرسان الملك، سيذهب بعضنا لحروب القرى المجاورة والبعض لحراسة القصر والبعض لحماية أملاك الملك والبعض لحماية أمن القرية والبعض لتأمين طرق التجارة والآخرين في مواقع نائية على الحدود.

وكان نصيبي من هذا حماية أملاك الملك المزارع بالذات من لصوص الليل، فمن فتك الجوع بعيالهم فهانت عليهم تهمة السرقة كما هانت أرواحهم برؤيةِ أنفسهم عاجزين أمام أطفال يتعلّقون مشاعرهم ويدفعوهم للتهلكة بضميرٍ مستريح.

مع هذه الجماعة التي في القرية الآن من الفرسان الذين يتزعمهم الفارسُ الضخم، كنا نخرج في دوريات ليلية ونعد الكمائن لاصطياد لصوص العيال من الآباء. صار يرضيني أنّ عملنا في الليل، نتوزع في جماعات فأتحرر قدر الإمكان من قيود الأوامر.

فالظلام أكثر أمانًا من الضوءِ، حيث تعيش حشراتُ البشر. بعد أشهرٍ من عملي، ازدادت أجوري وبدأت أحصد ثمار تعبي وأحمل الكثير من المؤونة إلى بيت أبي، ملء السنابل لأطمئن عليهم من العوز. وكان هذا يكفيني ويدفعني للتحمل لأجلهم..

خرجت دوريتنا يومًا وأعددنا كمينًا على طريق احدى أكبر المزارع، وفي منتصفِ الليلِ أمسكنا بشابين كانا قد دخلا المزرعة وملئا أكياسًا من الثمار، توسّل الشابان أن يطلقهم الفارس الضخم آمر مجموعتنا، لكنه أوثق أيديهم وظلّ يجلدهم ويعذبهم.. كان قلبي يتفطر قهرًا عليهم طلبت منه أنْ يطلقهم بشرطِ عدم العودة لهذا العمل. لكنه كان يتسلى بإذلالهم ويعبث بحدّ سكينه بوجوههم وأجسادهم، والثلاثة الآخرين لا يقلّون عنه نذالة وقسوة.

وحين أتمّ متعته أخذ يطعنهم ويطعنهم ثم ربط جثثهم خلف الخيول وسحبها بعيدًا. وألقاها على طريق القرية. كان مشهدًا مريعًا شعرت أنه ينتزع جلدي ويخرج ما تحته من قهر. ظللتُ أصيح على الفارس الضخم وأصفه بالإجرام وانعدام الرحمة والضمير حتى سلّ سيفه ووضعه على نحري وقال لي إن اعترضت سأقتلك وأعتبرك متواطئًا مع اللصوص، أصبح الأمرُ شخصيًا بيننا. بعد أنْ حاولتُ الوقوف بوجهه بكلمةٍ لا تُجدي

بعد مصرع الشابين. وقلتُ له لن أخرج معك في دوريةٍ أخرى يُقتل فيها الناس بسبب حاجتهم.

فأَعلَم المسؤولين عنه بذلك وتسبب في حبسي ستة أشهر قطعوا خلالها أجوري.

ما كان يضيرني السجن لكني كنت أفكر بحال أسرتي بعد انقطاعي لهذه الفترة عن مؤنتهم. وحين أُطلق سراحي أصر الفارس الضخم أن أبقى تحت قيادته لإرغامي على ممارسة الإجرام بحجة الواجب.

وما أنْ أعادوا لي أجري حتى حملت مؤنة كبيرة بنصف أجري على حصاني وتوجهت إلى أقصى القرية شمالًا. حيث المنازل التي تستر الفقر والقهر حاملةً على كاهلها مائدة الملك الطاغية الأصناف والترف. لاح لي منزل أبي، أوقفت حصاني ومرّ أمامي مشهد بيعي على تاجر البراءة. رأيت أمي وهي تحاول إنزالي من الدابة وأبي يبعدها بالقوة. وبكاؤها ونحيبها يكاد يصّعد في السماء. وكفوف أخوتي الصغار على عيونهم تمسح الدموع وتفرك عيونهم عن تصديق ما يرون. ووجوههم متقلصة بالبكاء يبكون على أيديهم رحمةً بي وحزنًا علي. إذ لم يجدوا ملجأً لبكائهم. وأمي تستشيط ألمًا كأن اضطراب قلبها داخلها جعلها تضطرب في حركتها ولا تدري أين تفرُ من من هذا الألم. تتوسلُ أبي وتحاول فتح قبضة الأحجار لتعيدها للتاجر بطفلها.

علقت الغصة في حنجرتي وسالت من عيوني ذراعان من الدموع يحتضنان أمي. وقفت على مقربة من الباب وناديت أحد أطفال الجيران

أنْ يطرق الباب، استجاب الطفل وطرق. وفُتح الباب وخرج أحد أخوتي وكان أصغرهم وقد أصبح شابًا، أشرتُ إليه أنْ يأتي، كان ينظر إليّ بحيرةٍ كبيرةٍ، نظرت لوجهه ولم يستدل عليّ. اذهب ونادي أخوتك.. لماذا؟ قال بتخوّف.. لتحملوا هذه المؤنة. إنها لكم. لم يسألني من أنت حتى وفر للداخل غير مصدق. أحدث ضجة في البيت وخرج كل أخوتي. فتحتُ الرباط وأعطيتها لهم. أخذها اثنين منهم للبيت وبقي أحدهم يقتص من غرابة وجهي. كان الناس والفقراء بالذات يكرهون فرسان الملك ويخافون من سطوتهم. خرج أبي وقف بالباب ونظر إليّ مطولًا خلعتُ خوذتي. وتقدم نحوي، ترجلتُ وسرتُ إليه، وقفتُ أمامه.

اضطرب وجهه.. أين أمـي؟.. ارتجف وجهه وجحظت عيناه.. ولدي.. وألقى بنفسه عليّ.

ثم ارتد سائلًا أنت ولدي؟.. أنا ولدك المشكاة يا أبي.. اختلطت دموعه وتعابيره بمشاعره وصار ضجيجًا من الألم والأسف والفرح. احتضنته بقوة لا تناسب وهنه وشيبته وكلفت عيناه اللذان وقعت صبغتهما الدموع .

أين أمي؟ نظرت لعينيه الهاطلتان. أصفرّ وجهه كبيضة كُسرت وأطرق وجهه واعتصره الألم.. لقد ماتت.. ماتت حزنًا وكمدًا عليك.. سامحني يا ولدي.. شرقت حنجرتي وعيناي بالدمع والغصة معًا.. ماتت قبيل الفجر في يوم..

وتعثّر كلامه.. في يوم رحيلك. أكمل مخففًا ألمه.. وتذكرتُ استفاقتي من غفوتي وأنا على الشجرة بارتباك. لا شك أنها ماتت في اللحظة التي

غاب قلبها عن سمائي تلك الليلة.. حاول أبي التخفيف عني ونادى أخوتي.. إنه أخوكم المشكاة لقد عاد إلينا. أسرع أخوتي لمعانقتي لم أكن أرى وقتها إلا وجه أمي كنت أشعر أنّ مشاعري نفذت وليس لديّ ما أبكي به. وعادت لي صدمة فراقها بقوة قضيتُ يومين وأنا هائم عن نفسي، ألجمت الصدمة حتى مشاعري عن قبول حزني. إنها لا تريد أن تعزّيني لكي لا أنسى.

غادرت أبي إلى السوق وحملت مؤنة أخرى وتوجّهت جنوب القرية، سرت بين البيوت المتفرقة كان أحد أخوتي يجلس قرب الباب. رآني فقام يمشي نحوي من دون أن يبتشر لرؤيتي سلّم عليّ وسألته اين أبي ترك سؤالي معلقًا ودخل البيت. خرجت أم الطيب نشرت ذراعيها ووجها وأخذتني بأحضانها كيف حالكم يا أمي.. أطلت الغياب علينا يا بني. هل حدث لك مكروه؟ لا شيء يا أمي فقط حُبست هذه الأشهر وغبت عنكم مرغمًا. نحن بخير وهزت رأسها وكأنها تتوعد سرًا داخلها بالإفصاح.. متى سيعود أبي؟ احتقن وجهها ونظرتْ إليّ بحسرةٍ وترقرقت عيناها .. ما بكِ يا أمي؟ هل حدث شيء لأبي؟.. لقد قُتل أباك.. قُتل.. ما الذي تقولينه منْ قتله وكيف؟ لا ندري ردت بصوت الشكوى. أفقنا في الصباح ووجدناه مقتولًا أمام البيت.

ياإلهي.. ما هذا الذي يحدث لي؟. أمٌ من هناك وأبٌ من هنا، أم تموت حسرة وأب يُقتل. كم سيتحمل قلبي لم تعُد عظامي تحمل ثُقل همّي وحزني، جلستُ على الأرض. وعيوني تتغرغر بالدموع، كيف يُقتل رجل رحيم مثل ملء السنابل. هل خرج في الليل ولماذا؟.. كان يخرج في الليل

ليعود لنا بما نقتات عليه. أصابتنا الحاجة حين انقطعت عنا مؤنتك ولم نجد ما نعتاش به فكان أبوك يخرج في الليل ولا أدري لأين. لكنه كان يعود بثمارٍ نسد بها جوعنا، وفي تلك الليلة تأخر كثيرًا وكنت انتظره حتى طلع الفجر. فوجدت جثته على طريق عمله ودماءه تفيضُ تحته. كانت آثار الطعنات على صدره لقد قتلوه قتلوا الرجل الطيب الرحيم. ومتى حدث ذلك؟ منذ بضعة أشهر لم يبق لنا من معيل سيموت أولاده من الجوع.

لا تقلقي يا امي سأحرص على ان آتيكم بالمؤنة..أي شئم هذا.

أنْ أسمع هذان الخبران بيوم واحدٍ الأم التي أنجبتني والأب الذي رباني.

لقد حزنت عليه حزنًا شديدًا أيها الغريب. كان الأب الذي اشتراني من بيع أبي وكان لديه من الأولاد بقدر ما كان لأبي. لكنه لم يحتج بهم لبيعي..

ولم يحتج بعوزه يوم قبلني في أولاده رغم شدة فقره. لقد مات ملء السنابل جوعًا وقتلًا وهُدر دمه في ظلمة الليل ولا أحد يعلم قاتليه .

قمتُ وفككتُ قيد الفارس.. لماذا فككتُ قيدي أيها الغريب؟ آلمتني قصتك، سامحني إنْ أضفتُ همًا لهمومك، لكم يظلم ظاهرُ الأشياءِ باطنها، أنت حرٌ طليق يا ضوء الفجر.

أتظنُ أنّ قيودي بيدي..لا أيها الغريب إنّ قيودي بنفسي، إنّ مجرد عملي في فرسان الملك هو قيد يحزّ عنقي. ولا أظنُ أنّ السخط ومن معه إلا امتداد للملك وجوره. وأنّ لي عندهم ثأرًا هو قتلُ والدي. كل الظُلاّم بلا استثناء وما دمتُ ضدهم فأنا معك أيها الغريب سأكون أحد فرسانك في حربك

ضدهم.. أحقًا تقول يا ضوء الفجر.. ذلك يشرفني فأنت رجل نبيل لكنهم سيفصلوك من عملك فكيف ستعيل أهلك.. أطرق الفارس..إنّ القهر ينهب نفسي ولكم يخجلني أنْ أعمل بهذه الفروسية الباطلة وهذا الذُلّ.

حسن يا ضوءَ الفجرِ سأجدُ لك حلًا ولأهلك أيضًا.. وكيف ذلك أيها الغريب؟ ابقَ إلى جانبي وأنا سأدبر لك ما تحتاج من مؤنة لأهلك، لكني أريد أن تدرب شبان القرية على القتال.. أنا مستعد أيها الغريب ومدّ ضوءُ الفجرِ يده .

وصافحته على عهد أنْ نقف بوجه السخطِ ورجاله، لكن أيها الفارس لتنضم إلينا عليك أنْ تدخل طقوسنا ومنهاجنا.. وكيف سأفعل ذلك؟.. سأُريكَ ذلك خلعتُ بدلة القتال ودخلتُ أقصى الكهفِ. وخبأتها وتمددت في الساقية ووضعت رأسي على الدكة وقرأت.. أيها النور الأعلى وقبس الوجود... ذلك الدعاء الذي حفظته من الحكيم صدفة يوم تلاه عليّ. وشرحت للفارس ما يكون من أمره حين يفعل هذا الطقس وأنا ممدد في الساقية، أنهيتُ طقسي وارتديتُ ملابسي، والآن دورك يا ضوء الفجر خلع الفارسُ بدلته وتمدد في الساقية وتلوتُ عليه. أيها النور الأعلى.. طلع ضوءُ الفجرِ ونحن نتحدث وقد أشرتُ عليه أنْ يجلب أسرتيه لقريتنا ويعيش بيننا.

والفارس ممدد بالساقية، الآن اخرج وارتدي ثيابك حتى أعد لك ثيابًا يفصّلها لك الخياط. أنت لن تحتاج لثوبك هذا إلا في القتال.. اسمع أيها الفارس أنت الآن الآن من أهلِ هذه القرية، ستقيم في هذا الكهف.

وسأرسل لك الشبان لتدربهم على القتال، أريد منك أن تسرع في تدريبهم حتى يكون تدريب اليوم لأسبوع ستدربهم في شقِ الوادي خلف بيت الحكيم صدفة، سأُبْقِي في علمِ السخطِ وفرسانه إنك ما زلت أسيرًا.. وبعد أيامٍ ستعود للفرسان لتكشف لنا ما يخططون لفعله، إن معركتنا معهم في الليل فإن طلع النهارُ سترها الناس.

سيكون طعامك مع الحكيم صدفة هيا لنخرج.. خرج الضوء وأشرت له نحو منزل الخياط اذهب وقُل للخياط أنك دخلت طقوسنا، واطلب منه أنْ يفصل لك ثوبًا.

لكن أيها الغريب ألا يمكن أن يشك الفرسان بأمري إنْ بدلتَ ملابسي بصفاتي، لا عليك أيها الفارس إنْ كان جوهرك ناصعًا فلا يمكنك حجب ظهوره.

اذهب الآن.. مررتُ ببيتِ الحكيم وأخذتُ دلو الكلام معي إلى القرية، اسمع أيها الدلو، ستُقيم معي في الكوخ حتى أعيدك لمنزلك أتفهم.. نعم أفهم أرى أنك صرت قليل الكلام على غير عادتك.. ربما عليّ أن أفعل أكثر مما أتكلم. أجل عليك ذلك إنّ الحصيلة واحدة فما دفعت ثمنه عن الكلام كان أولى أنْ يكونَ فعلًا.. دخلنا القرية كان الشيخُ كذب يقفُ مع الفرسان الأربعة.

ويتحدثون، قطعوا حديثهم حين رأوني ومعي الدلو.. سنرى ماذا سيكشف الليلُ من نواياهم.

أين كنت أيها الغريب.. بحثتُ عنك كثيرًا.. كنتُ في عملٍ.

يقولون أنّ السخط أصبح مريضًا.. لا أظنُ المرض سيشفيه من النذالة.

فعلت ما طلبته مني لقد كفّوا عن ملاحقة الدلو ما دمت تأسر أحد أفرادهم.

قد أحسنت أيها الغريب.. لا أظنهم يأبهون بأسرِ صاحبهم أو قتله أنهم مبطّنون بهذا.. غدًا أيها الصدق ستجمع شباب القرية وتذهب بهم للحكيم ستتدربون على القتال. سأفعل فأنا أتوق لذلك، أرى أنك صرتَ تحسن أكثر من إطلاق الخيول.. نظرتُ بعيني الصدق مطولًا.. أنت أيها الصدق..أنت من كنت تتكلم داخلي وتسألني، هل ما حدث في بلدك حدث في نفسك أطمئنك أنه قد حدث. وإن تمرد بعضُ أهلِ القريةِ فسأعيدهم إلى نصابهم، منذ اليوم سيكون للقرية زمام واحد وهو بيدي. نظر الصدقُ إليّ وأعاد نظره للفرسان، أتمنى ذلك.. أثناء ذلك دخل الفرسان بيت السخط القديم وخرجوا ببدلاتهم العسكرية.. أيها الغريب هل ستحميني منهم؟، إنهم يتوشحون سيوفهم.

أنت كزجاج الشبابيك أول من يرتجف في الهزات. لا تخف لن يؤذيك أحد وأنت معي..أين أنت أيها الغريب..ماذا هناك أيها الليّن.. ذلك الفارس القصير سلب مني الطيور التي اصطدتها بالأمس وقال لي أنّ كل ما حول القرية من بهائم وما فوقها من طيور هي ملك الأمير، ولا يحقُ لك الصيد منها وأخذها وضربني وأهانني، كيف سنعيش أيها الغريب وهم يستولون على قوتنا.. بالدفاع عن أنفسكم.. إن الضعف مجلبة للتعدّي.. لو كنت قادرًا على غير الشكوى لما تجرأ عليك.. تعالوا معي لنذهب إلى الحقل، إن بقيتم جبناء هكذا ستموتون جوعًا، عليكم أن تنتزعوا حقوقكم بالقوة.

أنت أيها الفلاح العبد.. ماذا تريد أيها الغريب؟، أريد أنْ أخرجك من ذُلّك وعبوديتك.. ضربته فوقع أرضًا.. شد وثاقه أيها الصدق..انتزع الصدقُ ردن ثوب الفلاح وأوثق يديه.. سأشكوك إلى سيدي الأمير سخط.. عليك اللعنة وعلى كلبك أيها التافه.. هيا أنتما أيها الدلو وأيها الليّن خذوا ما تشاؤون من ثمار الحقل بما يكفي أهل القرية من غير أتباع السخط وعبيده.

شرع الاثنان يملآن ثيابهما بالثمار وكنت والصدق نراقب فرحهم وخوفهم بذاتِ الوقتِ. والفلاح مُوثَّق ومُنكفيء على وجهه كالكتابة الهندية. وكان غراب السخط ينعق فوق رؤوسهم.

كنت ذكيًا ذلك اليوم أيها الغريب حين فهمت إشارات الغراب لتعاويذ التفكير.

هل كنت أنت؟.. نعم أنا من كتبتُ أوراق التعاويذ وقمت بخياطتها وجئتُ قبل المغيب بعد انسحاب الفلاح والراعي ودفنتها على مرأى الغراب الذي أعرف أنه مختص بحفر الأشياء التي تُدفن أو الدلالة عليها لصاحبه السخط أوغيره.

لم يكن أمامي من طريقة مع هؤلاء الأذلّاء إلا أن آمرهم عن طريق أميرهم الوهمي. ليوأدوا حقوقَ الناسِ.. أين تعويذة أميرك أيها النذل ورفس الصدق الفلاح.. وكنتُ تتجاهل فعلك وتركتني أكتشف الأمر بنفسي.. كان هذا أكثر جرأة من إطلاق الخيول.. لماذا منعتم حقوق الناس بعد رسائل الأمير أيها الفلاح؟.. السخطُ من أمرنا بذلك والشيخُ كذب والعبدُ الأكبر، كلهم يأمرونا بعدم التصرف بأملاك الأمير.. أيها العبد كان علي أن أترك الغراب يأكل مخك النتن لعلك تُعذر في غباءك.

هل تعرف أيها العبد أنّ الغراب أذكى الحيوانات وأن ذكاءه كان ينقر غباءك الفاحش.. الأمرُ ليس بيدي أيها الصدق..

أنا ضعيف ولا أستطيع الدفاع عن نفسي.. فما رأيك إن حميتك من هؤلاء وجعلتك تدافع عن نفسك.. أنا لا أجرؤ على الوقوف بوجوههم.. لن تكون وحدك كلنا سنقف ضدهم لنسترد حقوقنا منهم.. وهل ستضمن حمايتي؟ أخاف أن يقتلوني.. وماذا سنخسر إن قتلوك عندها سنكسب أنّنا تخلصنا من الذُلّ والعبودية.. أيها الجبان سنكون معك ونعلمك القتال هل ستكون معنا؟، سأكون معكم لأجل ابنتي أريد أنْ أخلصها من خدمة الأميرة.. هل انتهيتم هيا لنذهب للعبد الآخر ملأ الدلو والليّن ثيابهم، واتجهنا نحو الراعي أخذتُ عصاه وضربته حتى تمدد أرضًا.. منذ اليوم أيها الراعي سنستوفي حقوقنا بأيدينا خذ خروفان سمينان لنذبحهما ونطعم القرية.. ليس هذان أيها الدلو هذان الخروفان الهزيلان يفكران ومن يفكر يستحق العيش.. خذوا البهائم منها من أشباه هذا الراعي العبد.. أيها الصدق ابقَ عند الراعي حتى يذبح الخروفين واذهب بحصص أهل القرية ووزعها عليهم. سأذهب أنا والليّن والدلو لنعطي الناس حصصها من الثمار.. طفنا القرية نوزع الثمار أمام أنظار زمرة السخط، كان الحسن في هذا أنّ الدلو والليّن تعلّموا كيف يتجرأوا على ظالميهم.

أسبل الليلُ سدوله وبكر المتقلب بسكره وتعالى صراخ الفلاح والراعي المربوطين على الأشجار تحت التعذيب، كان لا بد من دفعهم لنَيل هذا العقاب على أيدي أسيادهم ليدركوا حقيقتهم، وينقلبوا عليهم

لأنفسهم. هذا العقاب هو ثمن تذليل أنفسهم لهؤلاء. كان عليهم أن يصرفوا ولاءهم في خيرهم. قررتُ أنْ أبيت في كوخي وارتديت بدلة القتال رغم ما أبلغتني به القلبُ الأبيض من أنّ السخط وفرسانه يخططون لاتهامي بكل الجرائم التي حدثت في القرية ومحاكمتي عليها. سأترك هؤلاء يتعذبون لينالوا عقاب تبعيتهم بقدر ما حَمّلوا أهل القرية من عذابِ حرمانهم من حقوقهم.

المحاكمة

مرّ النهار ولم أشعر بألم الفقدان. غادرني الألم الذي صاحبني منذ دخلت القرية. ربما كان يرتاح ليعاود ملازمتي. ليس هذا فقط بل إني صرت أسمع صوتاً لم آلفه من قبل يتحدث داخلي وربما كنت نسيت آلفته.

لأذهب وأرى لم استدعاني الحكيم صدفة إلى منزلة الساجد.. طرقت الباب ففتح الصدق لي. أنت هنا أيها الصدق. دخلت فوجدت الحكيم والخياط. أنتِ أيضا هنا أيتها العباءة.. تُرى ما سرّ هذا الاجتماع ؟ أنت المطالب بالسرّ وليس نحن قالت العباءة.

ماذا تعنين أيتها العباءة.. أدارت وجهها للحكيم.. أيها الغريب دخلت طقوسنا حين أتيت للقرية وقضيت ليلة في الكهف.. كنت تهذي بحياتك السابقة وكنت قلت لي أنّ الشيخ كذب أوقعك في فخٍ بحجة التعارف مع أهل القرية. فكانوا يرون ويسمعون كل حياتك الماضية. أريد أن تخبرني مَن أكثر من بادرك بالتعارف وأعطاك أكثر من الآخرين؟.

السخط.. أجبت، السخط أعطاني أكثر من الآخرين، أعطاني من نبضات قلبه.

وهل تعرف ما أخذ السخطُ مقابل ذلك منك؟.

لا أدري أيها الحكيم.

أخذ منك صفة القيادة، وهي مسؤولية وإرادة وعقد في القلب وما وجوده الآن في الإمارة إلا بفضل صفتك التي أعطته الجرأة عليها.

نعم لا شك أنّ هذا ما حدث أيها الحكيم، لقد مرت الريح الباردة في تجاويف نفسي وشعرتُ بعد قضاء ليلة الكهف أني فقدتُ شيئًا ونسيتُ شيئًا منّي.

وقد خلّف هذا ألمًا يلازمني وهو ألم الفقدان لهذه الصفة لذلك كنتُ خائر العزيمة ضعيفًا.. وكيف أستعيدُ صفتي المسروقة أيها الحكيم؟ قد استعدتها.. حين أديت طقس الكهف مرة أخرى وأنت تعلّم الفارس ضوء الفجر. وهذا ما خلف السخط في صباح تلك الليلة مريضًا، لأنه فقد صفة القيادة وصار الألم الذي لازمك في نفسك يلازمه هو، وسيكون خائر القوى ضعيفًا كما كنت .. ألم تلاحظ أنّ ألم الفقدان غادرك..

نعم، ومنذ صباح الكهف.. وقد جئت بك. أكمل الحكيم إلى الخياط. وأدار الحكيم وجهه للخياط فأكمل عنه. حين طلبت منك أن تقف في الشمس وتحسر عن ثوبك.. رأيت بك صفات لا تنبغي إلا لشخصٍ واحدٍ في القرية، فأحترت في أمرك ولم أجد من ثوبٍ يناسب صفاتك إلا الثوب الموشّى الذي هو ثوب أمير القرية، وحين جئت بالقماش الموشّى سألني الحكيم وقتها أليس هذا القماش.. وأجبته نعم ولم تفهم أنت ما تهامسنا به جهرًا.. وقد عرفتُ أنا والحكيم.

إنك أمير هذه القرية.. أنا أمير هذه القرية !. نعم ردت العباءة رغم ما بي من عمى لكني رأيتُ بك صفة الإمارة وعرفتك منذ دخلت القرية أنت هو الأمير الغائب.

وأنت أيها الصدق قلت لي يومًا أشعر أني أعرفك من قبل.. أتذكر هذا؟.

أذكر جيدًا أيها الأمير..وابتسم ببراءته المعهودة..كلكم تعرفون أني الأمير ولا أحد يخبرني بهذا.

لأنك لا يمكن أنْ تكون أميرًا بلا صفة القيادة، ورغم أني عرفتك وكان بإمكاني إخبارك لكني أردتك أنْ تعرف بنفسك، أردتك أنْ تعيش وتمر بمرحلة الفرد من القرية، فترى كيف يعيش أفرادها وتمارس دورك وستنهض صفة القيادة في نفسك لاحقا.

ستعيش كمواطن وتدفعك المسؤولية وحب أهل القرية لتكتشف صفتك لديك، فحين تكون أميرًا، تكون وأنت مواطن فلا تفقد شعورك بالمواطنة.

لهذا كنت أيها الصدق تستحثني على القيام بمسؤولياتي، لهذا كنت أشعر أنّ كل أهل القرية يحمّلوني مسؤولية ما يحدث فيها، لهذا كنت أسمع صوتًا داخلي يسألني بشكل مستمر. هل ما حدث في بلدك حدث في نفسك، وكان صوتك أنت أيها الصدق.. أجل أيها الأمير، أنا دليلك وقيمتك ودورك والنور الذي تنير به طريقك.

لكنك فقدت صفة أخرى أيها الغريب.. وما هي أيها الحكيم؟.. ثوبك الذي يمثل صفاتك استحوذ عليه السخط.

لا عليك أيها الحكيم.. الآن أنا في حربٍ مع السخط، وإن كان سرق ثوب الإمارة فلديّ ثوب القتال لاستعادته.

لكن كما تعرف يجب أنْ تنطبق عليك شروط الإمارة الثلاث، وهي أن تكلمك عين الجبل وأن يكون ثوب صفاتك بلا عيوب وأن تذهب تشوهات أهل القرية بإمارتك.. وقد رأينا واحدة من الثلاث.. فهل حدثتك عين الجبل؟.

نعم قد حدثتني..

فلماذا لم تخبرني بذلك؟ لأنك لم تخبرني أنّ حديث عين الجبل يعني الإمارة، وأنت لم تسألني أيضًا، فماذا قالت لك عين الجبل؟ قالت لي الحكم العشرون وهي: (الحكم أنْ يكون لديك القوة على البقاء على الحق وحدك فيدين لك العالم بالولاء.

يُولد كل إنسان كإضافة للحياة فإن لم يضف شيئًا فقد ولد ميتًا.

يكرر الله خلقنا لنتجاوز أخطاء الآخرين.

لا تحاول التقدّم للأمام بسحق نفسك.

يُساس الناسُ بجرهم من رضاهم.

لا تستحق السلطة إلا أن تكون أرأف بالناسِ من أنفسهم.

إن وجدَ الحاكم في نفسه كِبرًا فسيجد مقابله سخطًا في نفوسِ الناس.

الوحي نصيب الأنبياء والإلهام نصيب نوادر البشر.

إن لم تحسن الإصغاء لعظمة خلق الله فستتعطل حواسك.

لن تعمل حاسة من حواسك إن لم يسبقها الوعي.

خُلق كل شيء ليرتقي جاذبية الأرض هي روح الشيطان.

لا تفكر باصطناع الهيبة فهذا ثوب ربّاني.

منْ لم يجد عدوًا فهو لم يجد الحق.

إذا كنت تحب كل الناس فأنت تحب أكثر الشياطين.

الأقلام هي العصي التي تؤدَّب بها النفوس.

لا تحاول أن تكون عادلًا بالتنازل، فالحق لا يُصان بالإرضاء.

يكفي أن تشق على صدور الناس بفراستك حتى لا تشق عليها بجهلك.

إنْ لم تُشهر سيفكَ على نفسك، فأولى أنْ تغمده أمام الآخرين.

يحافظ الراعي على حياة قطيعه، منْ يدري لأجله أم لأجل قطيعه.

عش فقيرًا في نفوسِ الناسِ أفضل من أن تموت حاكماً فيها.) لم أكن أعلم لماذا ظلّت هذه العبارات تتردد في نفسي، الآن علمت أنها منهاج الحكم.

لكننا لن نستطيع تنصيبك أميرًا للقرية .

ولماذا أيها الحكيم؟.. لأن القاضي عاجز عن أداء دوره وهو مُستضعف لا حدود له على الناس.

لكنك تستطيع فعل ذلك أيها الحكيم .

نعم أيها الأمير قد ثبتت إمارتك بالدليل ولو نصّبناك فسيظهر الشرط الثالث وهو شفاء أهل القرية من التشوّهات، فأخشى أنْ يظن الناس أنهم تعافوا من التشوّه بفضلِ إمارة السخط، فيتمسكون به أكثر ويساندونه على ما فيه من هلاكهم.

اعمل على تنصيبي أيها الحكيم، ودعني أرى شفاء الناس وليس مُهمًا لديّ من هو السبب بنجاتهم من التشوّه.

افعل ذلك أيها الحكيم قالت العباءة، فإن إنقاذ أهل القرية من التشوّه هو أقصى ما يمكن أنْ يقدمه الأمير لقريته. افعل هذا فإننا نتعذب برؤية أطفالنا مشوّهين هكذا، والتفتت إلى الخياط.. نعم أيها الحكيم وأنا مستعد لإعادة تفصيل ثيابًا جديدة لكل أهل القرية، تنصع فيها صفاتهم ويتطابق جوهرهم ومظهرهم.

نعم أيها الأخوة، لكن هناك أُناس خارجون عن إمارة الأمير وتبعيته فأولئك لن يُشفَوا وسيبقون على تشوههم. كما أنّ التشوهات التي سيشفى منها البعض ستظهر على أولئك الخارجين عن التبعية.

إنهم يستحقون ذلك.. قال الصدق، هذه عقوبة اتباع الأدعياء.

ألا يمكن أنْ يشفوا إن تابوا واتّبعوا الأمير الحق.

يمكن أيها الأمير أنْ يعودوا لمنهاجنا فيبرأون من التشوّه، وقاطع الحكيم طرق على الباب.. من هناك؟.. أنا عجوزُ الصفحِ.. افتح يا بني..عجوز الصفح! ركض الصدق وفتح الباب. مرحبًا أيتها العجوز المُباركة، لماذا تكبدتِ عناء الطريق؟.. لم أطق صبرًا، ذهبتُ لمنزلِ العباءة ولم أجدها.. جلست العجوز تلتقط أنفاسها.. ماذا هناك يا عجوز الصفح؟ سألتها العباءة..

أرسلتُ ابن الكادحة الأكبر إلى وادي التجارب ليجلب لي دواءً قديمًا اسمه سلسال الدمع لعلاج عيون العباءة.. أحقًا تقولين أيتها العجوز؟، أيمكن أنْ يعود لي بصري؟.. سيعود كما تعود الدوائر للماء.. ومدت العجوز يدها في جيبها وأخرجت قارورتان. صبت من احداهما ملعقة تناولتها العباءة وقطّرت من الأخرى ثلاث قطرات في عينيها. ستجدين أثر هذا الدواء في صباحِ الغدِ.

وكيف سأعرف أنّ الصباح طلع وأنا بليلٍ دائمٍ.. ستعرفيه عندما تبصر عيناكِ.

إنْ شفى دواؤك أيتها العجوز عينا العباءة فسأكون ممتنًا لكِ ما حييت، ولكِ أنْ تطلبي ما تشاءين..أنت تعرف أني لا أعالج بأجر وأقصى ما أتمناه أنْ أرى العباءة مُبصرة كما كانت.

حسن أنكِ جئت بهذا الوقت أيتها العجوز لتشهدي تنصيب الأمير الذي يمثلنا قال الصدق.. نظرت إليّ العجوز نظرة رحيمة كنظرةِ المطر للمصابيح.

ابتسمت وهزت رأسها. كنت سأطلب منك هذا أيها الحكيم لكن كيف ستتلو المنهاج وقد نُزعت صفحات الإمارة الخمس من الكتاب؟، لا تقلقي أيتها العجوز الطيبة.. فأنا أحفظ هذه الصفحات عن ظهر قلب ووجدت انتزاعها حجة لأوقف تنصيب السخط ولكن دون جدوى.. اجلس على هذا الكرسي أمامنا أيها الأمير.. استجبتُ لأمره وجلست.. شرع الحكيم يتلو.. حسب منهاج آباءنا المختص ببناء الإنسان كقيمة عُليا المتوافر على الشروط والمقاييس اللازمة لتحقيق الاستحقاق في الإمارة، أجد هذا الرجل مستوفٍ لشروطِ الإمارة من سماع عين الجبل والعمل بحِكَمِها وتطابُق الجوهر والمظهر والتنزه من العيوب والتشوهات حسب رؤية المرآة وتعلق أماني القرية بشفائها من التشوهات باتباع إمارته. أعلنه أميرًا لقرية الأمنيات تجب له الطاعة وله الأمر والنهي فيما صلح من أمرها. وأضعه أمام مسؤولياته تجاه رعيته، أن يكون عادلًا في نفسه وحكمه تستوي لديه النفس والخصم.

وأنْ يكون أمينًا على حياة الناس وكرامتهم وأداء حاجاتهم وحماية قريتهم وتأمين سُبل العيش الكريم. ولا يحق له محاسبة أحدًا من العامة ما لم يستقم على منهاجه ويكون مثلًا أعلى. ولا يتخذ السلطان ذريعة للتعدّي على رعيته ولا يحكم لغاية في نفسه ولكن لِما تقتضيه المصلحة العامة، أن يكون مسؤولًا عن بناء الإنسان وتعليمه وتوعيته وتوجيهه للصلاح وبناء أسباب المعايش وإعمار القرية، وأن يكون حريصًا على تغليب الفضيلة وتربية النفوس وتوجيهها.. وظلّ الحكيم يتلو المنهاج وحين أتمّ قراءته دعاني لأداء القسم وسلمني عصى الإمارة.

اعذرني أيها الأمير.. فلم يتبق لديّ من قماشٍ موشّى أفصله ثوبًا لك.

لا أيها الخياط لن أرضى بغير ثوبي ولن يبق مسلوبًا.. سأرتدي بدلة القتال حتى أستعيده نحن نُعد قوتنا لمواجهتهم صحيح أنهم متكاتفون كحزمِ التبنِ لكننا سنكون الأقوى.

الآن أيها الأمير أنت الرجل الذي تستحق. قال الصدق..خرجنا عائدين للقرية كيف تجري تدريباتكم أيها الصدق.. نحن نتقدم كثيرًا وضوء الفجر يبذل جهدًا مضاعفًا وهو مخلص في عمله.. لكن ماذا عن الفلاح والراعي؟.

دعهم يستمتعون بعبوديتهم قليلًا وعليك أنْ توافيني عند الليل..

إنه ابن الكادحة الأكبر.. ماذا يا ابن الكادحة هل تستمتع بخدمة أميرك وخزه الصدق بقوله.. السخط ليس أميري، ردّ ابنُ الكادحة ولا ولاء له عندي هناك أمير واحد غائب أدين له بولائي.. لكنهم يستخدمونك في إمارة السخط.

أتظنني مغفلًا أيها الصدق، هؤلاء لا يأمن جانبهم مهما خدمتهم سيكون مصيرك كهؤلاء، وأشار إلى الفلاح والراعي المربوطان. إنهم يستخدموك وحين يفرغوا منك يرموك كرمية هؤلاء.. فماذا إنْ أخبرتك أنّ الأمير الغائب كان بيننا ولم نعرفه، فيما عرفه أعداؤه.. أتعني.. وظل ينظر إلي مصعوقًا نعم إنه أميرنا الغائب الذي كنا نعده غريبًا.. وهل انطبقت عليه الشروط؟ انطبقت جميعها ونصّبه الحكيمُ صدفة أميرًا وغدًا ستشهد

ذهاب تشوهاتك بفضل إمارته.. انكب ابنُ الكادحة يقبّل يدي سيدي الأمير. أنا في خدمتك ورهن إشارتك.. أنت متملق كذيل الكلبِ يا ابن الكادحة.. قال الصدق.

هل تتدرب جيدًا يا ابن الكادحة. نعم سيدي الأمير.. حسنًا لتكن مستعدًا للمعركة إذن ..

سيدي الأمير.. إنّ موقعك في نفسي كموقع الفجر بين الليلِ والنهارِ.

الفجر هو صُلحٌ بين النورِ والظلمةِ، وعليك أنْ تحدد موقفك.. أنا معك أيها الأمير فأمرني بما شئت، والسلم لا يعني اجتناب الحق.. أحسنتَ يا ابن الكادحة..

هل ما زلت تتعرض لبنت الفلاح؟.. لا أيها الأمير.. إنما هي لا تستحق أنْ تكون خادمة لأحد..

ألا تخدم أختك الأميرة .. أختي مجرد جارية صنعتها أمي الكادحة لتحتج بها عن بيع أخوتي للتاجر.

تنفستُ عميقًا على سلم الكوخ نسمات الليلِ الهادئةِ الأعصاب، تذكرتُ قولِ العجوزِ، دواء قديم لعلاج العباءة، كم أتمنى أن أراها مبصرة، أشعر أنّ ظلام عينيها يطبق على نفسي.. تُرى كيف عرفتْ إمارتي وهي عمياء.

ارتديتُ بدلةَ القتالِ في انتظار الصدق..

إنّ للنفوسِ ليلٍ كما لهذه الأرض، تحدث فيه الكثير من الخفايا في الحقيقة نحن لا نكون في نهار نفوسنا إلا أمام الناس.. بقدرِ ما تجري

من دسائس في ظلمة الليلِ، تجري مثلها في دهاليز النفوسِ وسراديبها الخفية. الليلُ يعرف عنّا أكثر، إنّه يراقب تسلّل الأفكار إلينا.

منْ هناك؟.. أنا أيها الغريب.. أيها الغريب أعلم أنك مَن أطلقتَ الدلو من تعذيب هؤلاء الجائرين. وليس لي من أحدٍ إلاك.. أرجوك أطلق سراح أبي إنه لا يجد من يحميه غيرك..

لست بحاجة لطلب هذا أيتها القلب الأبيض سأحرره فلا تقلقي..

كانت مُغيّبة بأمرِ أبيها وأفاقت على سؤالي.. ما هذه البدلة التي ترتديها؟ إنها بدلة الإمارة، أنا أمير هذه القرية أيها القلب.. حقًا أنت الأمير الغائب، إذن لهذا كانوا يريدون قتلك، كم نحن غافلون عما يجري حولنا.. ليس بعد الآن أيها القلب. هل من أخبار من القصر؟.. السخط يعاني من نوبة ألم تلازمه وقد صار ضعيفًا خائرًا.. هذا عقاب من يدّعي بملكِ غيره.. اسمعي إنْ لم تجدي أباكِ على الأشجار، فاعلمي أني حررته وسأخفيه عن ملاحقتهم وأعتني به، فلا تقلقي عليه.. لا أدري كيف أشكرك أيها الأمير. إنها تليق بك اذهبي الآن.. وصل الصدق بمغادرة القلب الأبيض وحين رآني ببدلة القتال قال.. أنت الآن صديقي الصدوق. صديقك من لا يحوجك إلى الكلام عنه خلف ظهره ولو بحديثِ نفس.. أكنت تذمني في نفسك أيها الصدق؟ ألم تكن تسمع ذلك.. وهززت رأسي بتوعّد إسكات حديث النفوس.

أنت جاهز أيها المحارب الشاب.. جاهز سيدي الأمير..على بركة الله.. انطلقنا نحو أسرى الأشجار، لم نكن بحاجة للحذر هذه المرة. حين

لمحنا الفارس القصير استلَّ سيفه. قابلته بضربتين قويتين أسقطته أرضًا ودُستُ على يده. دُستها حتى ألقى السيف.. فأسرع الصدق بالتقاطه، أبقيتُ السيفَ في نحره.. أنتما أيها الذليلان لا تستحقان الرحمة، لكني أراكما محسوبين عليّ وهناك من ينتظركما ويأسى لحالكما، ورمقتُ الفلاح بنظرةٍ عابرة. فك قيودهم أيها الصدق.. أنت أيها الفارس. اعلم أميرك أنّ يومه قد اقترب. أنتما خذا الحبال واربطوا الفارس للجذع كما ربطكما هيا.. صحت بهما.. فربطاه.

ما رأيكما لو تركتكما تحت رحمة هؤلاء يقتلونكما جوعًا وعطشًا وتعذيبًا أيها الخونة.

أيها الغريب.. إن كنت تستطيع حمايتنا فلن نعود لخدمتهم قال الفلاح. اتبعوني بسرعة. كان عليهما أن يمدوا حبلكما قليلًا لتكونوا الدواب التي تستحقون.

تجاوزنا ساحة القرية. اسمعا سآخذكما إلى الكهفِ وستبقيان هناك حتى يكفوا عن طلبكما وسيأخذكما الفارسُ الذي هناك لتتدربوا على القتال لتتعلموا الدفاع عن نفسكيما ضد عدوكما الأول.. أنفسكما الخاضعة المُهانة.. سنفعل ما تطلب منا..

أيها الغريب ما دمت أنقذتنا فحياتنا تحت تصرفك.. قال الراعي بشيءٍ من الأسف. إنما أريدكما أنْ تغنوا عن أنفسكما لا عنّي. ليست الكرامة ببعيدة المنال عمنْ يحرر عقله من اعتقال الآخرين.. دخلنا الكهف واستغرب الاثنان وجود الفارس. لا تستغربوا فهذا الفارس أصبح منّا

وهو حرّ. أيها الضوء هذان سيقيمان معك وستقوم بحمايتهما وتدريبهما أيضًا.. أمرك أيها الأمير.

كيف عرفت بالأمر؟.. زارني الحكيم ليؤنسني وأخبر بذلك.

ألم يكُن هذا الفارس أسيرًا لديك أيها الغريب.. بل كان أسير نفسه مثلكما تمامًا.

وربما يمكنه أنْ يجعل منكما أحرارًا وهو أصبح قائدًا لجيش القرية.

لماذا يناديك الفارس بالأمير.. بإمكانه إخباركما بكلِ شيء.. سأذهب الآن فلديّ ما اقومُ به.. انطلقتُ إلى مهمتي كان لديّ عزمٌ لم أعهده وأشعر أنّ ثقتي تتغذى من الخوارق، وبدأتُ أحوّل الهمّ إلى فعل يخفف العبء عني.

مررت عن بعد بمربطِ الفارس القصير، كانت تلسعه شتائم الفارس الضخم، سمعته يقول له ستبقى هنا مربوطًا بمكان من لم تحسن حراستهم حتى تموت مكانهم.. يالنذالتهم قلتُ لنفسي. إنهم لا يرعون ذمة أحد. سرتُ بمحاذاة البيوت حتى بلغتُ مقصدي قفزتُ من السياج بخفة وتوجّهتُ للداخل، رفعتُ فتيل الفانوس فأضاء الغرفة. استللتُ سيفي ووخزته به.. انهض أيها العبد فزع لمنظري ومنظر السيف فدفعته ليعود لنومته.. من أنت من أدخلك هنا؟ أنا الأمير أيها العبد الخائن.. أيُ أمير؟ الأمير هو السخط.. قال بصوت مرتجف..

أنا الأمير الغائب أيها النذل، ودفعتُ السيفَ برقبته، هل صرفت كل عبوديتك لأميرك الدعيّ؟. أنا عبدٌ مأمور ولم أفعل شيء.. كيف تريد أن

تموت؟..لا أريد أن أموت، أنا لا شأن لي.. لماذا حاولت تسميم الغريب بالفاكهة؟ تكلم وإلا غرسته بحنجرتك. أنا لم أفعل شيء.. إذن سأقتلك لأنك لم تفعل شيء..

هيا..افرغ جوفك قبل أن افرغت دمك.. لماذا حاولت تسميم الغريب؟..لست أنا..

انا مجرد عبد.. السخط.. السخط هو من أمرني بذلك.. السخط مرة أخرى.

السخط هو من جلب سلة الفاكهة. وتذكّرتُ وقتها ما أعطاه الفارس في شق الوادي وحمله السخط على رأسه..وو.. تكلم أيها اللعين.. جلبها من قرية التعدّي. ومن أين جاء بالسم؟.. ذهب إلى الغابة وجمع أنواعًا من الفِطر وعاد إلى عجوزِ الصفح وأخبرها أنه يريد أكله لكنه يخشى أنْ يكون به نوعًا مسمومًا. فأرشدته العجوز للنوعِ المسموم فخرج منها ورمى الفِطر وعاد للغابة وجمع كل ما يجده من النوع المسموم. وجاء به وقطعه قطعًا صغيرة وجعله يغلي حتى استخلص سائلًا منه وأخذ يحقن حبات الخوخ بهذا السائل بمقدار الكمية التي أخذتها للغريب. قال لي خذ هذا الخوخ واعطه للغريب وعليك أنْ تكون ودودًا معه حتى يطمئن إليك ويقبله منك وحاول أنْ تتظاهر بالنّية الحسنة أمامه حتى تقنعه بمودتك. لم أرد أنْ أحمله للغريب. قلت له : لماذا لا تذهب أنت وتهديه إليه؟. فقال إنّ الغريب يعرف أني أكرهه ولا أضمر له إلا الشر.. وإن ذهبت بهذه الفاكهة فلن يصدقني ويقبلها مني لأنه يشك بي..

وهو في غاية الحذر مني أما أنت فلن يشك في أمرك، فحملتها إليه رغمًا عني..

هل ستقتلني؟.. ولماذا يريد السخط قتل الغريب؟.. لأنه يراه منافسًا له على الإمارة.. وكيف دبّر السخط حيلة كهذه؟.. لم يكن هو.. كانت.. تكلم.. كانت الأميرة الكادحة هي مَن دبرت هذه الخطة وأمرت السخط بتنفيذها.. ومن كان ذلك الفارس الذي جاء بالفاكهة من قرية التعدّي.. الفارس الضخم.. هو دائم التواصل مع السخط، كان السخط يعده أن يكون قائد الجيش إنْ تولّى الإمارة.

فكان يساعده فيما يريد.. هكذا إذن.. نعم هكذا وأنا لا يد لي في شيء أنا مجرد عبد. أرجوك يا سيدي لا تقتلني.. ما دمت أخبرتني الحقيقة فسأعفو عنك هذه المرة. لكن اعلم إنْ أقدمت على إيذاء أحد من أهلِ القريةِ فسأطعم لحمك الخسيس للكلاب.. أتفهم.. أفهم سيدي، وإذا أخبرت أحدًا أنّ الأمير الغائب جاء هنا أو أنك رأيته فسأغير لون فراشك بدمك. هل سمعت ووخزته بقوة. سمعت سيدي كما تأمر. هيا أطبق جفنيك وأدر وجهك للجدار.. تركته وخرجت قفزتُ من السياج وصعدتُ باتجاه الكهف.. انقطعت أصواتُ البشرِ داخل القرية ولم يتبق إلا أصوات من أحسدهم على العيشِ بعيدًا عنهم.

فكرت أن أعود وأقتاد الفارس القصير إلى الكهف كأسير أتقي بأسره بحثهم عن الأثنين وأقايضهم بحياته على أمانهما لكني أحجمتُ عن الفكرة.

دخلتُ الكهف ولم أجد الفارس ضوء الفجر.. أين الضوء؟.. لا ندري، قال أنه خارج لقضاء عمل وقد لا يعود. قال لي ابق إلى جانب الأثنين.. تُرى أين يكون قد ذهب؟.. أتظن أيها الأمير أنه يمكن أن يخون عهده معك ويعود لرفاقه السابقين؟.. لا أظنُ أنه يفعل ذلك، إنه رجل صادق، وأنا أثق به.

سمعنا حركة ببابِ الكهفِ وخطر لي.. سللتُ سيفي. فإذا بالفارسِ القصير يدخل رافعًا يديه، وخلفه ضوء الفجر يضع السيف بظهره.. أدخله.. ابرك على ركبتيك وضع يدك فوق رأسك. نهره الضوء ما هذا أيها الضوء أسير نقايض به حياة هذان.. لقد خدعتني أيها الضوء، قال القصير. أَمنت لك ثقة بأيامك وظننت أنك تطلقني من قيدي وفاءً لما بيننا.. وهل بيننا وفاء؟ لقد خرجت عنكم، أنا الآن مع الأمير. لقد سئمت إجرامكم بحق الأبرياء.. أنت قل لي، ووضع السيف على رقبته هل بيننا وفاء..؟ أنت من يجب أن يثبت وفاءه لأيامنا السالفة أيها القصير. أعدك إنْ كنتَ وفيًا معي، فسأطلق سراحك ولكن ليس قبل أنْ تخبرني بالحقيقة كاملة، فإن كذبت أوتحايلت عليّ قتلتك غير آسف عليك ورميت لحمك لوحوش البرية كما كان يفعل آمرك المجرم.

عن أية حقيقة تتحدث؟ انظر أيها القصير، نحن نعرف أننا كنا المسؤولون عن القيام بدوريات ليلية لحراسة المزارع من لصوص الفقر. وأظنك تذكر تلك الليلة التي أمسكنا بها بشابين يلصان الطعام لأهلهم وقتلهم الفارس الضخم بوحشية .. أتذكر ذلك؟ نعم أذكر ذلك جيدًا..

تلك ليلة لا تُنسى وتذكر أني تعاركتُ معه وقتها وقلت له.. لن أخرج معك وأنت تقتل المضطرين بجوعهم.

أجل حدث هذا.. ثم أنه هددني بالقتل وعمد إلى من يرأسونه إلى معاقبتي على عصيان الأوامر وتسبب بسجني لستة أشهر. انقطعت خلالها أجوري ومؤونتي لأهلي. ولمّا خرجتُ علمتُ أنّ أبي ملء السنابل قُتل طعنًا على الطريق المؤدية للمزارع. وأنا على يقين أنك تعرف شيئًا عن حادثة مقتله.

فإن أخبرتني بالحقيقة، عفوت عنك وإن كتمت أقسم أني سأقطعك بمقدار ما تقطع قلبي على أبي وصرخ ضوء الفجر صرخة مدوية بغضبٍ عارم.

طأطأ القصير رأسه وخفض يديه.. سأخبرك أيها الضوء سأخبرك بكل ما أعلم لأن ما رأيته تلك الليلة شيء لا تصطبر على إخفائه.. عندما حصل الخلاف بينك وبين الفارس الضخم رأيته يكن حقدًا عميقًا تجاهك وكان مبتهجًا بإيذائك ومسرورًا بعقوبتك وانقطاع قوت أسرتك. وحين كنت بسجنك خرجنا بدورية ونصبنا كمينًا قرابة الفجر فسمعنا صوتًا ترصدناه حتى تبين لنا أنه رجل يحمل كيسًا من ثمر وخضار المزارع خرجنا من بين الدغل وفاجأناه.

فلم يهرب وسلم دون مقاومة. وكان ملثمًا كشف الضخم عن وجهه وابتسم ابتسامة صفراء وردد يبدو أنّ الحظ يريد إرضائي تمامًا.

ماذا تفعل أيها الرجل؟ أجلب قوت عيالي الجياع.

بسرقة أملاك الملك..؟عليك اللعنة وعلى الملك أيها الحقير ردّ الرجل بغضب وهو يرتجف.. تسرق المزارع وتشتم الملك أيضًا.

اسمع أيها الفارس أنا أعمل في هذه المزارع الحقيرة منذ الصباح وحتى المساء. ولا أحصل إلا على أجر ثلاثة أيام في الأسبوع وقد تركت عيالي ينامون جوعًا وأنا آخذ أجر عملي الباقي الذي يغتصبه الملك وأتباعه.

فلطمه الفارس الضخم لطمة شديدة وأمسك ثيابه وهزه. تعمل في المزارع نهارًا وتسرقها ليلًا أيها الوضيع.

أنت هو الوضيع وأنا لا أخافك. لو كان لديك أطفال ينظرون إلى وجهك وكأنك سمائهم وصفرة الجوع تخطف لونهم لِما لمتني على ما أفعل.

ما اسمك أيها السارق.. فصمت الرجل.. إنه لا يجيب وظلّ الضخم يسخر منه.. ولا يعتبر نفسه سارقًا.. حسنًا ما اسمك أيها الرجل.. السارق اسمي ملء السنابل. وليكن في علمك إن ولدي أحد فرسان الملك وهو يعمل في حماية المزارع مثلكم تمامًا. لكنه رحيم بالناس ويقدّر حاجتهم ويعرف أنّ الناس يسرقون ما سرق منهم الملك بسطوته من حق عيالهم. ولولا اضطرارهم لما كانوا يفعلون.

إذن أنت تعمل في المزارع وتسرقها وابنك يحرس المزارع بتسهيل سرقتك لها وهو متواطئ معك ومع اللصوص وهو خائن للأمانة فكلاكما يستحق الموت.. أتظن أننا أحياء لنموت، إن الموت لأهون من عيش تقصر فيه يدك عن أفواه جياعك.. وما اسم ولدك فارس الملك؟ اسمه ضوء

الفجر.. يا له من تواطئ.. اسم ابنك ضوء الفجر وأنت تسرق بضوء الفجر.. أعدكَ أن أطفيء الضوءين معًا وأنهضه بقوةٍ وربطه بحبلٍ خلف حصانه.. الآن أيها اللص ستدلني على بيتك، حتى أعرف من يكون أبنك وأبلّغ المسؤولين بفصله من فروسية الملك. وحتى تنفى عائلتك خارج القرية.

اعتلى صهوة جواده وسار والرجل يسير خلفه موثّق اليدين ويسقط أحيانًا فيسحله الحصان لمسافة. حتى اقترب الرجل من بيته فترجّل الضخم واستلّ سكينه وطعنه بصدره خمس طعنات. وهو يقول إنْ كان لك أنْ تشبع فلتشبع من الموت. وهو ينظر في عيني الرجل الذي يتهاوى حتى خرّ صريعًا.

لقد كان يعلم أنه أباك وتصادفت هذه الدورية وأنت بسجنك وتصادف أن أمسك أباك يسرق ليجد انتقامه بأيسر السُبل وأقسى الأساليب. كما أنه كان يعرف بيت أسرتك أيضًا. وإنما أخذه وقتله قرب بيته حتى يضمن لأهله الفجيعة. التي تشبع انتقامه خشية أن تأكل جثته الضواري لو قتله عند المزارع. لقد كان هذا أقصى حقد رأيته بحياتي.

وأنتم.. قال الضوء وعيناه مسبلتان بالدموع لماذا لم تخبروني؟ لا تلمني أيها الضوء فلست على استعداد لأدفع الثمن الذي دفعته أنت بسبب موقفك منه. وأنت تعرف أنّ له سند وقرب من الملك يخوّل له سحق من يعاديه أو يقف في وجهه. ولهذا لم يكُن لدى أحد منّا الشجاعة أنْ يخبرك.

كما أنه هددنا أنه سيقتلنا مع أسرنا إن حدثنا بأمرِ مقتل أبيك.

حسن أيها القصير أعلم أنكم أعدائي. وأنّ لي عندكم ثارًا هو قتل أمي وأبي لكني لن أقتلك. لأني لا أقتل أسيرًا، لكني أعدك أن أخمد هذا الظلم الذي يلتهم ثياب الأبرياء..قد صدقتني أيها القصير ووفيت حقي عليك فأنت حرٌ طليق.

نهض القصير وخرج من الكهف وكان ضوء الفجر ينتحب قمت واحتضنته، لا تبكِ أيها الفارس أعدك أن تكون الأمور كما تشاء.. التفت إلى الصدق أنت أيضا تبكي أيها الصدق.. ما قيمتي إن لم أشعر بظلم الناس، ليتني أستطيع شيئًا، أنا لا أملك أنْ أقف معك إلا بالدموع أيها الضوء. وأنا معك في ثأرك لكنه لن يعيد ميتًا.. أنتما أيها الفلاح والراعي أرجو أنْ تكونوا قد عرفتم من تخدمونهم، هل عرفتم أيها الذيول المعوجه، ليتكم كنتم حتى ذيولًا قذيل الكلبِ لا يخلو من الوفاء.. أقدر حزنك أيها الضوء على أبيك وقد فعلت ما أراح قلبك بمعرفة حقيقة مقتله. لكنك لم تحسب لكشف مكاننا من الفارس القصير. وأخشى أن يهاجموننا هنا إن أخبرهم أنك انضممت إلينا فلن يبقى سبب يرغمهم على الكفّ عنا.. أنا مستعد لقتالهم.. لست وحدك لكن عليكم أن تضعوا حراسة خلف الكهف تنبهكم إن هاجموكم فتنتقلوا إلى شِق الوادي هآ قد طلع الفجر.. هيا أيها الصدق، نزلنا من الكهف كان السفح معشبًا كنفس مؤمنة.. ألا تلاحظ شيئًا أيها الأمير.. ماذا أيها الصدق؟..الهواء.. طعم الهواء كطحين لقاح النخل. حقًا أيها الصدق، صار الهواء أكثر نقاءً وهذه الأزهار أيضًا خلت من النقص والفراشات كثيرة.. انظر أيها الأمير، ابن الكادحة يتجه للحقل

والعبدُ الأكبر يخرج بالقطيع. لن يعدمو أدواتهم عبر الزمن هناك بساط من العبيد على امتداد الزمن.. ألا تشترون الثمار انظروا إنها ثمار خالية من التشوّه حتى الأشجار شفيت ثمارها من التشوّه.. هل ترى أيها الغريب كل هذا بفضل إمارة الأمير سخط.. لكني أرى أنّ تشوهاتك ازدادت. سأشفى لاحقًا لا شك لديّ في هذا، هذه أول بوادر الإمارة المستحقة.

أعدك أنْ تزداد تشوهاتك حتى تختنق تحت تعدد وجوهك.. لن تحصد فرصة الشماتة أيها الغريب وأما تعدد الوجوه فهو اختيار لا تشوّه.

خرج أهل القرية مبكرين يبشرون بعضهم بالشفاء من التشوّه..أتسمع ما يقولونه إنهم يباركون إمارة السخط وينسبون شفاءهم إليه.. حتى الشيطان لن يعدم الاتباع. زالت تشوّهات البعض ولم تذهب بعيدًا فقد وجدت أهلًا لها من اتباع السخط. انظر ما حلّ بهم من تشوّه قد صاروا مسوخًا، ومع هذا فهم يعتقدون أنّ السخط سيشفيهم شفي البعض بمرضِ البعض الآخر.

يبدو أنّ العباءة تشاركهم فرحتهم. لا شك أنّ الشفاء أيقظ القرية مبكرًا، توجهنا نحوها وهي تجلس على كرسي العمى. ودهشنا حين رأيناها تلضم الخيط بخرزِ المسباح بسرعةٍ فائقة. ما هذا الذي تفعلين هل.. رفعت رأسها والتمع الضوءُ في حدقها الواسع وابتسمت عيناها وتموّج الفرح بمائها..

أنا أبصر أيها الأمير.. لم يتمالك الصدق نفسه وارتمى بحظنها وهو يبكي..

إذن نجح دواءُ العجوز في شفاءك. نظرت إلي باسمة وردت لعله كذلك.

أسرعتُ لبيتِ العجوز ففتحت الباب بوجهي قبل طرقه وكأنها كانت تعلم بقدومي. لقد شفيت العباءة عاد إليها بصرها، ابتشرت لفرحتي وابتسمت وهزت رأسها. شفيت بفضل دواءك أيتها العجوز المباركة.. ابتسمت العجوز وقالت: إن الشمس لا تأنس بضوئها بقدر الظلال التي تصنعها.. قاطعها صوت المتقلب يصيح في القرية.. نحن كنّا أولى بالشفاءِ من الآخرين.. نحن حاشية الأمير ومُقربيه. لكن عدل الأمير كان أقرب للضعفاء من العامة فشفاهم.

وحملنا تشوههم وعيوبهم. لأنه يعلمُ أننا مؤمنون بإمارته فأجّل شفاءنا بمقدار صبرنا وإيماننا وثقتنا بإمارته المباركة.

وهذا النوع من العمى.. ألديك دواء له؟ وأشرتُ للمتقلب..

إنهم يرون على مد العمى، وإن كان المرض اختيارًا فلا شفاء له إلا بالفرض هناك أناس ستظلمهم إن تركت زمامهم بأيديهم، من فشلوا في قيادة أنفسهم وأدمنوا سوقهم كالغنم. وهناك جلود تتيبس بغير العصى وأنّ الظالم أول ما يظلم نفسه، إنهم لا يستحقون أن تأسى عليهم ولكننا نأسى أنهم يشاركونا في مسمى الإنسان.. دعتنا العجوز إلى تناول الإفطار عندها احتفاءً بإبصار العباءة.. أودُ أن أسألك.. وقطعتُ عبارتي حياءً.. تسأل عن ماذا أيها الأمير، لا شيء لا شيء أيها العجوز.. قل يا بني ولا تخش إحراجي.. أعدكَ أني سأجيب سؤالك.. ولكن.. أنا اسمع.. هل صحيح أنّ السخط جاءك ومعه عدة أنواع من الفِطر.. قد عرفتُ قصدك.. حين أصبت بالتسمم عرفتُ أنّ المادة المسمومة مُستخلصة من فِطرٍ سام

فقد بدت أعراضها عليك وأنا من دللته على النوعِ السام مصدّقة ما ادعاه من أنه يريد أكله فاستخدمه لتسميمك، أذكر هذا...تذكرين !..نعم يا بني أذكر..لكني أعرف أنك تنسين ما جرى بالأمس.. ليس بعد ألمِ الحرق أيها الأمير. كنت أنسى تخففًا وتنزهًا وأحاول أن اعيش بذاكرةِ اليومِ الواحد، ذاكرة لا تحمّلني عبء التذكّر والعودة للماضي وأكون نقية من دونها، إنّ للذاكرة موقف يدس الفتنة بيننا وبين الناس ويغير نظرتنا لهم على حدثٍ مضى، ولم أكن أريد أنْ يمد الماضي يده إلي بذكرى إساءة من أحدهم، فآخذ بها وأبني عليها موقفي منه، ولكن أجعل موقفي لقناعتي ومبدأي وطُهر نفسي، فأغلب هوى نفسي وأتطهر من نظرة مغبرة، بالأمسِ حاولتُ أنْ أُرِي الآخرين أنّ بإمكاني أنْ أقبلهم على أخطاءِ الأمس، كل يوم أعيشه وأتجاوز عنهم لأحفظ نفسي أولًا من درن حسابهم وانتقاصهم والاعراض عنهم.

وتعلم أني كنت أطبب ألم الأجساد بالدواءِ وأطبب كذلك ألم شعورهم بالذنبِ تجاهي وبالتجاوزِ والنسيان والعفو. فأكون بنفسٍ بيضاء شفافة ورقيقة كالماء لا تبقي من أثر، لِما يخط عليها الآخرون من إساءة.

لكني حين احترق جسدي كان مقدار الألم قد أيقظ كل غافية ومهملة نسيتها وغفلتها. الألم وحده هو الذاكرة التي لا تُمحى. وإن كان الألم عظيمًا تجاوز عظمة النفس على العفو. لم أكن أريد أنْ تأتي خفافيش الإساءة وتلتصق بجدران ذاكرتي فتسودها، لكن استشاطة النفس أفزعت الرقاد الماضي فهبّ ليعيش من جديد. وما أسقطته عن ظهر نفسي لأبقى حرة، حرون عاد يتألفني

ويمتطي موقفي ويغشى عيناي. يمكن للإنسان أن يعفو بإلغاء ذاكرته تجاه أحدهم. لكنه لن يستطيع إلغاء الألم وتجاوزه إذا لمس روحه. ولو لم يكن الحادث مقصودًا لِما كنت الآن أتذكر كل إساءة مرّت بحياتي الماضية.

أأنت واثقة أنّ الحادث كان بفعلِ فاعل.. ؟ أجل أيها الأمير كان فاعلًا وقد عوضني الله عن ألمي بتذكّر الماضي ورؤية المستقبل فعرفت أنّ من أراد قتلك بالسم هو من أحرق منزلي..

إن يسعى السخط لتسميمي فهذا لأنه يراني منافسه على الإمارة..

فلماذا يحرق منزلك أنتِ.. حاول قتلي حرقًا لأني كنت سببا في إنقاذ حياتك من سمومه وأفشلتُ غايته.. فانتقم منّي بحرقي وأنا نائمة..

وإنما عوضني الله بالتذكّر لحماية نفسي وحفظ حقوقها في التعامل مع الناس.

فالإسراف في العفو غفلة مذمومة. ولو كان الحادث صدفة لما استفاقت ذاكرة النسيان وأصرت على الحضور بكل أيامها الخالية. إذن كما قلتِ لعل ما حدث فيه خير.. تمامًا أيها الأمير.. أتدري ما هو الخير في هذا؟. أحيانًا يكون الخير في نفسك هو رزق غيرك أكثر مما هو رزقك. وأنّ الله يستخدمك في الخير لغيرك..

استفدتُ من عودة ذاكرتي بتذكّر دواء قديم وهو سلسال الدمع..

كنتُ يومًا قد عالجت به شابًا فقد بصره لكثرة نظره للشمس فشفي وأبصر، ورجوت أن أعالج العباءة بهذا الدواء، وقد أبصرت بفضل الله

أرأيت إنّ ما حدث كان خيرًا.. رأيت أيها العجوز.. سمعنا أصواتًا بعيدة فأطلّ الصدق من النافذة. إنهم يجتمعون، نظرتُ فرأيت السخط والكذب والفرسان والناس، أيها الصدق اذهب وانظر لنا ما يحدث.. قفز الصدق خارجًا وانضم إليهم ومع فتح الباب دخلت القلب الأبيض وعلى وجهها فرح يتموّج.. أحقًا ما سمعت أنّ العباءة أبصرت.. صحيح أيها القلب أبصرتُ وبإمكاني أنْ أرى جمالك يا عزيزتي.. واحتضنت العباءة.. كم أنا سعيدة بك.. كيف حالك أيها الأمير، أريد أنْ أطمئن على أبي.. اطمئني هو بخير وأمان وقد أبعدته عنهم.

لا أدري كيف أشكرك على إنقاذِ أبي.. إنها مسؤوليتي فلا شكر عليها.

صادفت ابنة القاضي وقالت إنها تريدك في أمرٍ هام.. اخبريها أنْ تأتي لبيت الحكيم صدفة وسألتقيها هناك. قمتُ أنظر إلى النافذة، كان العبدُ الأكبر والصدق يخرجان من كوخي عُدت لجلستي.. أنا أيضًا أريد أن أشكرك أيها الأمير على أنك أصلحت حال ولدي الليّن بصحبتك. كنت أفكر أنّ لينه مرض لا يشفى. حتى أني فكرت ببيع قلادتي ذات الأحجار السبع لعلاجه عند أطباء الملك.

لكنها فُقدت كما تعلم..أحجار سبعة.. تساءلت القلبُ الأبيض لقد رأيت قلادة بهذا الوصف على عُنق الأميرة الكادحة.. هل أنتِ واثقة أيتها القلب؟.

نعم واثقة كانت الكادحة تقلبها وتتمعن بأحجارها وتشكر السخط على إهدائها قلادة ثمينة كهذه.. كيف وصلت القلادة إلى السخط وكنت اخرجتها من بيتي وقت عماي حتى لا تُسرق وقام الصدق بدفنها في وسط الغابة..

أظنُ أني أعرف كيف وصلت أيها العباءة.. قال الصدق إنه دفنها في الغابة ليلًا ولا شك لدي أنّ غراب السخط استدل عليها وأخذ السخط إلى مكانها فاستخرجها وأخذها فقد درّبه السخط على هذا. وكان الصدق اختبر الغراب بدفنِ أشياءٍ على مرآه فاستدل عليها.. ستستعيديها أيتها العباءة ثقي بذلك.

دخل الصدق راكضًا يلهث.. ماذا حدث أيها الصدق.. أعدّوا لك محاكمة غيابية بحسب اوامر السخط.

القاضي قرأ لائحة التُهم الموجهة إليك وهم يرون أنك منذ قدومك للقرية بدأت الجرائم تتلاحق، اتهموك بسرقة المرآة وكسرها..

والتسبب بتشوّه الناس واتهموك بنزع صفحات الكتاب تآمرًا على ولاية السخط المستحقة، وسرقة ثوب الأمير سخط الموشّى بخيوطِ الذهبِ وسرقة مقتنياته أيضًا، وتهمة أخرى هي محاولة قتل عجوز الصفح بإحراق بيتها، لقد افتعلوا قصة تجرؤ دلو الكلام عليهم كانت فخًا لجرّك إلى ما يريدون من إنقاذه لتخرج من كوخك فيزرعون دلائلًا تدينك.

دخلت الكوخ معهم ورأيت مزقًا صغيرة تملأ أرضية الكوخ من صفحات الكتاب وقطعة أخرى مكسورة من المرآة وأشهدوا الناس على رؤيتها داخل كوخك ليقنعوهم بقيام الدلائل على انك كنت وراء هذه الجرائم.

شعرت أنّ الناس صدّقوا تلفيقهم وأصدر القاضي الحكم عليك بالنفي من القرية وأنّ للأمير سخط حق قتلك إنْ لم تنفذ الحكم بالمغادرة خلال يوم واحد من اصدار الحكم.

لقد أخضعوا القاضي لتنفيذ ما يريدون.. لماذا تضحك أيها الأمير.. وماذا تريدني أن أفعل غير ذلك!.

سنرى من هو المجرم أيها السخط.. تذكرتُ شيئًا أيها الأمير.. قالت القلب الأبيض تذكرتُ الثوب الذي أهدته لك الأميرة الكادحة بيد أخيها ليعطيه للصدق فيهديه لك، سمعتُ الكادحة تقول للسخط لو لا خطتي لَما كنت ترتدي هذا الثوب الأميري الجميل.. فشلت الخطة الأولى حين أهدينا الغريب ثوبًا لينزع ثوبه فنحصل على فرصة لأخذه وأعاده لنا مع عبارة مُهينة. وبقيت مغتاظًا وحاسدًا له على جمال ثوبه ولم يهدأ لك بال حتى أعددت خطة أخرى جعلته يخلع ثوبه فنحظى به.. كان يقول لها كانت خطة مريعة لكنها حققت غرضنا بضرب عصفورين بحجر..

هذا دليل على أنه من حاول قتل العجوز بحرق بيتها كان حرقها انتقامًا لعلاجها إياي وحرق بيتها لأضطر في اعماره لنزع ثوبي فيسرقه..

سيكون حسابك عسيرًا أيها السخط..

هممت بالخروج فاستوقفتني العجوز.. أريد أنْ تأتي إلي في صباح الغد هناك أمر أريد إطلاعك عليه.. حسنًا سآتيك أيتها العجوز.. سرتُ نحو الكهف إذ لم يعد بإمكاني البقاء بكوخي أصغيت لنفسي.. يجب عليك حماية أهل القرية لتستطيع كسبهم وضمهم إليك واستعادة الناس من سلب البُغاة مسؤوليتك.

يجب أن يلتف أكبر عدد منهم حولك لتحارب من تمرّد وتُأمن من استضعف منهم.

ويجب أن تتوافر على الدلائل لتدين إجرامهم وتفضحهم..

وصمت الصوت. لكن هذه المرة لم يكن صوت الصدق إنه صوت الحكيم صدفة. كنت قد سمعته سابقًا لكنه كان بعيدًا حتى يصعب سماعه أما الآن فهو واضح حتى كأني أراه.. دخلتُ الكهف فوجدت ضوء الفجر يدرّب الفلاح والراعي على القتال، هذا رائع أيها الضوء نحن نستعيد أهل القرية حتى لا يبقى لدى جماعة السخط أدوات يعملون بها.. نحن طوع بنانك أيها الأمير، قال الفلاح. قد رأيت ابنتك وكانت تريد الاطمئنان عليك.. ليتك تستطيع انتزاعها من الخدمة أيها الأمير.. إن أردت ذلك فسأفعل لكني تركتها هناك في مهمة.. ماذا تعني؟.. أعني أنها تمدنا بأخبار القصر التي تفيدنا في حربنا.. ابنتي العزيزة هل عليّ أن أفخر بها أم أخاف عليها. بل تفخر بها ولا تخف عليها فإنها مُؤَمَنة.. انتظرت قدوم الليل بفارغِ الصبر وانطلقتُ في مهمتي التالية.. انهض أيها الخائن.. فزع وارتبك حتى كاد قلبه أنْ يتوقف من أنت؟.. أنا قاتلك.. ماذا تريد مني؟.. أريد أن أنفّذ بك بعض أحكامك التي أطلقتها عليّ اليوم.. أنت أيها الغريب.. نعم أيها القاضي الخانع المتآمر على أهلك والخائن لأمانتك. أنا الغريب، ونزعت قناعي.. أرجوك أيها الغريب لا أستطيع عصيانهم، أنا مُستضعَف ولا أجدُ من يحميني وابنتي منهم.

بما بعت نفسك لهم أيها القاضي.. بعت نفسي بحياة ابنتي..ماذا تقول؟ نعم أيها الغريب إنهم يهددوني بقتل ابنتي. استحيتُ من وضع سيفي عليه واعدته لغمده سحبت كرسيًا وجلست قربه، اصدُقني أيها

القاضي أأنت من اخترت خيانة أمانتك والانضمام للسخط أم أنك مُجبَر على هذا؟.. صدقني إنني مجبر فأنا أعرف مدى إجرامهم لكني لا أجدُ ملجأً من سطوتهم حدثني بما تعرف وكيف أجبروك على تنفيذ غاياتهم ولماذا.. أتضمن حمايتي أيها الغريب. أضمنها لك ومعظم أهل القرية اليوم معي حتى أنهم لا يجدون من ينفذ حكمهم عليّ إلا الفرسان الغرباء.

عرفت أنك تأوي الفلاح والراعي وتأمنهم وتحميهم وأن أحد الفرسان انشق لصالحك.. إن حميتني فسأبوح لك بكل ما أعرف، اجلس أيها القاضي وقل ما عندك وأنت وابنتك في حمايتي..

بدأ الامر بأني خُدعت إذ جاءني السخط وقال لي أيها القاضي تعال معي وأمسكني من يدي وهو مضطرب..

ماذا هناك؟.. هناك شخص في البئر القديمة أسمع صوته وأنينه أرجوك ساعدني كي نخرجه. وحين وصلنا للبئر استغل السخط اندفاعي وانخفاضي على البئر لأنظر إن كان ثمة أحد فدفعني وأسقطني في البئر، تألمتُ بشدة وصحتُ به لماذا فعلت هذا بي؟.. فأجابني ساخرًا لأني كنتُ أسمع صوتك وأنينك في البئر فهممت لإنقاذك هذا إذا أردت إنقاذ نفسك بتنفيذ كل ما آمرك به. وإلا جئت بابنتك وجعلت دمها يقطر عليك حتى قطرة الروح فألقيها عليك وأطمر البئر فوقكم وأدفنكم أحياءً.

لا. صرختُ به إلا ابنتي أرجوك أيها السخط لا تؤذي ابنتي افعل بي ما تشاء لكن لا تمس ابنتي بأذى.. لا شك إنّ ابنتك الوحيدة عزيزة عليك وتحب إنقاذ حياتها، لكن القرية لم تعد بحاجة إليك. حين يموت القاضي

سأكون أميرًا بلا معارضة أحد ولست بحاجة لوجودك، لذا سأقتلك جوعًا وعطشًا لكني أطمأنك أني سأُلحِق بك ابنتك قبل أن تموت.. أتوسل إليك أن لا تؤذي ابنتي.

سأفعل إذا توسلت إلي أن أسمح لك بتنصيبي أميرًا.. لكن ما حاجتي إليك ولقضائك، سأختصر الطريق على نفسي أقتلك وأعلن نفسي حاكمًا رغمًا عنك وعن الجميع وضحك ضحكة مستهترة وتركني في غيابة البئر أعاني ألم سقوطي وخوفي على ابنتي وأنا معزول ومُحتجز عن العالم بأسره بل إنني لا أستطيع شيئًا لنفسي..

هبطت ظلمة الليل الأولى وأنا أفكر بألم ابنتي حين تتفقدني..

علمت ليلتها أنّ السخط أمر العبد الأكبر بالبقاء قريبًا من البئر حتى لا يتسنى لأحدٍ معرفة مكاني وإنقاذي، كان أول الأمر يريد قتلي بإصرار وتعيين الشيخ كذب قاضيًا للقرية.. كنت في ظلمة سحيقة لا يخرج منها إلا دعائي يتملكني الخوف على ابنتي في ذلك الوقت كان السخط ينتظر موتي عطشًا وجوعًا ليردم البئر على جثتي، وكان قدوم الفارس الضخم الذي كان على تواصل دائم معه قد أنعش غايته فشجعه على المضي بخطته ووجهه أنّ عليه إحضار جثة إلى القرية على أنها جثة القاضي ودلّه على جثة دُفنت حديثًا تعود لرجل من قرية التعدّي كان يعمل في مزارع الملك اضطر بجوعِ عياله للسرقة، فقتله الفارس الضخم وكان هذا الرجل المقتول هو والد أحد الفرسان الخمسة الذين جاءوا قريتنا وأظن أنه الفارس الذي انشق عنهم.. دلّ الضخم السخط على قبر الرجل

فقام السخط بنبش قبره واستخراج جثته وأمره الضخم بإحراقها لإخفاء ملامحها لتصلح للادعاء أنها جثة القاضي.. يا إلهي ما هذا الإجرام، قلت.. أرسل السخط حينها العبد الأكبر ليذهب ويدعي البحث عن القاضي، فأخذ أبنته ليبحثا بعيدًا حول القرية.

وفي هذه الأثناء اغتنم السخط الفرصة ودخل بيت القاضي وسرق وشاح القضاء وكانت المصادفة أنّ الرجل المقتول يحمل عصى شبيهة بعصى القاضي مع اختلاف قليل ويرتدي صدرية من الجلد تختلف في تصميمها عن صدرية القاضي، كانت تحوي ثقوب خمس لطعنات سكين في منطقة الصدر وعليها آثار دماء نزعها السخط عن الجثة وأخذ العصى وأحرق جثة الرجل حتى غابت ملامحها تمامًا وأحرق العصى ببعض الأماكن وحرق وشاح القضاء من أطرافه وأصبحت مُعدة بالدلائل لتعود للقاضي، فحملها السخط والكذب للقرية وادّعوا للناس أنها للقاضي وقد انتحر بقتل نفسه حرقًا بسبب إهانة المرآة.

كنت حاضرًا وقتها ورأيتهما يتباكيان ولم أصدق ادعاءهم عقّبت..

وبعد مضي يومان بلا ماء ولا طعام كنت أفقد طاقتي على البقاء سلمت بخوفي على ابنتي وتحت وطأة العطش والجوع فاجأني السخط وقال لي: قد أنهيتُ مراسم موتك أمام الناس، هل تطلب شيئًا آخر غير الموت؟.. ولم يبق إلا أن تلفظ روحك..

وأنا مُجبر قبل هذا لأن أدعوك إلى عُرس ابنتك العزيزة، فهي ستتزوج الشيخ كذب بعد موتك حتى لا تفقد كونها تمُت للقضاء بِصلة فإن مات

الأب القاضي يعوضه الزوج القاضي، ما رأيك ألست أرحم بابنتك منك.. ثم حدث ما كان خارج الحسبان والذي كان سببًا في بقائي حيًا حيث رفض الضخم أمر تعيين الكذب قاضيًا لأنه فشل في مهمته السابقة، ووفق هذا أصبحوا بحاجة للقاضي لتنصيب السخط خاصةً مع علمهم بعدم قبول الحكيم صدفة للمقايضة والخنوع ولم يكن أمامهم وقتها إلا مقايضتي على حياتي وحياة ابنتي لتنفيذ رغباتهم كان العطش والجوع قد هدني حتى صرت أفيق من الإغماء على الإغماء وحتى صار صوتي لا يصل لفم البئر..

توالى سقوط أحجار صغيرة في البئر وسمعت صوت الصدق، هل من أحدٍ هنا؟.

فأجبته أنا القاضي، فسألني من رماك هنا؟.. أردتُ أن أقول، لكني تذكرت ابنتي..

وخفت عليها فقلت له أني أنا الذي وقعت، كنت مستسلمًا للموت تمامًا وأنتظر حلول الظلام ليخرجني السخط كما وعدني بعد أن أبرمت اتفاقًا معه على تنفيذ كل ما يطلبه مني بشرط ترك ابنتي وعدم قتلها. تحت الضغط والاستسلام لسطوة الموت. فأراد الصدق أنْ يجلب لي طعامًا فقلت له لا حاجة ولا تخبر أحدًا أنك عرفت مكاني وكان هذا أول التزامي بالاتفاق ما دمت في البئر وابنتي تحت رحمة ذلك المجرم. وحين وعدت السخط بتنفيذ غاياته والتزام أوامره أخرجني مع الظلام إلى بيته وأعطاني الماء والطعام عناية باتفاقه. وأخذ يملي علي ما سأقوله أمام الناس وما أدّعي به.

قد أخبرني الصدق بمكانك وجئت في الليل لإنقاذك لكننا لم نجدك في البئر حقًا أيها الغريب.. هذا ما حدث أيها القاضي كنا مضطرين لانتظار دخول الظلام حتى لا يرانا العبد الأكبر الحارس.

وخرجتُ إلى الناس وانا أحتقر نفسي وضعفي واحتكمت لأوامرهم وإملاءاتهم في تنصيب السخط وإنها لجريمة أستحق عليها الموت، ثم دبروا لك لمحاكمتك ونفيك واصطنعوا الدلائل لإدانتك بجرائم لا تعدو فعلهم هم، سامحني أيها الغريب.. لم يكن بيدي حيلة كنت عاجزًا عن الدفاع عن نفسي فضلًا عن حياة ابنتي وأهل القرية شاركتهم مضطرًا بهذه الجرائم.

ولهذا طلبت رؤيتك، جاء صوت من الباب. قد سمعت حديثكما.. أردت أن أعطيك هذه الدلائل التي تدين السخط بسرقة وشاح القضاء وحرق جثة الرجل المظلوم وألقت أمامي العصى المحرّقة والصدرية المثقبة، هذه العصى ليست لأبي وهذه الصدرية تعود لوالد الفارس المنشق وعليها طعنات الضخم ودماء البريء احتفظ بها أيها الغريب فلا بد أن يأتي أوانها.

أحسنتِ يا ابنة القاضي، ليس هذا فقط لكني أريدك أن تنقذني من فكرة زواج الشيخ كذب بي فأنت تعرف أنّ أبي مستضعف لا يملك من أمره شيئًا وليس لدي من يحميني.

أتوسل إليك أيها الغريب دعني أنا فقط أحمي ابنتي..

كن مطمئنًا أيها القاضي سأحميكما معًا.. خذي هذه الدلائل معك يا ابنة القاضي هيا تعالوا معي. ستقيمون في بيت الحكيم صدفة وأطمأنكم

أنّ فرسان القرية يحرسون البيت.. ومنذ متى صار للقرية فرسان، قالت الابنة..

منذ فترة ليست بالطويلة ونحن ندربهم على القتال على يد الفارس ضوء الفجر الذي انضم إلينا هيا لنخرج.. أيها القاضي أنت وابنتك في عهدتي فلا تخش شيئًا.. وأنت أيها الغريب احفظ هذه الحقائق التي سمعتها مني فإني أخاف أن يقتلوني.. لن يجرأوا وأنت معي فأطمئن وأعدك أنْ تحاكمهم عدلًا كما حاكمتني ظلمًا.

خرجنا من القرية والقاضي يتلفت خائفًا.

وصلنا لبيت الحكيم كان الصدق والليّن يحرسان البيت، أدخلت القاضي وابنته وقلت للحكيم ها قد استعدنا قاضينا أيها الحكيم.. لم يبق إلا القليل لينفضهم البساط الذي تحتهم. أيها الحارسان الأمينان لا أريد أن يمس القاضي وابنته سوءًا فكونا يقظين.. بأمرك أيها الأمير، أجاب الليّن.

الأمير! سمع القاضي متعجبًا.. من هو الأمير أيها الليّن؟ هذا الرجل هو الأمير أيها القاضي، هو الأمير الغائب.

وهل انطبقت عليه الشروط؟.. نعم أيها القاضي، رد الحكيم صدفة: انطبقت بالكامل ونصبته بالنيابة عنك حسب المنهج.. إذن كان شفاء أهل القرية بسبب إمارته.. هذا صحيح.. كنت أتساءل كيف شفي الناس وأنا على يقين أن السخط مجرد دعيّ مجرم، الآن صار لدي اليقين أنّ شفاءهم

كان بفضل إمارتك. الآن يمكنني أنْ أطمئن على ابنتي فهي في عهدة الأمير أنا بإمرتك أيها الأمير مرني بما تشاء..

كل شيء بأوانه أيها القاضي سأذهب الآن إلى الكهف.

مشيت وأنا أفكر هل سأخبر ضوء الفجر بما عرفت بخصوص أبيه..

عندها سيتضاعف حزنه وألمه وسيرى أباه مقتولًا مرة أخرى وبطريقة أبشع.. كيف له أن يحتمل هذا، المشكلة أنّ هذه القضية هي احدى دلائل إدانة السخط وما دام القاضي يعرف تفاصيلها فلا مجال لإخفاء هذه الحقيقة تخفيفا عنه. ربما كان هذا قدره فلا يملك أحد أن يهونه لا أجد له مواسٍ أكثر من أني عرفت قصته كاملة. مع هذه المسؤولية التي تزداد كل يوم بشأن أهل القرية وأحوالها، أشعر بإرهاق لا يخفف عنه إلا استعادة بعض أهل القرية، غفوت ما تبقّى من ساعات الليل وذكرت في الصباح موعد عجوز الصفح، تُرى ماذا تريد العجوز؟ خرجت لبيت الحكيم الذي كان يستعد للخروج أيضًا..إلى أين أيها الحكيم؟..إلى عجوز الصفح.. اجتمعنا عند العجوز.

والغريب في الأمر أنّ العجوز أرسلت للكادحة وأحضرتها مع الصدق والليّن والعباءة.. ما لدى العجوز الطيبة.. قال الحكيم.. كانت تجلس قبالتنا وكأنها تسترجع شيئًا أو تفكر بعيدًا.. جميعكم تعلمون أني كنت على النسيان طوال حياتي السابقة لا يبيت معي حدث أو ضغينة أو نية وأمسي كما أصبح.

حتى إن البعض كان يستغل نسياني ويفعل أمام عيني ما يفعل وكأني غير موجودة في الأصل ثقةً منه بأن ما أراه سيذهب طي النسيان وأي لا أصلح شاهدًا للأمسِ لا في حدث ولا قول. وإنما جعل الله بهذا عبرة عظيمة أن ترى وتنسى فالنسيان كالستر لا يعيب ولا يحاسب فكنت أرى وأتجاوز قادرة على الحساب مترفّعة عنه ذلك ما دعى القاضي إلى الاستشهاد بنسياني لتشهدوا عليه ثم أني وبعد حادثة الحرق. ذلك الألم أعاد لي ذاكرتي ليس لليوم الذي أعيشه بما يسجله من أحداث فقط، ولكن بكل ما عشته ورأيته بسالف حياتي وأنه مما ورد في بريد نسياني، وقبل سنين طويلة خلت كانت الكادحة والعباءة حاملتان بذات الفترة. وكانت الكادحة تتطقس بوادر حمل العباءة وموعد ولادتها بشيء من الاهتمام. وكلكم يعلم أنّ الكادحة الولود لطالما أنجبت المشوهين وباعتهم لتاجر البراءة فهي بطن مشؤوم وحضن يربي العلل والعيوب وكان أن جاءها المخاض في ليلة مظلمة غائمة وكانت لا تجد صعوبة في الوضع كما أنها لا تجد حرجًا في بيع ذريتها المشوّهة إلا أنها تلك الليلة كانت تعاني من وضع وليدها الذي كان بلا عظام يصعب إمساكه وإخراجه والتعامل معه فقد أرهقني توليده حتى كأني أسحب عجينًا ليس به نية خلق.

لكنها في النهاية وضعت مولودها اللين بلا عظام.

وكان حجمه ضئيلًا ولم يكن حينها في بيتها إلا صغارًا نائمين ولا يعلم بولادتها إلا عجوز الصفح التي ولدّتها وحين رأت وليدها بهذه الحال أخفته في أحد بيوت القرية وكانت تذهب لترضعه فقط وقد أعدته للبيع في نيتها حين قدوم التاجر.

ووضعت حزامًا بصرة من قماش على بطنها مدّعية أنها لم تلد بعد، معتمدة بذلك على طلوع الصبح الذي يضمن لها نسيان العجوز لما رأت وفعلت. وكانت خلال تلك الأيام تنتظر ولادة العباءة بفارغ الصبر وتتردد عليها بشكل دائم في حملها الأول، وتصادف مخاض العباءة في وقت متأخر من الليل سكنت به القرية وكان زوج العباءة مسافرًا لقرية التواضع ولا يعود قبل يومين، جاءتني الكادحة وأعلمتني بمخاض العباءة وكانت معي تساعدني فيما أحتاجه وتدّعي الحرص على العباءة وسلامة طفلها، ظلت العباءة تعاني من عسر الولادة وتتحمل من الألم ما تتحمل حتى تغيب عن الوعي ثم تستعيده وأنا أحاول جهدي مساعدتها وتيسير ولادتها وبعد معاناة طويلة وآلام أطول، وضعت وليدها وغابت بذات اللحظة عن الوعي. ولأن الكادحة كانت تعلم أنّ بصر العباءة يعتمد على عفتها، فقد اتفقت مع الشيخ كذب الذي أعدته الكادحة لينتظر خلف الباب، على استغلال الفرصة والإطلاع على جسدها وهي بحالة إغماء. لحظة انشغال عجوز الصفح بغسل الطفل وقد وضعت العباءة طفلًا جميلًا كشقة القمر وكان خاليًا من العيوب والتشوّهات، أشقر جميل يطلع الصبح من وجهه.. دخل الشيخ كذب وهو يحمل ابن الكادحة بين يديه واطّلع على جسد العباءة وأعطى الكادحة طفلها.. تركت الكادحة طفلها جانب العباءة وأخذت تدعي الإحتفاء بطفل العباءة وتلفه بقماش أبيض كقماش طفلها وكنت أحاول أنْ أعيد للعباءة وعيها مع اقتراب ضوء الفجر على الطلوع.

ذهبت الى بيتي لأجلب دواءً يساعدها على الاستفاقة، فاستغلت الكادحة خروجي وإغماء العباءة ووضعت ولدها اللين قرب العباءة، وأعطت الطفل الجميل للشيخ كذب فأخذه ومضى به.

وحين عدت أعطيت العباءة الدواء فاستعادت وعيها وكان أول كلامها أن المولود؟. فناولتها الكادحة المولود ووضعته على صدرها وظلت تفتح عينيها وتغمضها.. أنا لا أرى.. لا أرى شيئًا.. صُدمت من قولها.. ما بك أيتها العباءة؟.. أنا لا أرى أيتها العجوز.. كنت أعرف أنّ ثمة عمىً وقتي قد يصيب الإنسان لفترة محدودة ثم يستعيد بصره..ظلت الكادحة تتظاهر للعباءة بأن هذا العمى مؤقت وهي تبتسم ابتسامة غزيرة فرحة بما أصاب العباءة وبنجاح خطتها في سرقة ابنها السليم وتعويضه بالمشوّه. أفاقت العباءة من الإغماء على العمى وأفاقت ذاكرة العجوز على النسيان. بقيت العباءة تسأل ما به طفلي لين هكذا. فكانت الكادحة ترد عليها ما به من شيء إنه مشوّه فقط وبلا عظام وجسده ليّن كالزبدة.. طلع الصبح على الدنيا ولم يطلع على عيني العباءة ومسح الصباح ذاكرة العجوز فنسيت ما حدث أمام عينها. أرادت الكادحة بعد الاطمئنان على عمى العباءة أن تطمئن من نسيان العجوز، فأخذت الطفل الليّن وأعطته للعجوز.. إنه جميل أليس كذلك أيتها العجوز لكنه لين قليلًا. ولأن العجوز لا تبخس حجرًا قدره فقد قالت: إنه نعمة من الله حتى لو كان لينا هذا هو قدر العباءة ورزقها.

حُرمت العباءة من رؤية طفلها وحرمت من بصرها أيضًا..

بعد يومين وفي الصباح تحديدًا. جاءت الكادحة بالطفل الجميل وهي تلاعبه على مسمع العباءة يالك من طفل جميل بلا نقص ولا عيوب ماذا أسميك ما رأيك أيتها العباءة ماذا أسميه.. سمه الصدق.. صدق الأمير صدق هذا الاسم يليق بك يا عزيزي ستكبر وتصبح أمير هذه القرية والقرى الأخرى

أيضًا. وأما الليّن فكان اسمه من صفته وأنا من سميته كان كل ما حدث بسبب نسياني وكان عمى العباءة بسبب ما دبرته الكادحة مع الشيخ كذب لسرقة ابنها الجميل واستبداله بالمشوّه. وحين عرف الحكيم صدفة بعد عودته من سفره أنّ هذا هو ولده الليّن الجسد لم يحزن، لكنه غضب من عمى العباءة فهو يعرف أنّ عماها لا يكون إلا أن ثُلِمتْ عفتها واطّلع أحد على جسدها.

وهي أصيبت بالإغماء ولا تعرف من اطلع عليها، والعجوز نسيت ما كان ولم يتبقَ أمامه إلا سؤال الكادحة فسألها عن سبب عمى العباءة فأجابته..

أنها أصيبت بالعمى قبل ولادتها وأسرت له هذا بصيغة السر. عصر ذلك اليوم حين ذهبت لتستحم تحت الشلال في الغابة. ولا بد أنّ أحدًا اطلع على جسدها فأصيبت بالعمى صباح ليلتها تلك. فهجرها الحكيم صدفة وبنى له بيتًا على سفح الجبل وحيدًا وبعيدًا عنها وعن أهل القرية. ولم يخطر في باله أنّ ما حدث من عماها كان مدبرًا لسرقة طفلها. وكانت الكادحة تشيع في القرية أنّ عمى العباءة سببه اطلاع أحد عليها حين ذهبت للشلال.

ولم تترك فرصة لتبرير عماها على أنه تشوه أصابها كما يصيب أهل القرية.

وقد علمت بعد حادثة الحرق وما عوضني الله به من رؤية المستقبل وتذكر الماضي، أن الغريب سينصّب أميرًا في بيت الحكيم وكنت أعرف أنّ إمارته ستأتي ببصر العباءة، فذهبت لبيت الحكيم ساعة تنصيبه وادعيت بدواء يشفي عينيها وهو غير قادر على ذلك في الحقيقة. حتى يكون بذهن الحكيم صدفة أنّ عمى العباءة ليس إلا تشوّها عاديًا وليس بفعل اطلاع على جسدها لعله يرجع إليها خاصة إن عرف أنها ولدت له أميرًا صغيرًا اسمه الصدق.

أيها الصدق توجهت له العجوز وهو جالس في حضن العباءة.

أنت في مكانك الطبيعي والعباءة هي أمك. وأنت أيها الليّن فالكادحة هي أمك، وانا لا أريد هذه الأم، رد اللين. هذه الأم المجرمة التي حرمتني حضنها وحرمت الصدق حضن أمه، إنّ أمي هي العباءة التي ربتني وقبلتني على عماها وعلى تشوهي وأما انتِ أيتها الكادحة فأنت تنجبين لكنك لا تعرفين الأمومة ولم تسرقي الصدق إلا لأنك تريدين أميرًا لا طفلًا يلتصق بكِ بعد أحشاءك.. أيتها العباءة أنتِ من ربيتني فهل تقبليني أخًا للصدق؟ أنت ولدي أيها الليّن ما حييت.. الآن عوضني الله ببصري وبالصدق وبك أيها اللين.. وبالزوج أيضًا، قالت العجوز موجهة كلامها إلى الحكيم صدفة أليس كذلك أيها الحكيم؟ بلى أيتها العجوز، وأكمل.. وبعائلة يلتم شملها الآن بعد بعثرة الشرور لها.

أتدرين أيتها الكادحة، قال الصدق. طوال حياتي لم أشعر بأمومتك لم أكن ابنًا لك كنت مشروع إمارة. مشروع خالٍ من العاطفة سأحتفظ لك بأنك ربيتني بأمومة خالية من الرحمة وأسامحك على حرماني من حضن أمي والتفريق بين أبي وأمي، لكني لن اسامحك على قضاء أمي العباءة لسنين طويلة في العمى.

لا يعنيني أحد منكم فقد بلغت مرادي وأصبحت ابنتي أميرة القرية وزوج الأمير سخط وأنتَ أيها الصدق لست ولدي ما دمت لست أهلًا للإمارة.

وأما أنتَ أيها الليّن فلو لا أني ألقيتك بحضن العباءة، لبعتك منذ سنين للتاجر.

هيا أيتها العباءة وأنت أيها الصدق وأنت أيها الليّن لنعد إلى بيتنا، أمسك الحكيم صدفة بيد العباءة وأبنائه وارتقوا لمنزل الحكيم على سفح الجبل.

غادرنا منزل العجوز وقصدت الكهف فلحق بي طفل الورد.

انظر ماذا وجدت أيها الغريب وأراني قطعة صغيرة يضع وجهه أمامها، إنها قطعة من المرآة أين وجدتها؟..هناك عند مرج الزهور. خذني إليها..

كان المرج يزدهي بأنواع الورود نظرة بلا تشوه..أشار طفل الورد إلى صخرة فإذا بالمرآة محطمة فوقها لقطع صغيرة، إذن لقد كسروا المرآة لأجل قطعة صغيرة يدسونها بكوخي لاتهامي بسرقتها. جمعت حطامها وكل قطعة منها وأعطيت كل واحد من أهل القرية قطعة حتى يقف أمامها كل يوم ويقف على عيوبه ويصلحها.. ربما تكون هذه الليلة حاسمة لمصير القرية فإما أن ننتصر ونخضع السخط وفرسانه ونستعيد القرية، وإما أن نموت ونحن نحاول استعادتها، قلت لفرسان القرية.

ونحن نستعد للمعركة خرجنا قبل الفجر بساعة وتوجهنا إلى القصر رآنا المتقلب عائدًا من سكره فركض نحو القصر يحذرهم.

وما إن قاربنا القصر حتى وجدناهم بانتظارنا والسيوف بأيديهم.

وكان ضوء الفجر يتوق لملاقاة الفارس الضخم.. اقتربت نهايتكم..

واشتبكتُ مع الضخم فتقدمني ضوء الفجر.. دعه لي أيها الأمير، إنه ثأري فتركته وأصبح السخط أمامي حملت عليه وأنا أسمع صوت صيحة الفارس البدين تلّقى رمية بسهم من الليّن في كتفه الأيسر. وبعد مبارزة امتدت لدقائق قلعت السيف من يد السخط والتفت لضوء الفجر وهو يطعن الفارس الضخم.

ظل الضوء يطعنه بقدر ألمه على أبيه واستغربت أنه طعنه خمس طعنات في صدره. وكأنه يعيد للضخم كل طعنة تلقاها أبوه، فيما كان ابن الكادحة الأكبر واقفًا فوق الفارس النحيل ويقتله. وكان الصدق قد قتل الفارس البدين وأجهز على الفارس القصير يهم بطعنه فصحت به لا تقتله فالتفت إلي متعجبًا قلت له لنأخذه أسيرًا ووقف الضوء دون قتل الفارس القصير وبقي العبد الأكبر الذي يبدو أن المتقلب أخبره يتفرج على مقتل الفرسان. هيا سوقوا من بقي منهم إلى الأسر ناديت بالفرسان. أنت أيها العبد أوثق يدي السخط ففعل العبد بلا تردد، أتعرف أيها القصير لِمَ لَمْ نقتلك عرفانًا لاعترافك بجريمة الفارس الضخم.

سرنا بالسخط والقصير إلى القرية والسيوف على رقابهم..

أمرت العبد أن يذهب ويجرّ الشيخ كذب من سريره. الآن ستُربط أيها السخط على هذه الأشجار كما ربطت الكثير من قبل. تولّى الصدق ربط السخط والضوء ربط الفارس القصير. وجاء العبدُ بالشيخ كذب وهو مرتعب لِما يرى. شده، إلى الشجرة أيها العبد..خرجت الكادحة من بيتها وتوجهت إلى القصر راكضة وهي تنظر إلينا.. قد وقعتم أيها الأنذال.. بدأ الفجر يسفر على القرية وهي تلفظ همّها وتغتسل من إثم هؤلاء المعتدين، ليطل عليها صباح جديد يليق بطيبة أهلها ويطهرها من التشوّه الذي كان على هيئة بشر.

أيها العبد اذهب ونادي جميع أهل القرية وليحضر القاضي فورًا، الآن ستلقون حسابكم على ما دبرتم وأجرمتم. توافد الناس وعليهم البِشر للمشهد الذي يرونه. فقد زالت غُمتهم وأُثْلجت صدورهم بهزيمة السخط وفرسانه.

ماذا ستفعل بي أيها الأمير. قال الفارس القصير.. سأترك أمرك لضوء الفجر هو من سيحكم في شأنك بعد أنْ تروي للناس ما تشهد عليه.. سأفعل ما تأمرني أنت والضوء.. حضر القاضي ونظر إلى السخط والكذب وهما مربوطان فقرت عينه برؤية الظالمين يمثلون أمام العدالة.. أقتحم ذهول الناس ضحكة طائشة للمتقلب، وهو يضحك بصوت مُثقل بالخمرِ ويعبث السكر بجسده.

وقف أمام الكذب.. أيها السادة هل رأيتم أبي، هل أحد من بينكم يعرف أبي، هذا.. هو وأشار للكذب، إنه الشيخ ومدها بلسانه المثقل.. كذِب هل أنتم متعجبون لا تعجبوا الشيخ كذب هو أبي الذي أرادني مشروعًا غامضًا متلونًا لا يعرف نفسه ولا يجدها إلا ساعات السكر. أبي الذي رفض الاعتراف بي وجعلني أعيش خلف قضبان التسمية. كما تعيش نواياه الخبيثة في صدره. هل أحكي لكم أيها السادة عن قصة الشيخ كذب. أنا مسرور بمربطك هذا كما ربطتني كسر لا يستطيع مغادرة صدر ميت.

الشيخ كذب أيها السادة هو رجل مدسوس زرعه الملك بينكم ذلك اليوم الذي جاء الفرسان يبحثون عن تاج الأمير الصغير ويهددون القرية وأهلها. كان الكذب قد تقدمهم ليقدم عرضًا مسرحيًا في الدفاع عن القرية والوقوف بوجه الفرسان وحمايتها من شرهم. ادعى أمامكم كذبًا كما هي عادته أنه رأى فرسان قرية التواضع يصطادون بمنطقة الملك وصرف بكذبته الفرسان.

وساق لإثبات حسن نواياه قطيع القرية وثلاث سنوات من محاصيلها للفرسان.

لم يكن التاج الأميري كذبة تمامًا فقد وجده غراب السخط وارتداه يوم تتويجه أميرًا زائفًا. مثّل عليكم الكذب بالاتفاق مع الفرسان دور الحامي والمدافع لتقبلوه بينكم بأنه الوحيد الذي دافع عنكم أمام الفرسان. وكانت هذه خطة إدخاله للقرية عميلًا مدسوسًا من الملك. ولم تمض أيام حتى قايض موقفه البطولي بالسعي للحصول على الإمارة ليسلم القرية بمن فيها للملك كقرية تابعة لملكه. يسطو من خلال أميرها الذي عينه على خيراتها ويذل أهلها ومن يقف في وجهه.

وعندما فشل في تحقيق هدفه في الإمارة طرده الملك، ومنعه من العودة لقرية التعدي. هل أخبركم بشيءٍ آخر، الشيخ كذب هو زوج الكادحة وقد قتل زوجها الأول الذي أنجبت منه ابن الكادحة الأكبر والأميرة الكادحة وتزوجها سرًا وهو لا يُظهر للناس علاقته بها ويدخل عندها متخفيًا أثناء الليل.

كما أخفى عن الناس أني ولده حتى لا يكشف ارتباطاته، عاش الشيخ كذب بعد طرده كخادم للمشروع القادم. أتعلمون من هو المشروع القادم؟.

إنه السخط المتطور. وكلكم تعرفون إنه ابن جارية أخذته القرية كفدية عن قتل أحد أبنائها وهو صغير أيام الأمير الغائب. وما إن شبّ حتى حنّت دماءه الخسيسة وتواصل معه الفارس الضخم وأعدوه كمشروع للسطو على الإمارة. إنه العميل الآخر الذي استغل الملك الشيطان عيشه بهذه القرية ليجنده للاستحواذ عليها.

وتعلمون أني أميل مع الكفة التي ترجح وهذا هو موقفي وقد آن لي أن أراك معلقًا من نواياك أيها السخط. هذا العميل أيها السادة أرسل له

الضخم صندوقًا من المقتنيات ولباس وعدة أعدت له ليرتديها حين يكون أميرًا وحاول استغلالها بخطة من الأميرة الكادحة للإطاحة بالغريب واتهامه بسرقة ما ادّعى أنه مقتنيات الأمير الغائب.

تسلّط السخط على القرية وأعمل جرائمه في تخريبها وحين استحوذ على السلطة بإرغام القاضي على تنصيبه استدعى من كان يعدهم بالمناصب من فرسان الملك الذين جاءوا ليحفظوا إمارته من أهل القرية. استغل الشيخ كذب والسخط سذاجتكم وسكوتكم وتآمروا عليكم وسلّموا القرية لتبعية الملك الشيطان. فهذه هي حقيقة هذان الاثنان دفعت بها إليكم وإلى قاضي القرية قبل أن استفيق من سكرتي ويذهب وجهي..

وانصرف المتقلب عن الجمع يطوّح أقدامه السكر..

اربطوا العبد الأكبر.. فوثب الدلو لربطه وهو يتوسل بعبوديته الذليلة.

اجلده كما جلدك أيها ا لدلو.. نظر الدلو لوجه العبد..

أتذكر حين قلت لك أيها العبد أنّ سوطك يؤلم أكثر من سوط الأغراب.

سآخذ حقي بيدي.. وشرع الدلو يجلد العبد بمنتهى القسوة ويمحو من ذاكرته الألم بإحلاله في جسد العبد، اقتربت حينها ابنة القاضي من السخط أيها الحقير لقد آذيت أبي أذية بالغة وألقيته في البئر محاولًا قتله عطشًا وجوعًا ثم أخضعته لمآربك وجعلته يبدو أمام الناس متآمرًا خائنًا بتهديده بقتل ابنته، وأفقدته نزاهته وقدوته في إلزام القرية بالحدود، أيها القاضي أني أطالبك بحقي وحق أبي من هذا المجرم.

وأنت أيها الكذب اللعين تسببت في تشتيت شمل أسرتي وعمى والدتي وثلم عفتها ورميتني في حضن غريب بعيدًا عن حضن أمي كل

هذا لأني لم أكن مشوّها وخفت أنت وأمثالك من أنْ أصبح أميرًا. يكفيني أنْ أكونَ صدقًا فأكون فوق الإمارة. أيها القاضي إني أطالب بحقي وحق أمي وأبي من هذا المجرم.

صرخ الليّن بوجه السخط كما بوجه تمثال الطين.. أيها الحقير لقد تسببت بعمى أمي العباءة سأقتلع عينيك حتى تعرف مرارة العمى.. أيها الليّن همس له الصدق وهو يربت على كتفه عليك أن تدرك حكمة الله فلو لم تصب أمك العباءة بالعمى وتضطر لإعالتها لما كنت الآن صلبًا كما أنت عليه.

تقدّم بعده الفلاح والراعي قال الراعي: أنت أيها السخط استضعفتني وجعلتني أخون أمانتي ومسؤوليتي تجاه القرية وأمرتني بحرمانهم من حقهم وهم يتضورون جوعًا ومنعت أجري من عملي وأجر القرية من أملاكها، أيها القاضي إني أطالب بحقي من هذا المجرم.

أما أنا، قال الفلاح، فلم يزد ظلمي عن الراعي إلا أنك أفقرتني واضطررتني لمحاولة بيع ابنتي لتاجر البراءة وأخذتها لتعمل رغمًا عنّي خادمةً للأميرة الدعيّة، كنت تحاربني بما هو حق لي من الرزق لإخضاعي، أيها القاضي إني أطالب بحقي وحق ابنتي من هذا المجرم.

أما أنا قلت للقاضي: فقد عفوت عن كل من أساء لي ومن حاول قتلي ومن حاول تسميمي ومن اتهمني بالسرقة ومن خدعني بوضع الأحجار المضيئة في كوخي، ومن سرق ثوبي وإمارتي ومن حاكمني بالنفي من قريتي، عفوت وصفحت عن الجميع لكنّي لن أعفو في حقوق أهل القرية ومن نبش قبر الرجل الرحيم وأحرق جثته، ليدّعي أنها جثة القاضي، إني أطالب بحق ضوء

الفجر ممن أحرق جثة أباه ولم يرعَ حُرمة ميت.. ماذا تقول أيها الأمير. هل نبش السخط قبر أبي.. أيها اللعين واستل سيفه ليقتله.. دعني أقتله سأحرق جثتك كما أحرقت جثة أبي.. لا أيها الضوء، الانتقام ليس من شيمنا نحن لا نعدو حقنا ممن ظلمنا. وقد كانت غاية الضخم هو من أملى على السخط بهذا إمعانًا بحقده وانتقامه وقد قتلته بمقدار الطعنات التي تلقّاها أباك منه.

تقدمت العجوز من السخط والكذب وقالت لطالما عهدتموني عجوز الصفح والتجاوز والعفو وقد عفوت عن كل إساءة لحقت بي بسبب هذان إلا أني لن أعفو عمن أراد حرقي نائمةً، أيها القاضي إني أطالب بحقي ممن ظلمني وأحرق جسدي.. يا أهل القرية صاح خوف الزجاج لقد رأيت الكادحة تنتحب وتصرخ وتحتضن الفرسان وتلطم رأسها ووجهها.. وفي هذه اللحظة رأينا الكادحة تضرب ابنها الأكبر بنعالها وتصرخ: أيها النذل لقد قتلت أخاك.

لماذا تلطم الكادحة على الفرسان؟ سألت..

فأجاب القصير لأنهم أبناءها. وأنا أحد ابناء الكادحة. الفرسان الأربعة هم أبناء الكادحة الذين باعتهم لتاجر البراءة صغارًا مشوّهين، كان يأخذهم التاجر للتجنيد في فرسان الملك، ثم يعيدهم إلى القرية لحماية مُلك الأمير العميل فيها وإمارة أختهم الكادحة.

وقد قتل ابنُ الكادحة الأكبر أحد إخوته وهو لا يعلم.

وأما الفرسان الأربعة فهم أبناء الشيخ كذب من الكادحة.

أيها الناس قد قتلت أخي وسأقتل كل الفرسان الغرباء والعملاء الذين يخرجون عن أمر الأمير. قتلتُ أخي لانه يستحق القتل لأن

الكادحة هي عميلة الملك بهذه القرية والساعية لاستلام الإمارة لتسخيرها لخدمته وتبعيته وكل ابناءها خائنون وخدم لمشروع إخضاع القرية، أنا لا أخون بلدتي التي نشأت بها وتنفست عروقي ماءها وهواءها، أيها القاضي إني أطالب بحقي من أمي الخائنة وإخوتي الخائنيين، حقي وحق أهل القرية.

أيها الأمير وأنت أيها الضوء إني أعلن توبتي من العمل في فرسان الملك وأطلب أنْ تقبلني في فرسانك تحت إمرة الضوء، إنْ قبِلَ الضوءُ أنْ يعفو عني.

إنْ قبِلَ الضوءُ وعفا عنك فسأقبلك وأعفو عنك، قلت.

أيها القاضي إني أطالب بحقي من الكادحة والكذب اللذان تسببا بعماي وثلم عفتي وسرقة ولدي وإيقاع الخلاف بيني وبين زوجي الحكيم صدفة ..

اربطوا الكادحة وابنتها إلى الأشجار، أمرتُ الناسَ فربطوهما.

الآن أيها المجرمان السخط والكذب هل ستعترفان بجرائمكما أم آمر بالتعذيب حتى تقران بها.

أنا لم أفعل شيء أنت تلبس جرائمك بي.

يا خوف الزجاج خذ السوط واجلد السخط حتى يخر لحمه واعترافه.

وأنت أيها الكذب.. أنا أرفض كلَ الاتهامات الموجّهة لي إن لم تأتِ بدليل فلا يحق لك الحكم علي.. حسن لتكن المحاكمة أيها القاضي، أقم محكمتك تقدّم القاضي ووقف أمام المرابط قضية مقتل والد ضوء الفجر ملء السنابل أنت متهم أيها السخط بنبش جثة الرجل وحرقها واصطناع

الأدلة ونسب الجثة للقاضي وسرقة وشاح القضاء هل تعترف بإرتكاب هذه الجرائم؟ لا أعترف ولم أرتكب شيئًا منها، رد السخط.

ألديك أيها الأمير أدلّة تثبت ادعاءك.. لدي، وتقدّم ضوء الفجر هذه الصدرية تعود لأبي ملء السنابل هل تشهد أيها القصير أنه كان يرتديها يوم قتله الضخم. نعم أشهد بهذا، قال القصير. وعليها طعنات خمس بالسكين انظروا ها هي الطعنات وعرضها الضوء أمام الناس. وهذه العصى التي أحرقها السخط تعود لأبي وقد دُفنت معه. هذا يدلل على أنك نبشت قبره. كذلك شهادة العبد الأكبر أنك أرسلته لمنزل القاضي ليوهم ابنته بالبحث عن أبيها مبتعدًا بها عن البيت لتسرق وشاح القضاء. أتشهد أيها العبد.. نعم أشهد وقد أمرني السخط بهذا ليسرق الوشاح.. قضية حرق عجوز الصفح.. أنت أيها السخط متهم بحرق عجوز الصفح وبيتها لأنها عالجت الأمير.

هذا كذب وأنا لم أفعل هذا.. ألديك دليل أيها الأمير؟ فتقدمت القلبُ الأبيض قد سمعتك أيها السخط تكلم الأميرة الكادحة عن فعل مريع لقنتك إياه الكادحة للانتقام من العجوز على معالجة الأمير من السم ولإجباره على خلع ثوبه للعمل بإعمار البيت ليتسنى لك سرقته.

قضية عمى العباءة وسرقة ابنها هل تعترف أيها الكذب بتهمتك.

أنا لا أعرفُ شيئًا مما نُسب إلي من تهم.. فتقدمت العجوز قد استعدت ذاكرتي أيها الكذب وأنا رأيتك أنت والكادحة تفعلون جريمتكم اعتمادًا على نسياني.

قضية تسميم الأمير.. أتعترف أيها السخط بمحاولة تسميم الأمير بالفاكهة بتدبير من ابنة الكادحة.. لا علم لي بذلك إنه يدّعي علي كذبًا.

ما شاهدك أيها الأمير؟.. تكلم أيها العبد.. نعم أشهد أنّ السخط حقن الفاكهة بالسم وأرسلني بها لقتله.. الآن قضية سرقة ثوب الأمير أتعترف أيها السخط بسرقة ثوب الأمير الذي ترتديه الآن وهو ثوب الإمارة.

إنه ثوبي وهذا إدعاء كاذب وتلفيق..ألديك دليل أيها الأمير؟ لدي أيها القاضي وأخرجت الخيط الذي اقتطعته من الثوب يوم دفنت صندوق المقتنيات وربطته بغصن الشجرة للدلالة ووصلته أسفل الثوب الذي يرتديه السخط، فتواصلت خيوط الوشي أترون أنه جزء من الثوب لا يقبل الشك فأجاب الناس، هذا واضح وجلي.

قضية المرآة وصفحات الكتاب أتعترف أيها السخط بسرقة المرآة وانتزاع الصفحات من الكتاب.. وتقطيعها ونثرها بالكوخ وكسرت المرآة ووضعت قطعة منها فيه.. لم أفعل، أنتم تلفقون عليّ الأكاذيب.

ألديك من يشهد؟.. نعم أيها القاضي، أنا من وضعت قطعة المرآة ومزق الصفحات بالكوخ بأمر السخط، شهد العبدُ الأكبر.

قضية جلب الغرباء وتوليتهم أمور القرية، أنتِ أيتها الكادحة متهمة بالعمالة لملك قرية التعدّي والتآمر على قريتك لتسليمها لتبعية الملك. هل تعترفين بذلك.. أنا أم الأميرة، وهذه القرية ملك لابنتي وأميرها السخط.. ألديك من يشهد بعمالتها وتآمرها؟.

أنا أيها القاضي، رد ابنُ الكادحة، أنا أشهد على أنّ أمي الكادحة كانت تجند أولادها لتبعية قرية التعدّي وتخريب قرية الأمنيات وأنا أيضًا، قال الفارس القصير أشهد على هذا وأنّ الكادحة كانت تتلقى أوامرها من الفارس الضخم وتنفذ مخططاتهم.

قضية دخول الكذب مدسوسًا وعميلًا طامعًا بالإمارة.. وأنا شاهدها أيضًا، قال القصير.. فقد كان دخوله مُدبرًا للاستيلاء على الإمارة وكان مكلفًا بالاندساس بالقرية وادعاء الإمارة.. وقرأ القاضي حكمه.

وِفقَ الأدلة الظاهرة وشهادة الشهود في القضايا المدرجة والجرائم المنسوبة إلى السخط والكذب والكادحة وابنتها، وجدنا أن المتهمين مذنبين وقد ثبتت إدانتهم بشهادة الشهود، جميع جرائمهم بالأدلة القاطعة، وعلى هذا قررت محكمة قرية الأمنيات الحكم على المدعو السخط المتطور بالإعدام حرقًا.

وعلى المدعو الشيخ كذب بالطرد والنفي من القرية. والحكم على الكادحة الولود وابنتها بالترحيل من القرية حُفاة عُراة.. ينفذ هذا الحكم اعتبارًا من ساعة صدوره.. قاضي قرية الأمنيات..

توجهت العباءة عندها وانتزعت قلادتها من عنق ابنة الكادحة، القلادة التي تعادل حضارة آلاف السنين.

ابتهج أهلُ القريةِ بخلاصهم من حقبة الظالمين.

الآن أيها الفارس القصير ما دُمت شهدت بالحق فأني أقبلك في فرساني وواحدًا من قرية الأمنيات.. أنهت محاكمة المعتدين معاناة أهل القرية وعادت الأمور إلى نصابها. الفلاح يوزع الثمار على البيوت والراعي كذلك وفرسان القرية يتدربون على القتال لصدّ اعتداءات الأعداء. وألتم شمل الناس على الود والإخاء وذهبت تشوهاتهم وتطابق ظاهرهم وباطنهم.

بعد أُء نفوا الغرباء عن قريتهم.. الآن صرتُ أدرك قول عجوز الصفح إنّ عِبَر حياة بعض الناس تكون أدوية وعِبَر حياة الآخرين تكون سمومًا.

في اليوم التالي أخبرني الناس أنهم يسمعون صوتًا داخلهم يحدثهم بصوت الحكيم صدفة ويرشدهم إلى ما يفعلون. كان الحكيم قد أخبرنا يومًا أنّ أول من سيصبح إنسانًا كاملًا سيكون أميرًا للقرية، إنسان يتطابق جوهره ومظهره ويخلو من العيوب والتشوّه.. نحن نعاني حين يكون عوقنا في الظاهر ولا نهتم حين يكون في الباطن فقط لأنه خفي عن الناس.

بعد مرور اشهر عدة كنت وأهل القرية قد هجرنا قريتنا ومنازلنا، بعد أن أرسلت لقرية التواضع وجلبت البناءين الذين بنوا لنا قرية جديدة ترتقي على سفح الجبل بنيت بيوتها كلها حول بيت الحكيم صدفة. لم تكن مصممة على شكلِ جنينٍ في بطن أمه متصل بحبله السُري، بل أنه ولد وكبر وأصبح تصميم القرية كلها على غرار بيت الحكيم صدفة.. رجل ساجد.. وتحولت القرية من قرية المنحوتات التي تدعو وتتوسل بدعاءٍ مثقوبٍ بالذنبِ.

ومختلفة التصاميم والأماني، إلى قرية بتصميمٍ موحدٍ، قرية ساجدة. شغلها العمل عن التمنّي والإصلاح عن التنافس..لم يكن لي بها من امتيازٍ في منزلي ورفضت سكن القصر وكنت كأحدهم في سكني ومعيشتي وثوبي، بعد أن نصعت ثيابهم كلهم ولحقوا ثوبي واستحقوا الثوب الموشّى.

تركنا ماضي الذنوب والصراع والتنافس ليطمره الزمن.

وبزغنا فجرًا جديدًا يحملُ الطهرَ والنقاء.

القرية من قبل ومن بعد

هدأت العاصفة مع اقتراب المغيب. كانت تلقي علي التراب طوال النهار.

وكأنها كانت تعيدني لزمن هذه القرية الأثرية وتنسبني لها بالإكراه وتريد ان تدفنني مع هذا الأثر.

عبد الله.. عبد الله.. أين أنت يا رجل؟. جاءني صوت الدكتور.. هنا في الأسفل.

أين أنا لا أراك.. هنا انزل أكثر في نهاية القرية قلتُ بصوتٍ محبطٍ.

هل تريد أن تغوص في غبار التاريخ بلا عودة.

نزل الدكتور للغرفة الأخيرة من هذه القرية التاريخية التي نعمل على التنقيب فيها حيث كنت أجلس هناك.. ما الذي تفعله؟ ألا تريد الخروج لقد حلّ المغيب ألم تتعب من التنقيب. وأجاب نفسه، لا أظنك تعبت، أرى أنك لم تنقب شيئًا ولم تحفر شبرًا واحدًا. فماذا كنت تفعل طوال النهار. ما هذا الكتاب الذي بيديك وما هذه الحقيبة هل عثرت عليهما هنا؟.

أجل وقد شغلني عن العمل.. أين وجدتها؟.. هنا تعال وانظر، رأيت هذه اللبنة الكبيرة مرتبكة بين البناء وكأنها تخفي شيئًا أو تريد قول شيءٍ لم تعد تحتمله، فتضعضعت أركانها. طرقت عليها كان صوتها عميقًا، فخمنت أنّ وراءها شيئًا، فأزلتها ورأيت دكة حجرية بُنيت على الجدار

أشبه بصندوقٍ حجريٍ خُبأت فيه هذه الحقيبة الجلدية. أزلت غبارها وفتحتها فوجدت فيها هذا الكتاب ملفوفًا بقطعة قماش. وكأنه رسالة أُرسلت من زمن ماضٍ أو أمانة ضيّعها صاحبها عن الخلق أو حقيبة أضطر صاحبها لتركها أمام معبر التفتيش للمرور إلى عالمٍ لا بد منه.

لا شك أنك قضيت يومك بقراءة هذا الكتاب فأنا أعرف نهمك للقراءة.

هذا صحيح.. هيا يا رجل لنخرج، أتريد أن تُصاب بالمسّ في ظلام هذه القرية وظلام عمرها المديد.

ما بك يا عبد الله هل وصل غبار وجهك إلى نفسك فكدرها هكذا.

لا أدري يا دكتور، أجبته، ونحن نصعد عبر سلم القرية الحجري بمدخلها إلى أعلى حيث تشرف خيامنا على الموقع الأثري. لا أدري أشعر أني أضعت شيئًا ووجدت شيئًا بنفسِ الوقتِ.. لنشعل النار أولًا، فهذه العاصفة كانت تجر البرد خلفها بحصانِ الترابِ.. أنا مرهق يا دكتور لا طاقة لدي لشيء.. هذا طبيعي فأنت لم تأكل شيئًا منذ الفجر. لا عليك سأشعل النار وأعد طعام العشاء، استرح أنت على كرسيك.. ألقى الدكتور الحطب وأوقد النار فسرى دفئها في أوصالي وكشف ضوءها كآبة نفسي ودهاليز حزني.

أخذ يُعد العشاء وأنا غارقٌ بصمتي. عمَّ السكون جسدي وتسامعت أعضاؤه لهذا الهدوء. لا شيء يهمس خشية افتضاح أمره لا شيء يشكو عزةً وحفظًا لكبريائه. لا أحد يريد أن يقول شيئًا ويكسر هذا العدم. إنه سكون الذهول الذي يوقف كل شيء بلحظة التساؤل. نعم أعرف هذا، أعرف أني المطالب بالاجابة ولا أحد غيري. هبطت ظُلمةُ الليلِ بكثافةٍ

واتضحت وجوهنا أمام ضوءِ النارِ ونحن نجلس بكرسيين متقابلين.. ما بك يا عبدَ الله؟ وجهك مكفهر كبطن العاقر.

أنا في غاية الإرهاق، أشعرُ أني نقلتُ جبلًا من مكانه وأنّ خيولًا داخلي تجري منذ أولِ الخلقِ أصابها الإعياءُ ولا تريد التوقّف. أسمع لهاثَ نفسي من التعب. إن المشاعر أكثرُ إرهاقًا للجسد من إرهاقه إياها بالعمل. سأدخل لأنام قليلًا لعل روحي تغادر مشاعري لتستريح من كدّها المُضني.

افعل لعلك تهدأ وأنا سأقرأ هذا الكتاب فربما يرشدنا لشيء أو اكتشافٍ ما.

دخلتُ خيمتي وألقيتُ جسدي المغبّر في دوامةِ السقوط، كنت أراقب سقوطَ الوعي من جسدي كحجارةٍ من سفحٍ وشيئًا فشيئًا كانت زفرةَ النومِ..

التقى بمجرى أنفاسي، خروج الروح ودخول النوم، توقفا تحدثا قليلًا وتبادلا أدوار الحراسة والسلطان بين حارس اليقظة وحارس الراحة والموت المؤقت.

استفقتُ على آلامِ التعبِ في مفاصلي التي نسيت تحريكها في القراءة.

نفضتُ النومَ عن وجهي. كان الليل قد استغرق في ظلامه وبسط سكونه على الخلق. خرجت من الخيمة فوجدتُ الدكتور يطبق الكتاب بين يديه وهو شارد الذهن متوتر الملامح. جلست على الكرسي قبالته ونشرت كفي للدفءِ فاستعاد وجوده.. كم الساعة الآن؟ سألته.. إنها الواحدة، إنه اكتشاف مُذهل يا عبد الله.. أي اكتشاف؟.. هذه القصة، اكتشاف رائع ولا شكّ أنّ موقع هذه القرية التي يتحدث عنها الكتاب قريب من هذا الموقع.

لو استطعنا العثور عليه فسنحظى ربما بكنوزٍ عديدةٍ تضمن لنا الغنى والشهرة أيضًا.

هذا الكتاب هو دليل هذه القرية التي يتحدث عنها في قصته الغريبة، ونشر خريطة الموقع الأثري أمامه ومرر أصبعه على المواقع محاولًا تحديد وترجيح موقعها.. ما بك لا ترد علي هل تراني أهذي؟! نعم أنت كذلك.. ماذا تقصد؟.. هل قرأت الكتاب؟.. نعم قرأته.. وما أهمك من أمره..

ما همّني، إنه يشير لموقع أثري آخر لقريةٍ أخرى، علينا العثور عليها وتنقيبها.. أهذا كل شيء!.. نعم هل تريد شيئًا آخر!.. لا يكفيك هذا، فهذا ما يمكنك رؤيته.. لكني أظن أنّ قصة الكتاب احتوت رموزًا علينا فكّها لمعرفة هذه القصة الغريبة. ربما هناك إشاراتٍ ما.. تُرى أين تقع هذه القرية؟.. وعاد ينظر إلى الخريطة.. بالمناسبة قلت لي أنك أضعت شيئًا ووجدت شيئًا، ما كنت تعني بهذا؟ أضعتُ عمري في البحث والتنقيب والدراسة والقراءة، تعلمتُ اللغات القديمة للحضارات الأولى، أطّلعتُ على النقوش والرسوم والرموز والنحوت في الكهوف والمعابد والمدن المطمورة والقصور، اطّلعت على ألواحٍ من الطين والصخر والتماثيل الحجرية والمعدنية، بحثتُ ونقبتُ في أكثر المواقع الأثرية في مشرق الأرض ومغربها، عشتُ تاريخ وحضارات الأمم ورأيتُ المومياوات والأدوات والكنوز، وأول أفكار الإنسان واختراعاته ومسلاته وسير حروبه وعباداته وقوانين عيشه، أزلتُ الغبارَ عن الكثير من القرى والمواقع التي تمتد في عُمق التاريخ، قدّرت عمر الأدوات وعمر الهياكل البشرية وعمر الآثار وعمر العظام،

وأضعت تقدير عمري، أهدرت عمري أبحث بعيدًا، وتركت ما هو أولى بالبحث والتنقيب والعناية. وقد وجدت ما جعلني أزهدُ بكل ما عملت به وأفنيت عمري لأجله، أهدرت شيئًا كان له علي حق البحث والمتابعة.

أتعني أنّ هذه القرية التي يشير إليها الكتاب هي أهم من كل المواقع التي عملت على اكتشافها.. نعم هي كذلك، انظر لهذه الخريطة وانظر لذلك الموقع تحتنا، إنها شكل مُصغّر لكيانٍ مُكبّر، فكذلك هي هذه القرية مُصغرة لدي كبيرة حين تراها على الواقع.

إنّ تفسيرك يحتاج لتفسير يا عبد الله.. هل تعتقد أنّ هذه القرية التي في الكتاب قريبة من هذا الموقع وضمن خريطته؟ إنها أقرب مما تصور.

فأين تقع؟ تقع هنا وأشرتُ إلى صدري، تقع في جسدي، هذه القرية هي نفسي، وسكان هذه القرية هم صفاتي ومكوناتي وملكات خُلقي.. ألم ترَ أنّ قصة هذا الكتاب كُتبت بخط يدي وأسلوبي وزمني أيضًا. إنها قصة الحياة التي جرت داخلي. قصة حياة ملكاتي التي تغرّبتُ عنها حتى إنها لم تعرفني يوم عودتي لتفقدها. وأنا مُنشغلٌ عنها وغائب وجاهل بما يحدث فيها، مهمل تفقدها ومراقبتها والشعور بتغيراتها.

وكيف يمكن أن تنطبق قصة الكتاب على أنها نفسك؟ سأدُلك كيف يكون هذا.. الأمير الغائب هو أنا. ذاتي. والحكيم صدفة هو ضميري والقاضي هو عقلي والفلاح هو توجّهي وعين الجبل هي إلهام الله وعجوز الصفح هي سماحتي والمرأة العباءة هي بصيرتي والقلب الأبيض هي فطرتي والكادحة هي أمنياتي الضالة وابنة القاضي هي قضية وجودي والمتقلب هو النفاق

والشيخ كذب هو أدوات الشيطان والأميرة الكادحة واسمها في الأصل الأَمَّارة هي النفس الأَمَّارة بالسوء والسخط المتطور هو هوى النفس..

فهذه هي حياة صفاتي ومكوناتي وملكات خلقي..

وقصة عيشها داخلي حين غبت عنها وغفلت وتركتها بلا رقابة ولا حماية ولا تنمية.. تسلل إليها الغرباء وعبثوا بها وأخرجوها عن فطرة خلقها وملأوها بالتشوهات، وقد تركتها فريسة سهلة لهم ولأغراضهم.

الآن فهمت ما تعنيه هذه القصة وأنا حسبتها موقعًا أثريًا جديدًا.

بلى إنها الموقع الأكثر أهمية في العالم، والذي نحمله معنا ولا نبحث فيه.

منشغلين بالبحث خارجًا ونشغل بظاهرنا عن جوهره ونهتم بدراسة عظام الحيوانات ولا نهتم بهذا الكنز الذي طمره إهمالنا داخلنا حتى غدا ينتمي لحقبةٍ زمنيةٍ أخرى أو عصرٍ من العصورِ القديمة بزمنِ الشعور.

هذه القرية المهجورة داخلنا لم نتفقد أهلها وسكانها وكيف يعيشون في ظل إهمالنا وغيابنا عن مسؤوليتنا تجاهها .

ولكن يا عبد الله كيف امتلكت الشجاعة لبسط نفسك وما يحدث فيها أمام الناس؟ إنّ الصدق لا يستحي من العيوب والأخطاء. وأنْ لا تعترف بعيوبك فأنت تضيف إليها عيبًا آخرًا وهو الكذب على النفس. وفي الغالب فإنّ الكِبر من يمنع الاعتراف ومواجهته.. إنّ إهمال قرية النفس والانشغال بخارجها عنها هو أشبه بالهجرة من القرية إلى المدينة. والصدق هو وسيلتك لتحرير نفسك من التقلّب والكذب والعبودية وهوى النفس والأماني الضالة.

قضيتُ عمري وأنا أبحث في الحضارة المطمورة وغفلت هذه الحضارة العظيمة التي تحدث داخلي وهي حيّة.. الإنسان الذي ينظر خارجه أكثر مما ينظر داخله هو إنسانٌ مغفلٌ.. ادعيتُ بملاحقة تاريخ البشر لأكمل صورتهم الحضارية وأهملت هذه القرية الصغيرة داخلي والتي تدير العالم وتمثل صورته الأولى والمُثلى.

كيف حدَثَ أنك غبتَ عن قريتك وماذا حدث فيها يا عبد الله؟ اعلم أولًا يا دكتور أن الجانب المعنوي من الإنسان عصيٌ على الدراسة والتبويب فهو معجزة لا يُحيط بها إلا خالقها.. دُرِسَ الإنسانُ بالمنظور المادي ولا أحد يمكنه إدراك هذا الالتصاق بين المادة والمعنى. فهو يفوق طاقة. البشر ثم إن معنى الإنسان وماهية روحه لا يمكن فهمها وإدراكها. فهل يمكنك استخراج عضو اسمه الضمير، وهل تستطيع تحديد مكان الرؤية في القلب، وهل تستطيع أنْ تدرك وتشخص كيف تحمل الجينات الوراثية الصفات والملكات المعنوية. هل بإمكانك أنْ تدلني على موقع الألم في جسم الإنسان.

وبالملخص فإنّ الإنسان خُلق من أعضاءٍ مادية وأعضاءٍ معنوية على شكل طاقة خفية.

وهذه الأعضاء المعنوية هي ما تضمنته نفخة الله في جسدِ آدم يوم خلقه..

وعندما يمرض عضو مادي في جسدنا وترتبك وظائفه نراجع الطبيب فيشخص علاجه أو استئصاله. لكننا لا ندرك أننا أطباء أنفسنا في أمر أنفسنا، وعندما تمرض النفوس فما لها إلا العودة لطبيبها وخالقها. نحن

نشوه مكوناتنا المعنوية بإخراجها عن فطرة خلقها ونحرّفها ونهملها حتى تدرس وتضمحل.

فهلا التفتنا إلى ما يحدث داخلنا من عيوبٍ وتشوه. وعندها يجب أنْ نراجع أنفسنا لا الأطباء النفسيين. فلا أحد يعلم ما تخرَّب في نفسك أكثر منك.

هذه الملكات هي أمانتنا ومسؤوليتنا وتنميتها والحفاظ عليها واستخدام طاقتها الهائلة هو واجبنا. هذه الفطرة العليا هي القيمة العليا التي نسعى لها.

وقد خُلقت معنا فأهملناها وابتدعنا قيمة أخرى لا تضاهيها.

فعجبًا لأمرنا.. نبخس قدر خلقنا المعجز ونحاول صناعة أنفسنا بشكل بائس ومهلهل.

رسالتنا في هذه الحياة هي الحفاظ على فطرة خلقنا.

وقد كانت نفسي خلال عملي في الآثار تُدفن وتُدرس وأنا أبحث عن غيرها.

النظرة المادية للأشياء تعمي عن الرؤية المعنوية. أنت حين تحرص على نظافة جسدك ومعالجة أعضاءك وترتدي أجمل الثياب وتضع أفخر العطور وتدقق في تفاصيل مظهرك وتسريحة شعرك وتعتني بجلدك وتُخضِع نفسك لعمليات التجميل وتحرص على وزنك وتراقب طعامك وتخصص مظهرًا لكلِ مناسبة وتكد لتحصيل المكانة واستحصال القيمة والنجاح في العمل وادعاء التفوق، وتنظر إلى نفسك بعجب، وتصارع

وتتنافس لتحوز الشهرة.. كل هذا يحدث تجاه مظهرك فهل وعيت لما حدث مقابله لجوهرك من إهمال وغفلة وانعدام العناية والمراقبة.

قد تأخذ ابنتك للطبيب لتعيد عافيتها، فهل حملت صفتك لعلاجها عندك.

هذا اللّهاث المادي خلف المال والمُلك والتفاخر والإعزاز الأجوف والتظاهر على الناس بتحصيل المكاسب المادية ورفعة المناصب، كله يحدث على حساب إغفال جوهرك وتعطيل ملكاتك المعنوية.

ببساطة لأن أهدافك مادية، فأنت تهدم معناك وإنما خُلق الاثنان للتوازن والعيش معًا بذاتِ الدرجة من استحقاق العناية. أنت حين تحب المال والمظهر والجاه على حساب إمكانات داخلك كانت كفيلة بتحقيق كل هذا، وهي صالحة حية فعّالة في سلوكك ونظرتك للحياة. لو اعتمد الإنسان جانبه المعنوي وأحياه حق حياته، لجاءه مُلك الدنيا يتودد تملّكه. نحن نعيش نصف الإنسان بجانبه المادي فقط أما جانبه المعنوي فهو مُهمّش.

فلو رأيت بقلبك لأبعد مما ترى عيناك لأدركت الحياة. ولو أقمت ضميرك حسيبًا عن حساب القانون والمجتمع ونظرة الناس لأحييت جانبك الآخر وتكاملت به.

ولونظرت إلى روحك وعظمة ملكاتها أكثر مما تنظر في مظهر جسدك لاستوت نظرتك للأمور وكففت عن التصارع على المكاسب. ولو فطنت بصيرتك وأنفذتها لَتميَّز القيّم والتافه أمام ناظريك. ولو كففت لسانك عن استهلاك كلام الآخرين لبرعتَ وأبدعت لسانًا مُلهمًا. ولو تنزّهت عن

ارتداء آراءهم واجتهدت رأيك لنفذت إلى الحقيقة وأدركتها. ولو توقفت عن اجترار وتقليد فِكر الآخرين لخططت فكرًا ناصعًا يُريكَ قيمة نفسك.

ولا تُعَارض إلا الآراء التي بها هوى نفس وذلك شأن الله في طمسها.

وأما ما حدث في نفسي فهو رسالة للإنسان أن يكون أميرًا أمينًا مخلصًا بتفقّد جوهره ويحسن قيادته ويصلحه ويتخلص من الغرباء.

لو انتبهنا إلى ثقافة الجسد الإلهية لرأينا أنّ كل جسم غريب يدخله يسبب له العلل. كذلك يجب أنْ تكون ثقافتنا الشخصية خالية من العلل الغريبة.

هذه نسخة إنساني السابق وما حدث في قريتي تعبير ودلالة عن حكاية الإنسان منذ أول الخلق. الغياب عن النفس ومراقبتها وإهمالها لا يكون قطعيًا فنحن نعود لملكاتنا حين نحتاجها لمصلحة ما دون الاطلاع على حالها.

فقط يهتمُ الإنسانُ بما يحتاجه من هذه الملكات لتحقيق أهواءه.

هناك أُناس يقضون حياتهم وهم لم يقفوا مرة أمام حساب الضمير حتى يضعف صوته داخلهم ولا يسمعونه. وآخرين يراجعونه بالصدفة وهم غالبية البشر. وحتمًا يكون هذا في أمرٍ لا يشعرهم بالندم أو العار.

وأما الندرة من الناس فهم يحاسبون أنفسهم قبل أنْ يُحاسبوا ..

وذلك هو الغياب عن النفسِ بوجودها ووجودك معًا. حين لا تراجع ضميرًا ولا تتفقد دوره ذلك هو الغياب. وهناك أُناس لوثوا قلوبهم بالأحقاد والضغائن والأدران حتى أعموها عن النظر فذلك هو التغرب

والغياب. ومن يحملون مكوناتهم المعنوية ولا يعيشون ساعة لها أومنها طربًا بالمظاهرِ، فذلك هُجرانٌ مبين. أُعطي الإنسان البصر والبصيرة، فعيناه تبصران وقلبه يبصر وروحه تبصر وبصيرته تبصر، كل هؤلاء أصابهم بالعمى فأتبع الظالمين وسار بأثر الظلال. وذلك هو الغياب والتغرّب وقد قضت أمانة هذه المكونات المعنوية رعايتها وتفعيلها ورؤية العالم من خلالها ومنحها فرصة العيش والإبداع كما خلقت حية مبدعة. إنها مسؤولية إمارة النفس فكلنا خُلقنا أمراء أنفسنا وملكاتنا فكيف رضي البعض أن يكونوا محض عبيد.

خلقنا لنقود مكوناتنا ونرتقي بها ونسمو بسموها، فكيف رضينا أن نقاد كالبهائم!.

حين أهملنا دورنا ومسؤوليتنا تجاهها، فقدنا قيمتنا وذلك هو الغياب والغفلة والتخلّي بأقبح صوره.. إن الله الذي خلقنا لم يُرِنا نفسه ماديًا في الدنيا وآرانا نفسه معنويًا، أفليس هذا إلهام لنا أن نعيش كمعنى لنرى أنفسنا ونرى عظمة خالقنا سبحانه. هذا الإهمال والغيبة والغفلة دفع الغرباء من الشياطين للاستيلاء على نفوسنا في ظلِّ القيادة الهزيلة لها وحفّز النفس على الفجور والأمر بالسوء واتباع الهوى، فأصطرعت الصفات والملكات على سيادة النفس والظهور في السلوك والتقمص في منهج الذات.

حتى صفاتك تنازعك على سيادة نفسك. حين تستعر الفوضى وينشب التنافس ويعيش الغرباء بالنفس ويندمجوا بها كجزءٍ منها ويتمازجوا بها وبملكاتها ويتزاوجوا فينتج عن ذلك هجائن الصفات.. التي تُقبل وتُأوى

وتتعايش فلا تكتفي الصفات الغريبة والدخيلة بالتعايش بل تتداخل وتقوم بإنتاج الهجائن.

جيل جديد من الهجائن هو تطور الصفات ومسخها كالمتقلب ودلو الكلام والعبد الأكبر والليّن الجسد وهم حصيلة تلاقح الغرباء بالصفات الأصلية.

تسعى النفسُ للاستحواذ على الجسد أمَّارة بالسوء بإرادتها الغاوية هوى النفس. ويسعى الشيطان للاستيلاء عليها وتجنيدها لخدمته والخروج بها عن مسارها وإهلاكها وإظلالها كما تولد المتقلب (النفاق) من السخط (هوى النفس) والكذب والتغذية المسمومة.

وخضعت القرية لسطوة التخريب والمصادرة..

حين يكون داخلك قذرًا لن تستطيع العيش حتى مع ذاتك.

وقد رأيت أنّ كل ملكات الإنسان يمكن أن تخرّب إلا الضمير.. البصيرة تُعمى والقلب يلوّث والنفس تُخرّب والصفات تشوّه وتُمسخ، والعقل يُعزل وينحّى.

لأنه القاضي الإلهي الذي لا يرتشي ولا يخضع.

إذن هذا ما كان يحزنك يا عبد الله، ويبدو أنك تشعر بندمٍ شديدٍ على ما حلّ بنفسك من إهمالها والغفلة عنها والتنصل من مسؤولية قيادتها وأداء أمانتها، تشعر بالندم على ما حَمَّلها إهمالك وغيابك من ذنوبٍ وتشوهٍ.

هذا صحيح يا دكتور..

لا تيأس من عفو الله ومغفرته حتى وأنت تُقاد إلى النار.. ألم تكن نومتك واغتسالك في الكهف من ذنوبك توبةً ونيةً لاستعادة نفسك من الغرباء.

كانت كذلك يا دكتور..

لقد درست قرية المنحوتات والأمنيات الضالة وأما القرية التي بُنيت حول منزل الضمير فإنها هنا في الصدر نقية خالية من التشوّه.

آلمت نفسي ورأسي بعتابك لنفسك سأذهب لأنام. ألا تريد النوم؟.

لا نوم على ضَيم يا دكتور.. تمغط الدكتور ودخل خيمته وبقيتُ أنظر داخلي في ماضي نفسي وحياة سكانها.. ترك الكتاب على كرسيه تقلب صفحاته الريح كل هبة تنشر عددًا من صفحاته وتستقر على صفحة.

هبت نسمة فنشرت صفحاته واستقرت على تمثل الحكيم صدفة على الكرسي أمامي. مرحبًا أيها الحكيم صدفة مرحبًا يا ضميري الأغر. أجئت لتعاتبني أيها الحكيم.. وهل يضيرك أن تشعر بالتقصير وتعترف بالذنب.

لا يضيرني إحقاق الحق على نفسي وأعرف أنّ مقدار الشعور بألم التأنيب هو مقدار صدق التوبة. فقل ما لديك أيها الحكيم.

أُذكرك أنك أهملتني وبخست قدري وسطحت دوري وأنفت مراجعتي وجعلتني هامشًا في نفسك لا ينتصح برأيي أحد ولا يستمع لعتابي أحد، تنحيت جانب القرية خالٍ من العيوب والتشوه ومرتقيًا عنها. كلما رفعت صوتي بحديثٍ، حالت دوني ودون سماعي الأهواء والرغبات. أراقب

ما تفعله بنفسها القرية متألمًا ومشدودًا بالأسى عليها، يمرُ بي الغرباء باستخفافٍ يُعْمِلُون مخططاتهم في تخريبها، ولا سلطة لي على حمايتها أو ردعهم. أثناء غيابك.

في المظاهر كنت المسؤول المنصّب بلا سلطة ولا قرار طغت علي سلطة الغرباء. وكان عليك أنّ تدرك أيها الأمير أنّ لا أمر لي بهذه القرية إلا بأمرك. وما دُمت لا تراجعني فلن يراجعني أحد فلماذا غفلت عني وأضعفت ردعي وأبطلت نصحي.

أيها الحكيم إن للنفس سطوة ولرغباتها إغراء يصعب قمعه. وأنّ الاستقامة هي تجرّع الصبر وتنحية الميول. إنّ نظام الإنسان المؤمر عليه، نظام صارم لا يطيقه إلا الشجعان والأقوياء والمؤمنين به. وللنفس قيّاد واحد فإن تعدد واخذ بها غير صاحبها أضاعت طريقها. ولكم كان خوف العتاب سببًا في التهرب من مواجهة النفس. وما تمرد الإنسان على قدر خلقه إلا ليجتهد في صناعة نفسه جاهلًا ومغترًا بها، كمن يعيد عجن طينته ليجتهد في خلقها فيعجز بلوغ صورته الأولى فيكتفي بإقناع نفسه بحسن صنيعه. والتوق إلى الحرية يأتي على النفس بعبودية الرضا عنها.. أينما ضعفت القيادة شمخت الأدوار وتنافست وأحلّت الفوضى. وأينما قلّ الانظباط، تجرأت الغايات وتفاقمت العلل وتسرب الإغواء فشتت الأمر وحلل الروابط..

لا شيء ينسينا ذواتنا إلا الصراع مع الآخرين على المكاسب. ولا يوقعنا ضحية أنفسنا، إلا السعي للتفاخر والتطاول وتلبس دور المكانة. شماتة بالناس وتعالٍ عليهم، وتعييرًا لدناءة قدرهم، إثباتًا للنفسِ بنفي ما عداها. وأكثر ما

يمتع الناس تعليق إعجاب عيون الناس قلادة في رقابهم. وليتهم يعدوها أمانة ومسؤولية والتزام بقدر ما يعدوها زينةً لهم.. وقديمًا غرّ الإنسان حُسن صنيعه فادعاه لنفسه متجاهلًا من وضع له أسباب الصنيع وأخذ بيده لإنجازه.

ولو صدق الناس في نسب ما يملكون لما ملكوا شيئًا. وقليلون من يسعون للمكانة بغاية نبيلة لا يشوبها الترفّع على الناسِ وازدراء شأنهم.. وقد بلغ طمع الإنسان دوف ترابه بوحل الخسة تهميشًا لمن عداه.. وما أكثر الأصوات التي تنهانا وما أبعدنا عن سماعها.

النُصح أنْ لا أسمح لبذرة شائنة أنْ تنبت في نفسك وأُحذرك من عواقبها في سلوكك. قال الحكيم وأكمل.. وحَظرَ عليك تبنيها وقبولها قبل فوات الأوان.

لو تواضع الناس للصدق لأذل عزتهم بالإثمِ.. ومن آتاه الله عِظة وخشي التحدث بها درءًا للصراع وتحاشيا لمكاره الاختلاف، فقد أحبطَ مهمته وتنازل عن تكليفه.

ورسائل الطيور بأرجلها ورسائل الإنسان بيده ولسانه وقلبه وذلك أضعف الإيمان. ومرارة الصراع أهون من حلاوة العُزلة. وسمة الجاهل الاستخفاف وسمة العالم الشفقة على من أزرى به جهله. والجهل أجرأ على العلم جرأة الشيطان على ربه. ولكم ارتفعت المناطيد باتساع فراغها.

والشعور بالألم مسؤولية تتخطى ذاتك لتحقق معنى أنْ يأنس الآخرين بوجودك.. الشعور بألم الآخرين نوع من الدفاع عنهم.. الألم

سمة جامعة لبني البشر. فهل علّمنا ضمائرنا أنْ تتألم بألمهم وهل علّمنا قلوبنا أن تتوجع.

إنّ التوجّع بأوجاعهم فرض.. من ينظرون إلى العالم عبرَ نافذة الضمير المستتر، هم ترابٌ خائنٌ كان أولى أنْ يبقى في الأرض لوطءِ أقدامنا على أن يتعالى ليشاركنا مادة الخلق ثم يتبرأ من شراكته. كلنا أيها الحكيم غائبون في المظهر مسافرون بعيدًا عن جوهرنا من ضياعٍ لضياع. وما يقع فيه الإنسان هو أنْ يغلّب مَلَكَة على ملكة ويغيّر أدوارها فيكون للعينِ من الرؤية على حسابِ تعطيل القلب وأن يغلّب التسرّع على التروي والصبر وأن يغلّب الجسد ونزواته على حاكميه ومن هم معنى الحياة فيه، وأنْ يغيّب العقل بهوى النفس وأنْ يهمل ضميره ويراجع أهواءه.

متى سندرك أنْ ما خلقنا اللهُ عليه غير قابل للتغيير والعبث.. ولو أنزلنا الجهل الذي نحمله في أجسادنا لصرنا بخفةِ غيمة وسخاء مطر وسمو سنبلة.

ولو اكتفت أجسانا بالهوية الإلهية عن استقبال الغرباء وإيواء الثقافات الهدّامة لبقينا نحمل سمة طُهر خلقنا من ماء.

نحن نطالب الحكام بالعدل ونحن لم نكن عادلين في حكم من أولانا الله إمارتهم..

القيادة أن تكون سطوتك بنفس عدوك لا بنفس جنودك.. أعلم كل هذا أيها الحكيم وأعلم أنّ أخطر من الذنبِ تبريره، ولا أملك بعد وقوع الذنب إلا الاعتراف به.

ويمكن للإنسان أنْ يكون ضميرًا لأخيه يحاسبه ويحذره ويستدر اعترافه بخطأه من عصيان كبريائه.

صدقت أيها الأمير، فكيف ترى الإمارة لأضمن أنْ لن أفقد دوري مرة أخرى.

خُلق الناس من نفسٍ واحدةٍ آمرها نبي وقدوة مأمور باتباع منهج وقالب خلق لحفظه من نفسه وحفظ الناس تباعًا. فإن لزم منهجه واقتاد نفسه إليه حقت له الإمارة والتبعية وأتبعه الله بعدله رعيته فلزمت منهجه وتمثلت قدوته. وإنْ نفر بنفسه عن منهجه نفرت منه الرعية وانقلبت على إمارته.

وأهل الإمارة.. من يجعل المُلك أَثَرَةً ومُتعًا ومغنمًا وينأى بنفسه عن أمانة الرعية فيسلط الله عليه أعداءه من الداخل والخارج فينزعوه.

ومن يطغى ويتجبر ويعض على الحكم بالنواجذ فيكون همّه في بقاء مُلكه وسطوته فيبتليه الله ببطانة فاسدة منافقة تنفذ ظلمه وتسقطه في نفوس الرعية فيُشغل بالسلطان عن العدل فيأخذه الله بقومه وخادميه.

ومن كان ضعيفًا دعيًّا غير مؤهل لولاية الناس يطمع بضعفه من حوله ويُحاك له الدسائس والمؤامرات ويتواطأ عليه الأغراب والأعداء.

ومن شُغل بغير أمر الناس وحقوقهم، أذاقه الله بأسهم فخلعوه.

ومن جعل الحكم موروثًا فيحرم الناس من حقهم في إمامٍ عادلٍ.

ومن اتخذ القوة والبطش يده وأذلّ الناس بتسليط بعضهم على بعض فيخونه من رتعوا بنعمته وينقلبوا عليه.. ومن تآمر على قومه وسلّط عليهم

الأعداء فيخزيه التاريخ. وكلهم مهزومون خارجون على أمانتهم إلا حاكم عادل على دينِ الحقِ والصدقِ.

هزّ الحكيمُ رأسه وقام ودخل قريته.

هبت نسمةٌ وقلّبت صفحات الكتاب وتوقّف على تمثل الصدق.

مرحبًا يا صاحبي ودليلي.. قد عفوت عنك فلا تظن أني جئت لعتابك وكنت معك إذ استعدت نفسك وكنت تسمع صوتي وتهتدي به أيها الأمير عبد الله.

أرى أنك كبرت كثيرًا أيها الصدق..

آن لك أنْ تدرك أنّ عمر الصدق بعمرِ رؤيتنا له فقد عرفتني طفلًا أول الأمر وحين قررت استعادة قريتك من الغرباء وأنت تسمع حديثي بنفسك وكنت شابًا أدلك على الطريق وأقاتل وأجاهد نفسك معك، وقد كبرت بنفسك ونظرتك..

الآن أنت تراني بقدرِ الصدق الذي داخلك ولم ترني كبيرًا إلا لأن صدقك كبر على ذاتك وأحق عليها الحق. عمر الصدق هو عمر وجوده داخلك ومقدار سيادته هو مقدار ما لديه من أهل حوله.

حدثني أيها الصدق عن مواطئ الصدق.

الصدق هو الخير كله. والصادق من الناس إنسانٌ آمنٌ لا ينازعه ملام في نفسه ولا ينغص سلامه شعور بالتأنيب. وأول الصدق معرفة نفسك

وتأملها وإدراك خلقك وقضية وجودك، فمن تبع صدقه اهتدى بنفسه واعتبر بالناس.

ومن جعل الصدق دليله احتد حسابه لنفسه وبرعت كل حواسه في نفاذ الرؤية. الصدق هو الشعور المُتفحص والمتأمل لكل ما حولك والشعور بقيمة الأشياء وحفظ مكانتها وإدراك غايتها. الصدق هو ثقافة النفس الأولى التي لا تقبل التزوير والتدخل. والصدق أوصى صفاتك بك. وهو سمةُ الشجعان وهو يستحق التضحية ولو كانت تهلكة.

فأخبرني عن عواقب الصدق.

الكلمة الصادقة بهذا الزمن تهلُكة لذا كان أعظم الجهاد كلمة حق عند سلطانٍ جائرٍ. اصدق مع الناس صدقك مع نفسك وأعدك أنْ تكون وحيدًا. كن صادق النية وسترى كم خديعة ترقص على غفلتك. والحقيقة أنّ الصادقين لا يخططون للحياة بل هي التي تتودد إليهم جزاء صدقهم. وهو يبدأ من صدق النية ثم الرؤية ثم القول فالفعل. ولا يمكن للأعمى أن يكون صادقًا وهو لم يصدق برؤية الحياة. وأدعياء الصدق هم أخطر الكاذبين. وعاقبة الصدق نفرة الناس بفضح نواياهم ونزع أقنعتهم. وإذا صدقت في تشخيص عيوب الآخرين فقد جمعت لك العداوة. وإذا أشرتَ لعيبٍ ردت العزة بالإثم عليك التهمة.

وأنّ الإنسان ليُطعن بأعزِ ما يملك. فإن بالغت في صدقك طُعنت بسوءِ النوايا. وإن نصحت جرّ عليك النصح شبهة التطاول.. وكثيرًا ما يُستخدم

ستار النوايا النبيلة لأغراضٍ خبيثة ويوهم قناع الحرص بالطيبة وما تحتها إلا التدبير وشِراك الذمِ والخداع. ومن أُخذ عنه الشهامة حدّ الثقة، أصبح هدفًا سهلًا يؤتى من شهامته ويُوقع به من خير أعماله وخير نواياه.

وكثيرًا ما يُؤخذ بيد طري العود والتجربة باسم الحرص استغلالًا لاندفاعه وفوران طاقته ونزق نزواته إلى المهالك والانحراف بحجة بناءه وتوجيهه لسُبلِ الحياة وهو ضحية غضاضة خبرته ومحدودية وعيه.

ومصالح الإنسان هي محك مبادئه واختبار منهجه وصدق ثباته على قناعاته وحدوده. ونادرون من يقفون على مبادئهم بوجه سيول المصالح.

وهنا يُمحصُ الصادق من المتقلب وأجرأ الناس على الحق من يطوعونه لخدمة مصالحهم ويحرفونه عن موضعه.. ومن يُقْصِرُون الحياة على آراءهم وقناعاتهم ويفصِّلونها حسب قوالب رأيهم وتجربتهم وقدراتهم ويقيسون ويقيّمون الناس بها، هم من يهدمون المناهج على رؤوس الناس إلا على ما يأويهم ويضم رأيهم.

يصر الإنسان على أن يمر العالم من ضيق صدره وثقب آراءه حتى يحضون بتأييده ويكف عن تشريع نزاعه.. ما أوقح من يريدون أنْ يتخذوا رأيهم ونظرتهم مرجعًا، حتى لو كان حصيلة عجزٍ وسطحية. ومن يحدثهم عجزهم بوجوبِ عجز الآخرين ليستووا على صعيدٍ واحدٍ.. ويالعمى حين يظن البعضُ أنْ الصواب حصتهم دون الخلق وفتات آراء الناس هو فضلة نعمة صوابهم التي لا مناص من حملها على الرأس حتى

لو كلفت أنْ يأكل الطير منه.. والصادق من يقف أمام المنهج مختبرًا نفسه معرفًا لقدره لا من يغير المنهج ويزحزحه لاحتواءه. فأنت تعرض نفسك أمام المبدأ لترى قدرك أمام مقاييسه. والدجّالون من يدّعون تلبّس المنهج وتمثيله. وسبب ضياع الناس هو تبعيتهم لشخص يدّعي تمثل المبدأ. والناس عاملون في المبدأ ولا أحد كفؤ لتمثيله.. اتبع المناهج فإنها ثابتة ولا تتبع الأشخاص فإنهم عُرضة الزلل.. وإنما التشريع والحدود والكلام درجة رفيعة يطاولها الفعل ليكون.. وإنها كائنة لو أعرض عنها كل الخلائق.. والكلام نوايا فما جهله الناس علمه رب الناس. وكل كلمة تكتب لها مصدر وشخص تقصده والنذل هو من يتخذ من مقربيه موضوعًا يتهمهم ويذمهم ويعيبهم بحسب ما تشتهي نفسه ويعكس عليهم رؤية نفسه وتجربته وخرج أهواءه فإن كانوا لا يعلمون فإنّ هناك ربٌ يعلمُ ويحاسبُ.

صدقت وأحسنت أيها الشيخ صدق لا برحت يدي يدك يا دليلي وسبيل هدايتي.

دمت أهلًا أيها الأمير استأذنك بالعودة إلى القرية.

رفرفت صفحات الكتاب وتقلبت يمينًا وشمالًا فتمثّل الكذب على الكرسي أمامي.. لا مرحبًا بك يا بيت الشرور كلها، أرى أنك صغرت كثيرًا وعدت لشبابك.

لا يعاتب العدو على انعدام المروءة. وإنما هي نظرتك من صغرت من شأني.

أيها الغريب، قال الكذب..

وتتحدث عن المروءة وأنت أكثر من يسقطها.. وقد استعدت قريتي رغم أنفك وهي بأمانٍ ما دامت لا تأوي كذبًا مثلك.

أتظن أني اغتربتُ لمجرد طردي من قريتك. إنّ لي من القرى أكثر مما لدى شيخك الصدق ولي أهل أينما توجهت، ثم أنك ستحتاجني يومًا، ستمل من مراقبة نفسك وستغفل عنها عندها ستجدني فيها.. أنتم تقولون أنّ الصدق طريق النجاة وتعتصمون بالكذب لنجاتكم.

إنّ للكذبِ إغراء، كما لرغبات الجسد. يوهمنا بتفادي العتاب ويحسّن صورتنا أمام الناس ويبطن ويستر سوء النوايا. ولا يسعى لإبطان نيته إلا من يخشى خزي إشهارها.. نحن نمسك بروابطنا مع الناس على حساب إفلات روابطنا مع صفاتنا. فنكسب الناس بخسارة أنفسنا.. ستعيش أيها الكذب بداخل من لا يستقبحون كذبهم وتكون أقرب ملاجئهم، يولونك أمر أنفسهم ظنًا منهم بقدرتك على تخليصهم من المآزق. أو بغفلةٍ من تجرفهم المظاهر ولا يأبهون بما يحدث داخلهم من ظلمٍ لملكاتهم بسبب إيواءك وتقديمك.. أو بجهلِ من تبلدت مشاعرهم فهم لا يدركون ما يحدث أمامهم إلا بمفسر يختصر عليهم جهد التفسير ولا يكلفهم عناء التفكير أو إسقاط النور على ظلمائهم وفضيحة جهلهم. فما بالك بأنْ يُوْكَلُون لتفسير ورؤية ما يحدث داخلهم من تنافس يسهلون به اجتثاث ملكة خلقهم وإحلال أمثالك محلها.. الجاهلون حين يستعمرهم الغرباء ويخضعون ملكات خلقهم يوكلون أمر إدارة أنفسهم لغيرهم من باب

التقديس أو القدوة أو الإعجاب. إنْ كان المُسَلَم من البشر وإنْ كان من غيرهم فيوكلون أمر إدارتهم للمصالح والرغبات والكِبر والتفاخر. وأكثر ما يُغري الإنسان بالتبعية، هو القوة ليبدد بها ضعفه ويشعر بأمان حمايتها ويدفئ مشاعره بازدحامِ القطيع .

أقرُ لك أيها الكذب أنّ لك نسبة في النفوس تتفاوت ولك استخدام وحضور أحيانًا بكذبةٍ بيضاءٍ وأحيانًا بقيادة وتسليم كامل. وعجبًا لمُسْلِمٍ يُسلم قياده للكذب، فأين إسلامه لله!.. وإنّ نفسَ الانسانِ تُخاض بالسلم أو تُخاض بالجهاد.

وما أكثر المُخَلَفِين عن جهاد أنفسهم. إنْ لم تقاتل داخلك فلا شرعية لقتال خارجك.. وإنك أيها الكذب لأبرع أدوات الشيطان وأنفذها وأنك شجرة خُبث تتسلق وتلتف على كل صالحة فتضعفها وتغيبها.. والصالحون من يُؤَمِنُون داخلهم ليتفرّغوا لحربِ خارجهم ومن خذل صفاته خذلته أمام الناس.

وحُسنُ الإمارة لا يكون إلا برعيةٍ راضيةٍ مرضيةٍ تمدك بالقوة وتسندك فلا يُلقى بها الرعب.. وإنّ فطرة الإنسان لتنبه إلى سوء الصنيع وانحراف المسار، فتربك صاحبها وتوقع الرعب في قلبه. ومهما حجبتَ الفطرة وهمشتها فإنها تنازعك على وجودها وتقاتل عن بقائها وتطالب بإمارتها.. الفطرة هي إمارة النفس المؤمرة من خالقها.

قد أبطلت مسالكي أيها الغريب.. ولكن اعلم أنها لا تنفذ فإنّ نوايا الشر واضحة مذمومة منبوذة لدى الخلق ولكني أطور انحرافي وأتحايل

وأحدِّث أساليبي. كلما تحصّن الناس مني. فكيف يمكنهم ردع نية مبيتة بشرٍ مُقنَّعة بخيرٍ وصلاحٍ.. لا أحد يعلم الغيب من الخلق وأنّ لهم ظاهر الأمور ولا يؤخذ الإنسان على نية ولكن على عمل فإن كان العمل خيرًا بظاهره قُبل بين الناس وخُدعوا به ومُرر عليهم ومرت خلاله السيئة.

خديعة هذا العصر هي كلمة الحق التي يُراد بها باطل. وإنها لناجعة نافذة أحتفي بحصادها. سأكون مغفلًا أيها الغريب إن أظهرتُ الشر ولكن أموهه وأقنعّه وأدّعي بغيره، فابلغ به ما لا يبلغ الشر السافر الذي ترفضه فطرة الناس. وإنّ أعظم آثاري على البشر هو إلهائهم بأنفسهم عن قضاياهم وإنشاب الصراع.

أعبث بملكاتهم واذللها وامتطيها بسلوكهم مراقبًا مستمتعًا بإنجاز مآربي وغاياتي.

والخوف هو حاضنة قبولي ما أن يخاف الإنسان من شرٍ يصيبه، إلا استدعاني فأكون في قلبه ولسانه ويده اؤمنه بكذبي وخداعي..

وأُلْجِئُه فأصبح من أهله وأكون حاضرًا طوارئه وأزماته.. والجهل هو بساطي الذي يتسع بحجم العالم. والجاهلون هم عدتي وعتادي أمضي بهم..

إنهم مخلصون لي بقدر إخلاصهم لجهلهم.. وتعطيلُ الإنسانِ لقدراته وإمكاناته يدعوني لتجنيده. وإنّ جنودي المُغَيّبين عن أنفسهم أوهمهم بتحفيز بعض صفاتهم وأخلع عليهم صفة الجرأة والشجاعة

والعلم، فتكفي لإغرائهم وتدفعهم لخدمتي، مغترون بصوابهم، غافلون عن ضريبتي منهم.

الإغراء بالمكانة احدى ألعابي المسلية.. الجاهلون هم أخلص الدُعاة وأكثرهم حماسًا كما يقولون لنشر سطوتي وبسط سلطاني. إنّ الملك يبدأ من النفس، فمن ملك نفسك فقد سخرك وجندك وأعمل بك خططه.

كما قلت لك ايها الغريب..

إنّ مجرد تسليط إنسان واحد يؤدي نتائج وخيمة فإن دفعت شخصًا للتعدّي حفّزت الآخر للدفاع، وأوقعت الاثنان في شباك الفرجة. أدفع بهم العداوة وأعمل بهم الحقد وأبث الخراب وأُبرر لهم الفساد وأُزين لهم غاياتهم، قابيل هو لعبتي الأبدية، أوقع الحسد وأوقظ المطامع وأحزّب للصراع فينسى الإنسان ما يخسر داخله وهو منتشٍ بما يكسب من أخيه في صراعه.

وهذه الغفلة هي فرصتي لامتلاكه وتحريكه كما أريد..أقصى ما يمكن أنْ يخسره الإنسان، هو أنْ يحوّل إلى مجردِ ردة فعل. وهو يراها حق قضت به طبيعة الأشياء فيبرر له هذا الحق حقده ونفرته وعداوة الرد على ما يتلقى. ومغنمي من هذا أني شغلته بما ظن أنه حقّ الرد، شغلته عن المبادرة في إنفاذ منهجه ومقارعة العداوة بالخير، لدحضها وتحجيمها. فحسرت الخير وأقصيته عن ساحته واستوليت على أهله وأرضه. وجعلتهم بموضعِ متهمٍ يشغله الدفاع عن نفسه بما فرضت عليه من أدوات التعدّي وهي مقارعة العداوة بالعداوة وتطرف النزاع..

وتعلم أيها الغريب قول هابيل لأخيه قابيل يوم أراد قتله..

(لئن بسطت إلي يدك لتقتلني ما أنا بباسطٍ يدي إليك لأقتلك إني أخاف الله رب العالمين)..

فذلك موقف المخلص والصالح الذي لا يعتبر به البشر.

وإنهم ليقتلون أنفسهم بتقبل وإهمال الكذب وإهمال ملكات خلقهم وفطرتهم ويقتلون أنفسهم من الداخل لقتلِ أعداءهم في الخارج، فينتصرون بهزيمة أنفسهم. ومجرد وجودي داخل قراهم هو قتل بطيء لأنفسهم وخيانة عظمى لفطرة خلقهم. وصمت الكذب..

ولكن ليس عندي. لست عندي إلا مذمومًا مدحورًا، مطرود منبوذ.

ألا ترى أنك كنت تتكلم عن أساليبك بصدقٍ أيها الكذب، فحتى أنت الكذب مفطور على الصدق وأكثر ما بنفسك الصدق وما كان لك من حصيلة الكذب لن تتجاوز ما لله بك، فصدقك أكثر من كذبك رغمًا عنك فما كان الله ليترك لك خلقه..

أتدري لِمَ أصر على قريتك أيها الغريب رغم أنّ لي الكثير من القرى مما لا عدّ له ولا حصر، وكم لديّ من الجنود لكنهم ليسوا بِغَنَاءِ قريتك.

بعض القرى العصيّة كقريتك هي هدفي وقضيتي ومسعاي، فإيقاعها هو التحدي الحقيقي. وهو الإنجاز الحق. لذا لا أكلُّ عن مناوشتها والدوران حولها حتى أجدُ منفذًا أغزوها منه، أو نقطة ضعف أخترقها فأستحوذ عليها واقيم فيها.

وهذا النوع من القرى أهم لديّ مما أملك لأني إنْ أسقطتَ قريةً واعيةً، أُسقط بها خلقًا كثير. ويطربني إسقاط الرؤوس التي أضمن بها تسليم ما عداها بلا قتال أو حصار. ويؤنسني عمل شِراكي وإنفاذ خططي على المدركين، فإنهم أدوات طاعنة في الـتأثير والاستيلاء عليهم وتسخيرهم هو طعم السطوة.

لأني بهم أنفذ من أهدافي ما لا أنفذ بالمئات دونهم. إسقاط أربابِ الفكرِ هو غايتي العظمى أضمن بسقوطهم تبعية جيش من المجترين ومعدومي الهوية.

الذين يتبعون الجموع وينعقون مع الناعقين. رأس أملك به آلاف الرؤوس أشقى لإفساده وأتحايلُ عليه بأذكى أساليبي، وحين أدجنه أبثه سمومي يحقنها في جسدِ المجتمع فتتسع رقعة عبيدي وتابعي وعمال أهدافي. شخص أحمله على كذبة مشوّهة فيحمله الجمهور على أكتافهم مُروجين كذبتي مُعظمين إياها.

أحقق بها ضرب جنودِ الصدقِ والصلاح وأُفرِغ ساحتهم وأحضر أتباعهم.

كذبة تعلل آمالي وتنعش طغياني. أوهمه بتحررِ عقله فيتعدّى على خالقه ودينه ويزدري شرائع الحق والعدل. لا تستغرب صدقي معك أيها الأمير فحتى الكذب مخلوق يصدق بمعظم سلوكه ويتكلف الكذب في أقله.

نعم أنت أمير نجوت بصدقك ولا شيء يعمل دون أمرِ الله حتى الكذب.

فتنة للناس وابتلاء لهم ولله في نفسه أكثر مما له فيها رغمًا عنه. وأجرم الخلق لا تتجاوز نسبة شره نسبة خيره.. هؤلاء الذين يدّعون

تحرّر عقولهم، قلت.. لا يجدون حرجًا في أنفسهم من إسقاطِ حكمِ الله ليحكموا أنفسهم فيظلوا.

والصلاح التزام وانظباط، فمن أفلت عقله أفلته ليبرر انحلاله وتجاوز ظوابطه.

وأصبح عقله يضرب خبط عشواء كظهرِ الفرسِ الحرون أو كبالون أُطلقت فوهته. نفث الشيطانُ في آذانهم فجرأهم على ربهم وإنهم لمغرورون بحلمِ الله عليهم، فردّ الله قاصم ولو بعد حين. فليتمتعوا قليلًا بجرأتهم ثم يضطرهم إلى عذابٍ مهين. كل من يشرون بالله ثمنًا قليلًا. وأحقرهم من يسقطون الكلفة بينهم وبين ربِ العزةِ فيتطاولون بحجة الانتماء. متجاوزين على مقام الله سبحانه وأنّ الله لا يُقْرَبْ بالاستهتار وإنما بالتبجيل والتعظيم. وإنْ وضعت الكلفة بيننا وبينه في دعاء فهذه ليست بلائقةٍ في غير موضع.

فكيف يدّعي الأدب من قل أدبه مع ربه.. (وما قَدَرُوْا الله حق قدره).

المتحررون.. وأصلُ الكذبِ كلامه من أوهمهم بإسقاط الحدود بينهم وبين خالقهم فيتجرأون عليه. ومن أوهمه حدّ الاعتقاد الراسخ بسعة فكره وأُوهم به حتى أمسخه. وأُقايضهم بما أعطيهم، وآخذ أضعافه منهم بتشويه جهودهم وحرفها وإضاعتها عن منفعة الناس. فيسوقهم الشيطان بعصاه وقد قال لهم ربهم من قبل ولشيطانهم .. (إن عبادي ليس لك عليهم سلطان).. وإنما هو سلطانهم يمدون به الشيطان ويتواطأون معه على أنفسهم.

المخنثون الذين يتطاولون على ربهم ومقدساته لا يجرأون على النبح ببابِ أحدِ الأحزاب أو النطق بكلمةٍ أمام ظالم. مع أنّ الله هو ربُ نعمتهم والأحزاب هم سالبي نعمتهم.. شجعان الكلمة بهذا الزمن هم من يتطاولون على حلم الله ولا يتطاولون على من يطعم جلودهم لخشونة الأسفلت.. كل أولئك كاذبون محرفون ضالون.. أتدري أيها الكذب أكثر ما أندم عليه أني جعلت لك سلطانًا ودورًا في نفسي، ولولا غفلتي وهي نوع من الكذبِ أيضًا في أداءِ مسؤولية الإمارة لِما كان لك دور ووجود فأنا لم أتبنّى وجودك، ولو أني صدقت بمراقبة نفسي وحفظها من الذنب لكنت ذليلًا حتى وإن دعت إليك الحاجة. أو سائلًا تحتال التغلغل ولا ترى راحمًا بك مُستجملًا قبحك مُستَغْفَلاً لقبولك.. الكاذب هو ماسخ الفطرة. ربما لا يكون هذا لقائي الأخير معك أيها الكذب، لكني أعدك أنك لن تكون من أهل القرية.

نفض الكذب عباءته وغادر نحو القرية الأثرية ولفّه ظلامها.

هبت نسمة صفقت صفحات الكتاب واستقرت على تمثل المرأة العباءة أمامي على كرسي الاعتراف.

سأعيدكم لقريتكم أيتها العباءة صالحة آمنة من كيد الغرباء.. فحدثيني عن البصيرة أيتها العباءة.

ألا تسمع عتبي أولًا أيها الأمير.. افضي لي ما بنفسك فقد ظُلمت كثيرًا ولكِ علي حق الاعتذار ولكل الصالحين من أهل قريتي.

كنتُ لك أيها الأمير عبد الله رؤية ناصعة تبلغ ما لا يبلغ البصر. فبصر الانسان لا يحسن تفسير كل ما يراه وإنما هي رؤية الكوامن وخبايا النفوس

وأقصى نواياها إنْ تمثّل في الشكلِ أو خفي هو دوري. كنت ترى بي وتلمس المكنون وتحذره وترى من لا يكن لك الودّ فتعرض عنه. وتحسن صحبة الأخيار بفضلي وتتدارك معايشة من أحذرك منه برؤياي النافذة فتتجنبه قبل بوار العشرة. وتحسن تقدير وتقييم الناس وتعطي لكلِ ذي قدرٍ قدره.

فلا تكون عرضة للخداع وكنت أقيك وبالَ العمى والتخبّط في الناسِ ورؤية الأمورِ على غير حقيقتها. وأوضّح لك المسالك وأمنحك التمييز في طُرقِ الخير والصلاح. تنفذني فلا أعود لك إلا بقرار مكين يبصرك العواقب. كنت تقرأ بي وتتفرس وتبلغ أعماق الناس وإدراك ما غفل عنه النظر. ثم ما لبثت أن أهملتني وتركتني لإمرة الغرباء وتسلّطهم علي، تحيط بي ظلماؤهم فتُبدد رؤيتي وتُهمّش دوري وتُضعف حواسي. بعد أنْ كنت ذا منفعة لك ولنفسي، صرتُ لا أحسن الدفاع عن نفسي. غريبة باغترابك عني تمكّن مني الأعداء وأوقعوا بي، هؤلاء الذين أظن أنّ من ولدتهم قطعت حبل فطرتهم مع حبلهم السري أيضًا. وكنت أسير بيدي عمياء محرومة من نور العناية. أستجير بك وأرسل لك الرسائل بذيلِ السهامِ من بعيدٍ فلا يصلك صوتي المحجوب بمن تسلّطوا على القرية. بعد أنْ كانوا يخافون دوري خوف العقد من الأظافر. صرتُ ضحية عمى الإهمال ووقعت في الغفلة ورتابة العمى. وأنّ اعتياد رتابة الحياة كالتنفس في غرفة تهوية البيضة.

ضعفت قدرتي وخارت أسلحتي في الدفاع عن وجودي واستبدل الحذر بالمرونة.

المرونة في التعامل تغري القرود بأغصانك. كنت أرى ظلمي وظلم أهل القرية الطيبين الذين يبلغ أدبهم أنْ لا يرفعون أيديهم حتى على الأبواب.

وأنّ الأرض لتخجل من طينتها السيئة فتدفنها. وقد غسلت مرة بالطوفان، وما إن وطئها الإنسان مرة أخرى حتى دنسها. ليت غسل الأحقاد يدخل في الوضوء فيطهر النفوسَ كالأجسادِ. ثم إنك انتفضت لاستعادة قريتك وانقلبت على نفسك انقلاب إكليل العروس فرأيتَ جمالها الباهت من عبث الأغراب.

وكان داخلي يبتسم لِما يجري لعل فيه خلاصي.

ابتسامتك هي ضيافة نفسك. ولطالما ابتسم الماء بوجه الحجر. وأن أبعد رحلة هي رحلة الإنسان إلى نفسه. والقرب بالمشاعر والإدراك لا بالمسافات.

القرب بمقدار التفقد. اغتربت وهجرت قريتك وبعدتْ عنك بُعد النسيان حتى أنها لم تعرفك يوم دخلتها. وأرهقتك عودتك بمقدار ما ابتعدت عنها وفقدت زمانها ووقعت في التبعية واستحوذ عليها التسلّط فأذلّ كرام أهلها.

افتقدت صدقك ونقاءك لأبصر بهما، افتقدت عفتك لأرزق النور والرؤية في بواطن الأشياء.

لقد آلمني عتابك أيتها البصيرة. وإن لك حق السيادة لا إهمال الغفلة أفلا يغفر الاعتراف الذنوب، أفلا ينسي نور الرؤية مرارة العمى.

ينسي أيها الأمير ليس باستعادة بصري وإنما باستعادة الصدق هذه الصلة التي كانت بيننا حتى بوقت العمى.

قد قبلت عتابك ادخلي لبيتك يا أم الصدق.

هبّت نسمة زحزحت هدوء نفسي وألقت الغبار على صفحات الكتاب تقلبت صفحاته وهدأت على صفحة تمثلت بها الكادحة الولود.

لا مرحبًا بكِ يا وجه الشؤم.. لقد بار كدحك وأُحبطت مساعيك وافتضح إجرامك أيتها الخائنة.

ستعود لي الدائرة أيها الغريب. ما زلتُ ألدّ المخلصين من جنودِ الملك فأدسهم خفية في جسدك من جهلٍ وغفلةٍ وسيثمرون سلطاني، ما زلتُ أمد أمنياتي فتلمس بغيتها، وأتصيدُ عثراتك وأبثها أدواري، ما زالت لي بذور وطيدة بالتراب كعلاقة الدموع بالمقابر. ستبرع يومًا وتثمر أفكاري وآمالي.

بيوت العناكب هي شباكها، لا شيء يحزّ بالنفس أكثر من أنْ يستغفلك من هو أهلًا لثقتكِ أيتها الكادحة.

وإن تطاول دروك فلجهلٍ وغفلةٍ مني وهذا لن يكون بعد اليوم.

سأنتظر كما ينتظر النور خلف الستائر. وأتسلل بوجوه مقبولة حتى أكشف عن حقيقتي وأبسط سطوتي وسأُسر يومًا سرور الجدران بخربشة الأطفالِ التي تخرجها من صمتِ ألوانها. وإنّ في رقبتي ذمة كذمة صورة الشهيد برقبة المسمار. لن تستكين حتى تبلغ ثأرها.. من لا يراني ببصيرته فلن يشعر إلا وأنا أسحب البساط من تحته. فإني أُهادن وأسالم وأتقنّع الوجوه حتى أحوز الأمان وأكسب الثقة ثم أحرك بيادقي.

لهذا عمدتُ إلى إعماء العباءة.

العباءة هي عقبتي.. وإنّ الإنسان ليثقل بهم العداوة حتى يضعها أرضًا ويركن للموادعة. وللعشرة مردود يخجل عن ردِّ النوايا الناعمة الملساء حتى لو كان وراءها سُمًا زُعافًا. والمبادرة بالطيب تلين لك القلوب وتنحي الحذر وتبسط الأمان فتمرّ من نفقها خلسة المؤامرة.. وإغراء المروءة هو مفتاح الأبواب العصيّة. إنه شِرك حتى لو نازعتك نفسك على الحذرِ منه فلن تملك إلا أنْ تقابله بالتقدير وتمرره لغاياته. والصبر على الحيلة حتى يأمن التوجّس ويكفّ الحذر هو وسيلة إنفاذها.. ومن لم يدرك نواياك ببصيرته، فقد فاته إيقاف نارك في هشيمه. ومن أخذ بظاهرِ الأفعالِ فقد عميت بصيرته بطلاءِ الوجوه عن سبقِ النوايا، والغايات السيئة تنكس رأسها لمرور العواصف، حتى إذا مرّت سحبت خلفها الأفعال الحميدة..

والتظاهر بالمظلومية خير غطاء لإنفاذ الظلم. واستهداف العواطف هو أقصر طرق الامتلاك.. وتغذية العصبيات استحواذ بارع وأدوات حمقاء مدفوعة بالانتقام. إنّ الأمر كله يكمن في إثارة الصفات العجاف لتأكل الصفات السمان.

وتحفيز الدنيء بالقدر، أفضل وسيلة للإطاحة برفيعِ القدرِ. ولا شيء أنفذ للشرورِ من أن أشغلك بتفسير غاياتي عن التصدّي لها. وقوام ذلك إنشاب صراع الآراء والتوجهات لتغض النظر عن تحقيقها.. وتبطن الوجوه وادعاءها على الناس أخطر أسلوب إنساني. وهو حصيلة مخاض طويل من الخُبث والخِداع.. إنّ العداء السافر يوجب استنفار الدفاع، أما العداء المبطن فهو استغفال يسري بك لأهدافه سريان السُم.

ما يؤسفني أيتها الكادحة أن الأساليب الجبانة صارت أكثرَ فعالية من الاساليب الشجاعة.

الضعف والمسكنة سلاح مرن فتّاك يخرج من دائرة الحسبان في المواجهة فلا تعُد له ولا تناهضه، يوهمك بوهنه وعجزه حتى يستدر عطفك وشفقتك، فتهمله حتى يبلغ موضع السطوة فيكشف أنيابه.. وميلُ الإنسانِ الفطري للسلم يجعله يتنازل عن مواجهة كثير من طوالع العداوة. فيكون ثمن سلمه استمكان عدوه.. ومعايشة ثقافة العدو وتقمصها أنفذ للغاية من تجنبها.

وركوب أي ثقافة بادعاء الدفاع عنها، هو أنسب المواضع لضربها من الداخل ونخرها وإسقاطها..

لا شيء أخطر من أعداء الداخل الموجّهون من الخارج .

لذا كنتِ تمدين الأعداء بأبنائك آمنة موثوقة بيننا لا يخطر ببالِ أحدٍ أنكِ كنت تخونين بلدتك وتحتضنين مؤامرات الأغراب مستغلّة غفلة الناس وعمى بصيرتهم. فكانت صور نفسك تتكرر أمامنا بما تنجبين من المشوهين ونحن نستعطفك ونشفق عليك وكان أولى أنْ نشفق على أنفسنا من كيدكِ.

أعدكِ أنْ لن يكون لكِ مكانًا في قريتي بعد اليوم.. اغربي عن وجهي.

نظرت إلي بحقد مديد وغربت باتجاه القرية المهجورة. تعيش على أطلال مجدها الزائف.

ارتجفت أوراقُ الكتابِ كذاكرةٍ تحاول استعادة حدث ما. تقلبت وانبسطت صفحة على تمثل ابنة الكادحة الأَمّارة..

كيف وجدت الأمارة يا ابنة الكادحة؟ ما أنا إلا صنيعة موجهة.. الامتياز الذي لا تصنعه يداك لا يعود بثمرة الرضا.

تنازعك فيه نفسك بغصةِ الشعورِ بهوانِ الاستخدام وانعدام الرأي وفتور الشخصية. ولا أدري كيف تستمتع سلطة بأمر تنفذه على من دونها ينغصه أمر فوقها ويعيد إليها شعور العبيد الذين تأمرهم.. الشعور بالسيادة يحتاج إلى الشعور بالتحرر. ومن استُعبِدت إرادته وحلّت به إرادة الآخرين لن يمتعه صنيع غيره به، ولا صنيع نفسه بتسخيرها لإرادتهم. الأدوات معدومة القيمة وما وضعها قيدَ الاستخدامِ إلا انحطاط قيمتها.. لا يمكنك أن تحترم ذاتك إلا بكدك في تجسيدها وصناعتها دون تدخُّل أو سير على خريطة حرثتها الإرادات السابقة.. الطريق المألوف في الحياة هو طريق القطعان لا البشر.

وليس أبعد من ضياع تُساق فيه النفس بغير صاحبها كمن يسير مكتوف اليدين معصوب العينين بكيس أسود.. وأنّ ثمن مُتع الإمارة وامتيازاتها ورفاهها في الحقيقة هو ثمن انعدام الهوية الشخصية ومصادرة الإرادة والسير بالتسخير. وليس أسوأ من أن تكون سهمًا لهدفِ غيرك. فأنت تهون لدى نفسك بقدر ما يحقق بك من مآربه.. التجنيد بلا قناعة هو استخدام لآلة البشر دون حضور لملكاته وحواسه. وأنْ تكون بموقع السيادة بصناعة من سواك فإنه إنجازه وليس لك به من نصيب إلا بقدر التزامك بأداء تكليفك وإبداء خضوعك كعبدٍ مأمور يتلخص شأنه بشأن أسياده..

لا عتب على من يدّعون المكانة المزيفة.

العتب كله على من يعطوهم هذه المكانة بلا وجه استحقاق..

إنها نوع من العبودية العالية المستوى.. فأقصى ما يسميك به من صنعوك ووضعوك بهذه المكانة أنهم يقولون عميلنا أو أداتنا.

فيكون شعورك حينها كمدينة تزحف من أضوائها نحو ظلمتها لتستر فضائحها.

أعلمُ أنّ دوري كان قائمًا على تغييب إرادتي ونوازعي التي أتكلمُ بها الآن وإنما هي حقيقة نفسي.. وأن غرور المكانة ينسيك تفقّد نفسك. واجتهادك في مجال سلطتك هو ما يخفف بعضًا من ذاتك المصادرة لذا فإنك تصدّق وهمك بالسيادة وتجتهد في إجرامك لتستعيد بذلك ما أغفل أسيادك من مكانتك.

حتى لو كنت غير مقتنع بما تصنع ولو تعارض مع قناعتك. أنا الأَمَّارة الممسوخة الى أميرة عجزت أن أكون ذاتي. سلطة اجتاحتها إرادة الأغراب وقايضتها على تحقيق ذاتها بالإمارة. وصمتت الأمّارة..

قولي لي أيتها الأمّارة من الأفضل فرض الثقافة بالسلطة أم فرض السلطة بالثقافة.

الثقافة لا تُفرض، إنها تُقنِع. وفرض الثقافة بالسلطة هو قسر وجبر واستحياء للناس ومصادرة رأيهم وقمعه. وما يتخذ هذا المنحى إلا من شَابَ ثقافته العيب والنقص وعدم القدرة على الإقناع. ومن كان منهجه ركيكًا لا يقوى على مجابهة الدحض ولا إثبات نفسه لنفي ما عداه. ولولا

هذا الضعف لما احتاجت الثقافة إلى الفرض بالقوة. وشرط تحقيق هذه الثقافة وسمتها أنها تكون بموقع الحكم والسلطة.

وأما فرض السلطة بالثقافة فإنها تُشْبِه ولا تُفرض لأنها تقوم على عامة الناس بالإقناع والتبنّي، وتبني قاعدتها على العموم فيعلو صوتها وتبسط سطوتها بإيمان الناس بها فتكون أداتها القلوب والعقول والأيدي.

وهذا الوصول للسلطة وصول مشروع قائم على تمثيل الناس ورضاهم.

وهي ثقافة قوية قادرة على مواجهة التحديات ومثلها قادرة على إقامة حكم عادل يكون به الأمير جزءًا من رعيته وليس سيفًا مُسلطًا عليها أو مشروعًا يخدم فيه ويؤجر عليه بوهمِ السلطة وخدرِ الرفاهية.

فما نفع سلطة لا تعود بكرامة على صاحبها ولا على رعيته .

تقلبت صفحات الكتاب وحضرت ابنة القاضي..

ما تفعلين هنا يا ابنة الكادحة؟ شيء من الصدق يا ابنة القاضي شيئًا من الصدق. تنازعني عليه الفطرة قالت ذلك وانصرفت باتجاه القرية الأثرية الدارسة.

اجلسي يا ابنة القاضي.. أعلم أنّ داخل الإنسان ماديًا هو قذارة ومعنويًا أعظم ما خلق الله. وإني لأجد بحديث ملكات خلقي الكثير مما أجهل وأَقْرَبهم بالكثير مما ينبغي وأتبناهم بمراقبة دائمة وتواصل حاضر فحدثيني يا ابنة القاضي ما قضية الوجود وما هو التوجّه الأصوب في الحياة.

الوجود قيمة فمن أهدر قيمته أهدر وجوده، والوجود دور فمن تبرأ من دوره خيّب رسالة خلقه، وقيمة الإنسان بحجم قضاياه، وقضية وجوده الحفاظ على فطرة خلقه من التلوث وإخراجها من خوض الحياة نقية كما أُتُمنت لديه.

وهو أمانة نفسه أنْ لا يطغى بها ولا يظل ولا يوردها المهالك.. إنّ خيانة الإنسان العظمى تكمن في التعدّي على ماهية خلقه وتشويهها وحرمانها من منهج فطرتها. والإنسان مؤسسة تامة متكاملة بالفطرة ليس مطالبًا بالإضافة إليها بل بإعمالها وتفعيلها وتأميرها فيصلح بها كل حاله. ثم أنّ الوسيلة لإدراك قضيتك هي التفكير بما حولك. فقضيتك تعرض عليك دورك وتدعوك لأدائه. إنْ كانت في مواجهة وتحدي أو رسالة عِلم وتوعية وسيضع الله لك مؤهلات وقدرات لخوضها. وهي تتردد أمام عينيك حتى تتبناها. فإن كرّست نفسك للأنانية وأهملتها كنت عبئًا على من يحملها نيابةً عنك.. ودين الإنسان هو قيمته وقضيته ومنهجه وتوجهه ودوره، فإن رغِب عن دينه ظلت ملكاته وهوّمت في الظلال. وأقصى ما يُسيء به الإنسانُ لأخيه أنْ يتنصل من دوره ومسؤوليته ويتولى الجهل والأنانية فيحملُه عبء أداء دوره ومسؤولية توعيته لنفسه ودوره.

هناك من يفسدون أنفسهم ويتبنون الجهل والعمى فيصبح نهوض الإنسان بقضيته مثقلًا بهم.

هذا إنْ لم يكونوا في أسوأ الاحوال أعداء ينبغي تحريرهم وتوعيتهم بدورهم.. من يتعمدون حصر حياتهم في المُتع والملذات خائنين لغاية خلقهم متنصلين عن مسؤوليتهم. عليك أن تسوقهم بعصى التوعية

ليعودوا لإنسانيتهم والتوجّه بحدّ ذاته هو فكرة ضيقة المسلك، تفرح كل حزب بما لديهم، والخروج عن المنهج العام والارتباط الإنساني العام هو تحجيم للمسؤولية وفرار من ثقلها. واختطاط خط وتوجه ما باجتهاد ضيق ونظرة محدودة هو اصطناع التطرّف لنزاع الفكر، يتحمل مسؤوليته صناع هذا التوجه. ومن يتبعهم إعجابًا وعبودية.. الإنسان خُلق سيدًا فمن يلغي كينونته ويتبع اجتهاد الآخرين فقد ساهم في تشتيت قضية الإنسان وإنزالها ساحة الصراع.

والاقتداء هو انمساخ.. ما لم يكن في موضع اقتداء بقدر تمثّل المنهج.

لا يبالغ به ولا يتجاوز الوقوع في عمى تبعية الأشخاص..اتبع من الأشخاص بقدر اتباعهم المنهج الحق.. اغسل عقلك بعقول نظيفة.. تبرأ من العبودية وأنّ البشر ليكذبون نهجًا فيتبعونه فيتبعهم غيرهم، فيصدقون كثرتهم وما اجتمع كثير إلا على باطل.. وليس لك من معروفٍ تدعو له بقول إلا أن صدقه فعلك وسبقته قدوتك. وأكثر دُعاة هذا العصر مجردون من تمثل قولهم بفعل. بل هم أبعد الناسِ عن تجسيده.. من يدّعون المثالية لو حاسبوا أنفسهم بصدقٍ لما أبقى لهم حق بتوجيه خطاب للعامة أو إبداء رأي في شؤونهم.

وما اجتمعت عليه أكثرية الخلق لا ينسب إلا للانحلال والانحراف. والحقيقة أنّ كثرة الناس حولك بهذا الزمن الأجوف لا تُعد رصيدًا. ولا يخرج الآلاف بقيمة رجلٍ واحدٍ مستقيم. ولو كان بهم هذا الرجل لَما اجتمعوا على قدوة منحرفة ولاستنكروا أتباعها. وسيادة النموذج الساقط في المجتمع دليل سقوط المجتمع وبراءة أهله من قضاياهم.

صدقتِ يا ابنة القاضي ادخلي لقريتك.

رشفت نسمة بضعة صفحات من الكتاب فتبرمت عن العبدِ الأكبر ضاق الكرسي بجلسته.

ليت عقلك بقوة بدنك أيها العبد.. الشجاعة في العقول وليس بالأيدي.

سيدي الأمير أنا خادمك المطيع.

لست وحدي الذي تخدمه أنت مشروع خادم مبذول لمن يسود. لن يرفض أحد أداة بلا عقل مثلك إلا أنا. فإني أرفض إيواء أداة لا تُفرّق بين الحقِ والباطلِ وتخدم الإصلاح والإجرام على حدٍ سواء. إنْ لم تكن حرًا فلست أهلًا لخدمة الأحرار.. لا أدري لم أذكر الآن الخروفان الهزيلان اللذان يفكران في القطيع.

ربما لأنهما امتازا عنك بالموقف والتفكير والانحياز لأنفسهم وليس للقطيع الذليل ولا لراعيه الخاضع. وكأني بهما يقولان لباقي القطيع: أيها الخرفان افتدوا أرواحكم لحقوقكم وليس للرمز المقدس. أعجزت أن تكون مثل هذان أيها العبد.

سيدي الأمير إنه الإخلاص في الخدمة من خَلَّفني عبدًا بلا رأي.

بل هو استمراء الذل. إن استخدمت أدوات غيري من الجائرين فأنا لا أختلف عنهم في المنهج. كانوا يريدون أداة عمياء وأنا أريد إنسانًا مبصرًا يوجهني في خطأي ولا يساعدني عليه.. المتخاذلون من لا يردون حتى على علل أجساهم بالعلاج. والجبن هو الغصن الذي يبنى عليه التسلط

عشه.. لست مضطرًا لقبول شجيرة شوك تحت أجفاني يخزني مجرد وجودها. لن أسمح لك أيها العبد الأكبر بالدخول إلى قريتي والعيش فيها اذهب إلى من استعبدوك بتلك القرية الأثرية القديمة.. نهض العبد ومضى نحو القرية وغاب في ظلامها.. تقلبت الصفحات وتمثل المتقلب.. وأنت أيضًا أيها الهجين.. يا ابن الكذب يا من استمرأت الكذب حتى تعددت وجوهك لا مكان لك في قريتي. لم يعُد صدقي يتقبل مثلك، عُد إلى قريتك السابقة لن تكون إلا ماضٍ يلفه الندم، هيا امضي، لا أريد أنْ أراك.. سحب المتقلب ذيله ومضى لظلمة القرية الاثرية.. نثرت النسمات صفحات الكتاب وتمثّل القاضي وعجوز الصفح والليّن وضوء الفجر.. مرحبًا بكم يا أعزائي ادخلوا لقريتكم الجديدة..

لا لوم عليكم ولا عتاب بيننا. قد خبرت مواقفكم أيام الغفلة فأنتم أولى بها.

ودخلوا لقريتهم وشعرت أني استعدتُ نفسي من كدرِ الماضي.

شكرًا لله على عظمة خلقه. إذ أعطانا كل هذه الملكات العبقرية التي نقصر في أداءِ أدوارها جهلًا منّا بعظمته.

بزغ الفجرُ وشقَّ شرشف الظلام وانطفأت النار. إنه الفجر الأول الذي تتنفس فيه قريتي هواءً نقيًا خالٍ من الغرباء. تسير به دمائي بلا حاجة للتعبير عن ألم وجودِ الغرباء والتشوهات. اليوم الأول لتحرير نفسي من الغفلة والإهمال والتغرب عنها والانشغال بالمظهر دونها. في أي يومٍ من عمرك بإمكانك استعادة قرية نفسك المسلوبة والعيش معها كما لو أنها أمام ناظريك.

تكلم سكانها وتحتفي بصحبتهم وتحرص على نقائهم وأداء أدوارهم والأهم من هذا أن تعيش زمنهم وتربطه بزمنك، فزمن الشعور ليس كزمن ساعتك.

عادت القرية حرة حية وأميرها قائم عليها.

استيقظ الدكتور ووجدني جالسًا على الكرسي أمام نار مُطفأة.

ألم تنم طوال الليل يا عبد الله.. لا يا دكتور لم أنم.. سمعتُ حديثك، مع من كنت تتحدث؟.. مع نفسي..

دخلت خيمتي وحزمت أغراضي وأمتعتي وخرجت.

أراك حزمت أغراضك إلى أين يا عبد الله؟ إلى اللاعودة .. ماذا تعني.. أعني أني تركت هذا العمل.. ولماذا تتركه لأني سأواصل بحثي في قريتي الجديدة ما حييت وقد زهدت القرى الحجرية.

سأقضي ما تبقّى من عمري في البحث بقرية الكنوز الحية.

وداعًا يا دكتور.. غادرت.. ورأيت الحكيم صدفة أمامي يمدُ لي يده ليصحبني معه.. انتظر يا عبد الله صاح الدكتور ورائي.. انتظر يا عبد الله نسيت قصتك كتاب القصة..

هي لك وهي ليست قصتي وحدي. إنها قصة كل إنسان، وقصتك أنت أيضًا ولكني قد قرأتها..

اقرأها مرة أخرى.

هاتف الكاتب 07822424499-

رقم الإيداع: 13308 / 2019

الترقيم الدولي: 0 – 343 – 838 – 977 – 978